عقيدة الإمام الأشعري

مذهب السواد الأعظم من المسلمين في الأصول

تأليف

مصطفى بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوي العطاس

دار الأصول

الجمهورية اليمنية - تريم - حضرموت

الموزعون المعتمدون

الجمهورية اليمنية :

١. مكتبة تريم الحديثة (تريم)
هاتف ٠٠٩٦٧٥٤١٧١٣٠

٢. دار العلم والدعوة (تريم)
هاتف ٠٠٩٦٧٥٤١٩٣٣٦

٣. دار الفقيه (تريم)
هاتف ٠٠٩٦٧٥٤١٦٥٦٧

٤. مكتبة الصفا (عدن)
هاتف ٠٠٩٦٧٢٢٥٩٩٨٦

الإمارات العربية المتحدة :

دار الفقيه للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
هاتف ٠٠٩٧١٢٦٦٧٨٩٢٠

الكويت :

دار الضياء (حولي)
هاتف ٠٠٩٦٥٢٦٥٨١٨٠

سوريا :

المشرق للكتاب (دمشق)
هاتف ٦٦٩٥٩٥ ٩٤ ٠٠٩٦٣

الأردن :

مكتبة الرازي (عمان)
هاتف ٠٠٩٦٢٦٤٦٤٦١٠٦

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخه أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه وكذلك لا يسمح بالاقتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر .

دار الأصول
للنشر والتوزيع

الجمهورية اليمنية - تريم - حضرموت
هاتف الجوال ٠٠٩٦٧٧٣٣٨٠٤٩٠
E-mail: daralasool_2004@hotmail.com

عقيدة الإمام الأشعري

مَذهب السَّواد الأعْظم مِنَ المُسْلِمين في الأُصُولِ

تأليف
مصطفى بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوي العطّاس

دار الأصول
الجمهورية اليمنية - تريم - حضرموت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم) رواه ابن ماجة مرفوعا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة أبدا ويد الله مع الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم ومن شذ شذ في النار) رواه الترمذي وأبو نعيم والحاكم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وقال عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم : (سألت ربي أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها) رواه الإمام أحمد بن حنبل وغيره مرفوعا .

المقدمة

من خلال مواقعنا على الشبكة الدولية ، كنت أتلقى بين الحين والآخر رسائل يستفسر أصحابها عن عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في الأصول وعن صحة ما تقوله بعض الفرق المعاصرة عنها وعن الإمام الأشعري بوجه عام ، وقد ظهر لي من مضمون بعض هذه الأسئلة ، أن أصحابها كانوا متأثرين بالكثير من المغالطات التي درج عليها وقام بنشرها المجسمة، حول الأشعري والأشاعرة في مختلف العصور.

والحقيقة أن هذا الجانب العَقَدِي قد كتب فيه أهل العلم والمعرفة، مؤلفات ودراسات وشروح قيمة عديدة، أَثْرَتْ المكتبة العربية والإسلامية وخدمت العقيدة الإسلامية جيلا بعد جيل ، لكن العناية والاهتمام بالمطولات من هذه المؤلفات والدراسات والشروح يظل في الوقت الحاضر مقصورا على أهل الاختصاص والبحث في المعاهد والأكاديميات وليس مما يسهل على الكثير من الشباب درسه وفهمه في عصر التخصصات المتباينة والمشاغل المتنامية التي تحيط بالشباب من كل حدب وصوب.

وفي المقابل فإن المختصرات التي تركز على أصول العقيدة عند الأشاعرة فقط دون ذكر أدلتهم، برغم مالها من فوائد وفضل على الطلبة والمبتدئين في العصور الماضية، لم تعد تروي تعطشا إلى التفصيل والتدليل في الوقت الحاضر، أو تشبع نهما في المعرفة، أو تجيب على أسئلة كثيرة حائرة، في غياب ذكر الأدلة عند الأشاعرة وبعض ردودهم على المخالفين والمعترضين، وفي خضم الطرح المتواصل لعقيدة المجسمة وإحاطة رموزهم بهالات العصمة، وفي جوار الكتب والمواقع الإلكترونية الكثيرة التي تشرح أصول المجسمة من جهة وتحط من صحة وقيمة عقيدة الأشاعرة من جهة ثانية.

وخصوصا وأن الكثير من أصحاب المختصرات في عقيدة الأشاعرة والماتريدية المعروفة بعقيدة أهل السنة والجماعة، كانوا في الماضي وحتى وقت قريب ، يتحاشون التوسع في مسألة البحوث العَقَدية أصولاً وأدلةً وردوداً على المخالف، وكانوا يحرصون في الوقت نفسه على التعامل مع موضوع العقيدة بإفراط في الحذر، منعا لما يرونه تعمقا

قد يفضي إلى الحيرة أو إلى تشويش عقائد الناشئة والعامة، لكن هذا الإفراط في الحذر ربما أدى -في عصرنا الذي أصبح مفتوحا على كل الاتجاهات والتيارات- إلى تفريط في إقناع شباب متعطش إلى المعرفة والوضوح في هذه المسائل وإلى نكوص عن الإجابة عن أسئلة كثيرة ومستجدة يطرحها عصر المعلومات الذي يتدفق فيه على الشباب، كم كبير من المعارف التي يختلط فيها الغث بالسمين والحق بالباطل.

وصدق أبو الطيب المتنبي حين قال : ... **وبضدِها تتبينُ الأشياءُ**

ولا جدال في أن خلو الساحة من مجالسَ ومدارسَ البحوثِ المعمقة في عقيدة أهل السنة والجماعة وأدلتها وعرض ما يخالفها، ومن الكتابة المتصلة في ذلك بأسلوب العصر ومنهجه ، والتحرج الشديد من فتح باب الحوار المباشر أو المكتوب في هذا الجانب المهم، والعزوف عن الاطلاع على أقوال كل الفرق ومعرفة حقيقة ما هي عليه، قد أوجد عزوفا عن الاهتمام بمعرفة حقيقة مذهب الأشعري في الأصول ، وأصبحت أعداد كبيرة من المسلمين ومن كافة الأعمار والشرائح الاجتماعية تظن أن الأشاعرة والماتردية مبتدعة أو متأثرون بأطروحات الفلاسفة ، وأن أصول المجسمة ، هي العقيدة الإسلامية الصحيحة التي يجب التمسك بها وتأسيس الاعتقاد عليها ، بل وتبادر إلى تكفير كل من خالف عقيدة المجسمة أو فند حججها.

وفي خضم كثرة الأسئلة والتساؤلات التي ترد إليَّ حول عقيدة الأشاعرة ، ممن لا عذر لي في الرد عليهم، وفي ضوء الحقائق التي أشرنا إليها آنفا حول المطولات والمختصرات في أصول العقيدة أقدمتُ على جمع وإعداد هذه الرسالة المتواضعة عن مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في الأصول، بشكل يرتب النتائج على المقدمات قدرَ المستطاع ويعتمد في نقل مذهب الأشعري عن الثقات من أعلام الأشاعرة ، وقد جعلت الرسالة قسمين :

القسم الأول : أشرت فيه إلى الحالة العَقَدية بوجه عام عند البعثة المحمدية، وأسباب نشوء المذاهب العَقَدية والنحل، والتحول الأساسي في البحث والجدل وأسبابه ونتائجه، كما أوردت فيه بعضَ أقوال علماء السلف والخلف حول أهمية شرح وتفصيل أصول

العقيدة الصحيحة وأدلتها والدفاع عنها، كما أوضحت منهج السلف في التفويض مع التنزيه والخلف في التأويل مع الاعتدال.

أما **القسم الثاني** من هذه الرسالة : فقد خصصته للإمام الأشعري، ترجمة ، وسلوكا ، ولأسباب تحوله عن الاعتزال إلى التوحيد والتنزيه والجمع بين النقل والعقل ، مع شرح حال المسلمين قبل ظهور مذهب الإمام الأشعري ، وكيف اتخذ وتلامذته خط الاعتدال الوسط في أصول العقيدة بين الإفراط من طرفيه عند المجسمة من جهة والمعطلة من جهة أخرى، وكيف أثبت عدم التعارض بين العقل وما صح وثبت من النقل مع تحليل ما تتداوله الأيدي من كتب منسوبة إلى الإمام الأشعري .

ثم بعد ذلك أوضحتُ مذهبَ الإمام الأشعري في أصول العقيدة –قدر ما يسمح به المقام والهدف من تسطير هذه الرسالة– من مصادر المذهب الموثوقة والمتمثلة في ما كتبه الإمام الأشعري وما سطره أعلام الأشاعرة المشهود لهم بالصدق والتقوى والأمانة وغزارة العلم وقوة الحجة، غير مدعيا الإحاطة فيما كتبت أو العصمة والكمال .

والناس حيال أي قضية من القضايا الكبرى في مجال الدين أو أمور الدنيا المتعقلة بالجماعة الإنسانية ينقسمون إلى أقسام ثلاثة :

١) **موافق** : بحكم الموروث الاجتماعي التراكمي ، أو بعامل من عوامل العصبية المشتركة مع من يوافقه ، أو بدافع من الانبهار السطحي برموز معينة في العقيدة أو السياسة أو في الجوانب الروحية في ظل تعبئة إعلامية طويلة ومستمرة ، أو بسبب منافع ومصالح حسية أو معنوية يوفرها له ما يتعصب له ويخشى من فواتها إن هو احترم حق المخالف في طرح ما عنده أو تقبل أسلوب الحوار الواعي المهذب مع المخالف سعيا وراء الحقيقة .

٢) **مخالف** : لا يقبل مراجعة أو حوارا أو حقا لغيره في الاختلاف معه مهما كانت قوة حجة المخالف وأدلته بدافع من ضغينة شخصية على من يختلف معه بسبب من العِرق أو المذهب أو الموطِن أو تفاوت المكانة الاجتماعية المكتسبة، أو بأسباب مشتركة مع الصنف الأول وتتمثل في الانبهار السطحي برموز معينة في العقيدة أو السياسة أو في

الجوانب الروحية في ظل تعبئة إعلامية طويلة ومستمرة ، أو في منافع ومصالح حسية أو معنوية يوفرها له ما يتعصب له ويخشى من فواتها إن هو احترم حق المخالف في طرح ما عنده أو تقبل أسلوب الحوار الواعي المهذب مع المخالف سعيا وراء الحقيقة .

٣) **متواضع** : للحق والعدل، مدرك بأن فهمه نسبيا كبشر ، قابلٍ للخطأ كما هو قابل للصواب في كل ما يجد أمامه من قضايا قديمة أو معاصرة ، باحثٍ في الوقت نفسه عن الحقيقة أينما وجدت، محترِمٍ لحق الآخر في الاختلاف معه، ساعٍ إلى الحوار الواعي والمهذب مع الآخر المخالف لمزيد من الفهم ومعرفة حقيقة ما عند الآخر من مصدره الصحيح وليس من مصادر خصومه المضللة والمبالغ فيها ليتعاون مع هذا المخالف فيما يتفقان فيه ويعذر بعضهما بعضا فيما يختلفان عليه دون أن يفسد ذلك الاختلاف للود والصدق والعدل قضية بينهما ، مؤمن بأن الحكمة ضالة المؤمن يسعى إليها أينما وُجدت وعند من وُجدت ، حماه الله بفضله وكرمه من آفات العصبية والسطحية والانبهار ومن الضغينة الشخصية على من يخالفه أو يختلف معه .

والصنف الثالث هذا من البشر هم الذين أتوجه بكتابي المتواضع إليهم وأهديه لهم وعلى الله وحده أتكل وبه أستعين ، ومنه ألتمس الهداية والتوفيق والسداد.

الفقير إلى الله :

مصطفى بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوي العطاس

الحالة العامة

عند البعثة المحمدية

في ظل نظام مؤسَّس على السخرة والتمايز الطبقي الصارم ، وفي مجتمع جاهلي مغرق في جاهليته، يعبد أهله ما ينحتون، ويعيشون مما ينهبون، ويتوارون خجلا من بعض ما ينجبون، فيدفنون بناتهم أحياء في بطون الصحاري وغياهب الرمال ، القوي منهم يأكل الضعيف والكبير يظلم الصغير والسيد يستعبد من دونه .

وفي ظلام عقدي دامس من حول هذا المجتمع مكون من أديان وملل شتى :

منهم من قالوا لنبيهم : ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ وهم الذين قالوا أيضا لنبيهم قبل أن تجف أقدامهم من ماء البحر الذي نجاهم الله بعبوره من فرعون وبطشه وجنوده ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ ، وعبدوا عجلا جسدا بمجرد أن غاب عنهم نبيهم وظلوا حوله عاكفين.

ومنهم من اخترقهم الفريق الأول بحقده وتآمره وعصبيته فانحرف بهم عن دعوة نبيهم المبنية على المحبة والرحمة والعدالة والتواضع إلى تدمير وحروب وحقد حتى قال أحد مبشريهم : إنني عندما أقرأ العهد القديم الذي اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية المصدر الأساس للمسيحية أجد نفسي وقد وصلت إلى مناحيم بيجن أو إلى آريل شارون وليس إلى السيد المسيح عليه السلام .

ومنهم قوم يقودهم فلاسفة كلما اصطدموا بجسم أو جوهر أو عَرَض من أعراض هذه الأجسام والجواهر جعلوا له إلها خرافيا في مملكة خرافية أسطورية من ذكور وإناث يتزاوجون ويتزاورون ويختلفون أحيانا بل ويتناحرون.

ومنهم صابئة عبدوا الأجرام العلوية كأصحاب الهياكل الذين يعتبرون الشمس إله كِّل إله .

ومنهم حرّانية يرون أن الخالق واحد في الأصل كثير بتكاثر الأشخاص في رأي العين التي يتشخص الواحد بأشخاصها وتحل ذاته أو جزء من ذاته فيها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومنهم الثنوية المجوس الذين عبدوا النار وقالوا بخالقين اثنين : النور خالق الخير والظلام خالق الشر على اختلاف فِرقهم ، التي منها : المزدكية ، التي تقول: بأن المعبود قاعد على كرسيه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملِك) في العالم الأسفل تعالى الله عن ذلك.

ومنهم أخذت الحشوية ثم الفرقة السلفية القول بـ: (أن الله يجلس على عرشه جلوسَ مماسةٍ واستقرار) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وهو ما قاله ابن تيميه في أكثر من موضع من كتبه.

ووراء تلك الأمم : أمم تنوعت ضلالاتها وشركها من دهريين وطبيعيين نفوا وجود الصانع المدبر الحكيم، ومن وثنين نفوا ما وراء الحس وأنكروا النبوات وقال بعضهم بتناسخ الأرواح وتنقلها بين الحيوان والإنسان .

في هذا الخضم المتلاطم من الضلال والجبروت والجهالة ، بعث الله جلت قدرته وتقدست أسماؤه نبيه محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بدعوة الحق والتوحيد والهداية التي ختم بها الرسالات وخلَّص بها الإنسان من آلهة الضلال والهمجية، وأطلق العقل من عقال الخرافة والتعصب والجمود.

وللمرء أن يتصور رسولا يبعثه الله في هذه الدياجير المظلمة في مجتمعه ومن حوله ويكلّفه خالقه وباعثه جلت قدرته بأعباء رسالة تتعدى حدود مجتمعه الصغير في مكة لتشمل العالم بأسره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، من حيث المكان، وتغطي الأعوام والقرون والعصور إلى قيام الساعة من حيث الزمان، وتضطلع بمهمة هدم متواضعات حاطها أصحابها بهالات من القداسة والعصمة وحشدوا حولها أضخم وأقوى الجيوش وأكبر عناصر القوة في عصرهم، لأنها كانت مصدر رزقهم وسطوتهم وجبروتهم وسيطرتهم على المجتمعات الإنسانية بشكل مقيت.

ومن هذا التصور يستطيع المرء أن يدرك جسامة المسؤولية وثقل المهمة التي ألقاها الخالق جل شأنه على نبيه وحبيبه محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فكان لها أهل، وكان هو الأمين المأمون الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به كل غمة.

وللمرء أن يتصور أيضا حجم المشقة والعناء والمعاناة التي تحملها صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في سبيل دعوته والتي تعجز عن احتمال بعض منها الجبال الشوامخ والأطواد الراسخة .

لقد أدى هذا النبي العظيم ، الرؤوف الرحيم ، الصادق الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، الأمانة كأعظم ما يكون الأداء ، وبلّغ الرسالة بأوفى ما يكون التبليغ، وكان التوفيق والنصر والنجاح بفضل الله وعونه حليفه في كل خطوة وحركة ، وكان الانحسار والاندحار والهزيمة في ظل دعوته المباركة، حليف الكفر والشرك وقرين الجهل والجبروت والجمود .

لقد ارتكزت الدعوة الإسلامية المحمدية على ثلاث قواعد رئيسة :

أولاً : الإيمان بالله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وتنزيهه جلت قدرته عن مشابهة خلقه وعن أن يحل في حادث أو أن يكون محلا للحوادث ، فكل ما عداه مخلوق حادث وهو وحده الخالق القديم الذي ليس كمثله شي، وأن كل ما يتصور في الأذهان فالله تعالى بخلافه ، وأن سيدنا وحبيبنا محمد الهاشمي القرشي العربي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله هو النبي والرسول المعصوم خاتم الأنبياء وسيد الأنبياء والمرسلين والأولين والآخرين الذي نسخ الله بشريعته كافة الشرائع قبله ، وأن الإيمان بكافة ما جاء به عن الله تعالى واجب ، وأن من يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه .

ثانياً : توضيح الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية في العبادات والمعاملات، لما فيه خير البشرية وأمنها واستقرارها ونموها والحكم بما أنزل الله وكما أراد جلت قدرته في كل شأن من شؤون الدنيا والدين .

ثالثاً : الوصول بمكارم الأخلاق وقواعد السلوك إلى الغاية القصوى في السمو والجمال والإبداع من خلال المثل الأعلى الذي مثّله سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وقدّمه آله الأطهار وصحبه الأخيار، فقد وصفه ربه بأعظم وأشمل وصف حين خاطبه عز من قائل حكيم بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ . وحدد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله جوهر ومضمون رسالته العظيمة حين قال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ولم يكن الصحابة في وجود الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في حاجة إلى اجتهاد في مسائل العقيدة والشريعة والسلوك، لأنه كان المرجع الذي لا ينطق عن الهوى وكان قوله الفصل وردُّهُ الجامع المانع في كل مسألة تطرح عليه ، وكانوا يسجلون منه وعنه كل صغيرة وكبيرة من كلامه وفعله وسلوكه الذي أصبح منهلا للأمة بل وللإنسانية جمعا والمصدر الأساس الثاني للتشريع الإسلامي.

والحقيقية فإن صفاء الذهن العربي بعد أن زكّته الدعوة المحمدية من عاهات الشرك والخرافة والضلال، وما يتمتع به الإنسان العربي من حرية في النظر والحركة والتعبير والانتقال، و ما تمتاز به الصحراء العربية من رحابة وفسحة نظر، ومن مجال واسع منطلِق للفكر والذكر والتفكر في الفضاء الكوني الذي خلقه الباري جل شأنه وأبدعه، قد كان له أكبر الأثر في صرف العقل العربي عن الانغلاق في المجرّد، وعن التيه في مسارب التكلف، وعن الإيغال في مفاوز البحوث المتعسفة والشاذة في مسائل العقيدة.

يقول الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه :

وجميع أطراف هذا العلم –أي علم التوحيد– يحصرها النظر في ذات الله تعالى وفي صفاته سبحانه وفي أفعاله عز وجل، وفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جاءنا على لسانه من تعريف الله تعالى فهي إذن أربعة أقطاب:

القطب الأول : النظر في ذات الله تعالى فنبين فيه ، وجوده ، وأنه قديم ، وأنه باق ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم ، ولا عرَض ، ولا محدود بحد ، ولا هو مخصوص بجهة ، وأنه مرئي -أي : يوم القيامة بلا كيف- كما أنه معلوم، وأنه واحد .

القطب الثاني : في صفات الله تعالى ونبين فيه أنه حي ، عالم ، قادر ، مريد ، سميع ، بصير ، متكلم ، وأن له حياة ، وعلما ، وقدرة ، وإرادة ، وسمعا ، وبصرا ، وكلاما، وأن هذه الصفات زائدة على الذات ، وقديمة ، وقائمة بالذات ، ولا يجوز أن يكون شيء من الصفات حادثا.

القطب الثالث : في أفعال الله تعالى وفيه سبعة دعاوي، وهو أنه لا يجب على الله تعالى التكليف ولا الخلق ولا الثواب على التكليف ولا رعاية صلاح العباد ولا يستحيل تكليف ما لا يطاق ولا يجب عليه العقاب على المعاصي ولا يستحيل منه بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل يجوز ذلك.

القطب الرابع : في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما جاءنا على لسانه من الحشر والنشر والجنة والنار والشفاعة وعذاب القبر والميزان والصراط.

انتهى من ((الاقتصاد في الاعتقاد)) .

أسباب نشوء النِّحَل

والمذاهب الفكرية

بعد انتقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله إلى الرفيق الأعلى، وانقضاء خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وجزء كبير من خلافة عثمان رضي الله عنه ، نَجَمَ صراعا سياسيا بين المسلمين ليس هنا محل شرح أسبابه ومجرياته ونتائجه.

وبدأت في آخر خلافة سيدنا عثمان تتشكل فرق من داخل الإسلام وخارجه بلغت أُوجها في الاصطفاف ووضوح الملامح خلال الفترة الأخيرة من خلافة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وخصوصا بعد التحكيم في صِفِّين ومقتل الإمام علي على يد خارجي شقي مارق والصلح بين الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان ، وكان ذلك الاصطفاف السياسي الذي تقنّع بقناع فكري وعقائدي يتوزع في ثلاث فرق رئيسة وهي :

(١) **الخوارج** : الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه بعد التحكيم في معركة صِفِّين، رغم أنهم كانوا هم الذين ضغطوا من أجل الاستجابة لذلك التحكيم وقبوله. وهم الذين كفّروا من عداهم بعد ذلك وأرسلوا قولتهم الشهيرة : (لا حكم إلا لله) التي وصفها الإمام علي بأنها : (كلمة حق يُراد بها باطل) لأن الحكم لله والمنفذ لحكم الله لا بد أن يكون إماما عادلا من خلق الله.

(٢) **الباطنية الغلاة** : الذين قالوا بوجود معاني باطنة تتناقض مع المعاني الظاهرة للآيات القرآنية تناقضا تاما، وغلوا في الإمام علي وبعض أولاده لا حباً فيهم بل استغلالا للمحن التي تعرضوا لها وكان هدف ذلك الغلو الممقوت في المقام الأول هو شق الصفوف وزعزعة عقائد المسلمين.

(٣) **أحبار اليهود والنصارى والمجوس** : وكهّانهم ودعاتهم الذين خفتت أصواتهم في عهد النبوة وفي ظل قوة المسلمين المستمدة في الصدر الأول من الخلافة الراشدة. ثم

وجدوا في الصراع السياسي الإسلامي بعد ذلك حلقة ضعف حاولوا النفاذ منها من خلال التشكيك في عقائد المسلمين وخصوصا في مباحث ذات الله وصفاته وأسمائه ومن هؤلاء أيضا برز فريق آخر من النواصب الذين جعلوا من بغض النبي وآله والتشكيك في تاريخهم وأنسابهم هدفا ومنهجا وخطةَ عملٍ طويلة المدى متصلة الحلقات.

التحول الأساسي في البحوث والجدل

بعد انتشار الإسلام على نطاق كوني واسع وتواصل حركة الفتح الإسلامي ودخول أمم كبيرة ذات ثقافات وفلسفات وأفكار متنوعة إلى الإسلام، اقتحمت المجامع والمدارس والحلقات الإسلامية أفكار وأسئلة ومناقشات لم تكن لها كبير أهمية أو اهتمام في ما مضى من عهد النبوة والخلافة الراشدة.

وقد انقسم المسلمون الجدد من غير العرب إلى فئتين:

الفئة الأولى : وهم الغالبية العظمى، كان الاقتناع والصدق في قبول الدعوة الجديدة هو أساس إسلامهم، حيث ألقى بعضهم بكل موروثاته من ثقافة وفلسفة وفكر، سلبيا كان أو إيجابيا، في سلة مهملات التاريخ، واكتفى بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله بشكل تام على نهج الصحابة الكرام .

وحاول البعض الآخر من هذه الفئة الأولى الاحتفاظ بالإيجابي فقط من موروثه في الفكر والثقافة والفلسفة والعلوم مع البحث عن ما يدعم هذا الموروث في آيات القرآن وأحاديث الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه وعليه وعلى آله، وعمل مع العلماء المسلمين العرب في نفس الوقت على تطوير وترجمة الإيجابي من هذه الثقافات والعلوم إلى اللغة العربية وإعادة صياغته بما يتلاءم وعقيدة الإسلام وشريعته فأضاف بذلك ثروة علمية وحضارية تراكمية إلى الثقافة الإسلامية امتد نفعها غربا وشرقا في كافة أرجاء المعمورة.

الفئة الثانية : وهي التي دخلت الإسلام رغبا أو رهبا دون اقتناع وصدق، فحاولت بعد ذلك : العمل من داخله على زعزعة أركانه وكان التشكيك في العقيدة ومحاولة طرح

الموروث السلبي من الفكر الخرافي والسفسطائي في مجرى العقيدة الإسلامية الصافي هو وسيلتها في تحقيق مأربها في إضعاف الإسلام على أمل العودة بالمسلمين كافة إلى الأديان والملل السابقة كل حسب دينه القديم وموروثه المنحرف.

هذه العوامل والمستجدات في مسائل العقيدة، فرضت على العديد من علماء المسلمين القادرين على مقارعة الخصوم بالحجة أن يعودوا بعقلية الفاحص الدارس المستنبط إلى القرآن والسنة وكلام السلف الصالح لاستخراج ما يدعم عقيدة التوحيد ويفند دعاوى الخصوم ويحمي عقائد المسلمين من اللبس والشك البلبلة.

وقد وجد بعض من هؤلاء العلماء أن خير وسيلة للنجاح وبلوغ القصد هو استخدام نفس أدوات وأساليب الفلاسفة والمناطقة من فرضيات ونظريات وبراهين عقلية ومناهج جدلية في مناظرة الخصوم ومقارعتهم بالحجة وتفنيد مزاعمهم وضلالاتهم وتشكيكهم، من واقع أن المناظر في الطرف الآخر كان يستخدم مثل هذه الفرضيات والنظريات والبراهين والتسلسل الجدلي بإجادة في الحوار والمناظرات الشفوية والمكتوبة، وأن هذه الأدوات هي قواعد الحوار المشترك مع الخصم ووسيلة التقرير والإلزام بين المتحاورين.

ورغم الفائدة الكبيرة التي عادت على الفكر الإسلامي بوجه عام من استخدام وسائل الفلسفة والمنطق في المناظرات مع خصوم الإسلام من الملل الكافرة والنِّحل المنحرفة ومقارعة الحجة بالحجة دفاعا عن العقيدة الإسلامية، إلا أن الشطط والإفراط في استخدام فرضيات الفلاسفة والمناطقة ونظرياتهم وأساليبهم في الجدل أدى عند بعض المفكرين الإسلاميين وخصوصا عند المعتزلة ، إلى حالة من العدوى المزمنة وإلى نوع من التقديس والعشق لتلك الفرضيات والنظريات والبراهين العقلية، واتجه بهم إلى الركون المطلق على العقل فقط، ورفض أو على الأقل استبعادِ الاعتماد على النقل من نصوص القرآن والسنة في مسائل العقيدة.

وفي مقابل هذا الغلو المطلق في الثقة بالعقل فقط إلى حد التقديس، ذهبت طائفة من المسلمين في اتجاه معاكس برز في غلو وتطرف وحرفية في النقل لا تجيز تأويلا لبعض

النصوص أو مجازا تقتضيه ضرورة اللغة وواجبُ تنزيه الخالق ولا تقبل دليلا عقليا مهما كان منسجما مع نصوص المصادر الشريعة ومضامينها ودلالتها، ولا تفرق بين اتفاق بعض الأسماء والصفات في اللفظ وبين اختلافها في المعنى عند تنزيلها على الخالق أو المخلوق.

فَتِّشْ عن التطرف

لقد أدى التطرف ، والاصطفاف المغالي عند بعض الفرق الإسلامية، والسعي لنصر الذات وإبراز قدرتها وتفوقها وليس انتصارا للحق والعقيدة ، إلى اختراق هذه الفرق وتسلل العديد من العناصر المشبوهة والمتآمرة إليها.

ولا يخفى أن التطرف هو الباب الواسع الذي يدخل منه المشبوهون والمتآمرون إلى الفرق والمذاهب والجماعات في كل عصر ومصر، وهو الأداة الفاعلة التي يخترق بها المندسون والمتربصون كيانَ الأمة فيبرزون أكثر تطرفا وشططا وتعصبا في أدبيات واجتهادات أصحاب المذاهب والفرق ، ويتحركون دائما تحت راية هذا التطرف وينشرون شعاراته ويتنكرون في أزيائه ويحركون به أصحاب المذاهب والنحل متى وكيف وأين شاءوا.

لقد بدأ خروج الخوارج حنقا وتبرما على نتيجة التحكيم بعد وقعة صِفِّين وكان يمكن السيطرة عليه بالحجة والإقناع لولا التطرف والتشنج الذي مارسه بعض أولئك الغاضبين الحانقين مما فتح الباب على مصراعيه للمندسين والمتآمرين على العقيدة ليحولوا ذلك التيار الغاضب في النفس الإنسانية الذي كان سيثوب إلى رشده بعد حين لو التزم القصد وسمع بعقل ووعي توضيحات الإمام علي عليه السلام وابن العباس وغيرهم من أعلام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين- إلى وحش كاسر مدمّر سقى الإسلام والمسلمين لقرون عديدة وحتى هذه الساعة كؤوسا صبرة ، وهي النتيجة التي رآها سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله في حركة الخوارج بفهم النبيين وحفظ المرسلين وإلهام الوحي الإلهي، حين وصف أولئك الخوارج -بسبب من ذلك

التعصب والتطرف الذي أدى إلى فتنة عاصفة لا زالت آثارها السلبية بارزة وفاعلة حتى ليوم- بأنهم كلاب النار وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لايعودون له حتى يعود السهم إلى فوقه.

والتشيع بدأ انتصارا للإمام علي عليه السلام ودفاعا عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتفانيا في محبتهم وموالاتهم، وحنقا وتبرما مما لحق بهم من ظلم وقتل وتشريد وتنكيل ولعن على أعواد المنابر لعقود متصلة ، لكن التطرف والغلو الذي دخل المندسون والمشبوهون والمتآمرون من بابه إلى التشيع، انحرف ببعض الشيعة من محبة أهل البيت ونصرتهم إلى تجريح أو تشكيك في كبار الصحابة وفي بعض أمهات المؤمنين أو إلى باطنية مغالية ومعتقدات إلحادية كافرة.

والمعتزلة كانوا في بدايتهم أصحاب فكر جدلي منطقي متحمس وثقافة واسعة ناقدة استخدموها في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وفي مواجهة خصوم الإسلام خصوصا من أصحاب الأديان المنسوخة وبعض أصحاب الثقافات الدينية الوثنية الذين دخلوا بتراثهم إلى الإسلام وأردوا نشره بين المسلمين، فكان للمعتزلة في البداية، جهد مشكور ودور محمود ونجاح مشهود في هذا المضمار ولأن الخصم في الطرف المقابل يرفض القبول بالنقل عن نصوص الإسلام كحجة عليه والمعتزلة يرفضون نصوص عقيدته أو ثقافته كحجة عليهم أو على الإسلام، كان لابد من لجوء الطرفين إلى قاسم مشترك مقبول منهما تمثل في الأدلة العقلية المحضة في المجادلة والحِجاج وكان النصر في الغالب حليف المعتزلة على خصومهم من أصحاب الأديان المنسوخة والنحل الوثنية.

لكن طول الجدل والحِجاج بالأدلة العقلية أدى بالمعتزلة كما قلنا آنفا إلى حالة من لعدوى المزمنة وإلى نوع من الشطط والإفراط والإغراق في استخدام تلك الفرضيات والنظريات والبراهين العقلية، واتجه بهم إلى الركون المطلق على العقل فقط ورفض أو على الأقل استبعادِ النقل من نصوص القرآن والسنة في مسائل العقيدة، وإلى تطرف تعصب ممقوت وإلى تقديس للعقل وإعجاب بالنفس واستعلاء على الغير فاعتسفوا تنطعوا كثيرا في مسائل العقيدة والآيات المتشابه بشكل أدى بهم إلى انحرافات خطيرة

كان من أبرزها رفض الأدلة النقلية من نصوص المصادر الإسلامية في مسائل العقيدة بل ومخالفتها في كثير من الأحيان من النقيض إلى النقيض، وإلى الاستقواء بالحُكّام الذين ذهبوا مذهبهم كالمأمون العباسي وبعض من خلفه في الدولة العباسية لفرض معتقداتهم كما حصل في قضية خَلْق القرآن وغيرها من أصولهم الخمسة، بسوط السلطان وقهر القوة وإرهاب الدولة.

لكن مما يلفت الانتباه أن المجسمة والمشبهة الذين يسميهم أهل العلم بالحَشَوية والذين حملت الفرقة التي تسمي نفسها بالسلفية رايات تشبيههم وتجسيمهم بعد ذلك، قد برزوا من حين ظهورهم في الوسط الإسلامي، تيارا متطرفا ومشبوها أسبغ على الله أوصافا ونعوتا كانت غاية في البشاعة والتصوير والتنفير، وجعلوه جسما يشبه خلقه في ذاته وصفاته، وجعلوه محلا للحوادث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وعقيدتهم نقل شبه حرفي من عقائد اليهود والنصارى والمزدكية المجوسية.

وبسبب من الجهل والجمود الممزوجين بعقدة الاستعلاء وقع بعض الحنابلة في مستنقع الحشوية الموبوء بالتجسيم والتشبيه، وجاء بعض رموزهم بعظائم وفضائع من المعتقدات الضالة المشبوهة مثل القول بحوادث لا أول لها والاعتقاد بفناء النار وبتعدد التوحيد وبوجوب أن تحمل آيات المتشابه من القرآن الكريم على ظاهرها وأن نثبتها على حقيقتها مع نفي المجاز والتأويل، مع غمامات لهم مضللة لا معنى لها -بعد أن يغرقوا في مستنقعات التشبيه والتجسيم- ولا تجوز إلا على السذج مثل: (يد حقيقية تليق بذاته تعالى) أو (صعود حقيقي يليق بذاته) وغير ذلك من الخداع والتضليل.

وقد سلك أولئك النفر من الغلاة الحَشَوية مسلك الخوارج في تكفير كل من خالفهم في ضلالاتهم وتطاولهم على الله ورسوله ونصبوا أنفسهم أوصياء على الإسلام والمسلمين حيث مارسوا إرهابا فكريا وثقافة استبدادية كالتي مارسته الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش في أوربا مع المعارضين والمعترضين بشكل شبه تام.

المشترك الأعظم

بين الجحود والجمود

(قلنا عن أسباب الغلو والانحرافات في العقيدة : (فتش عن التطرف) ، وقد أوضحنا هنا تعريف التطرف ومقدماته ونتائجه)

***

خلف كل انحراف أو تحريف في السلوك الإنساني ميل عن الوسطية والاعتدال واندفاع نحو الطرف الحدِّي الذي يبعد بصاحبه عن عقلانية التعامل مع من حوله وعن قبول الآخر والتسليم بحقه في التميز والاختلاف، والابتعاد المفاجئ أو التدريجي عن الوسط المعتدل في العقيدة والفكر والسلوك نحو الطرف الحدي تجعل من المتطرف أياً كانت عقيدته أو فكره أقرب إلى كل متطرف يماثله في التطرف من حيث الأسلوب والممارسة والنتائج حتى وإن كان يناقضه مناقضة تامةً في العقيدة والفكر والمظهر الخارجي.

ولو وضع الباحث سلوك أي متطرف تحت مجهر البحث المجرد سواء كان هذا المتطرف علمانيا أو يساريا أو إسلاميا أو من أي ملة أو نحلة من الملل والنحل المتواجدة على سطح المعمورة لوجد تماثلا في الأساليب والممارسات والنتائج تبرز عند كل متطرف في ضيق الأفق وجفاء الطبع وظلمة النفس والميل إلى الشر والعنف وسفك الدماء وتشابها في النتائج التي يفرزها سلوك المتطرف وممارساته تظهر في: تراجع في حرية التعبير والرأي وخوف يسحب ظلَّه على كل فرد في المجتمع حتى يتحول إلى رعب جماعي وتخلف متواصل عن ركب الحضارة والتقدم والعلم وانهيار تدريجي للسلام الاجتماعي والوحدة الوطنية

وإذا أردنا أن نصل إلى تعريف للتطرف يقربنا من فهم حقيقته لقلنا: إن التطرف هو الاندفاع نحو الطرف الذي ليس بعده إلا الهاوية السحيقة والسقوط المدوي، والطرف

المحاذي للهاوية هو دائما أقرب للطرف الذي يتناقض معه في النهج والأسلوب وفي الأدوات والوسائل وإن اختلفت المقاصد والدوافع والتوجهات.

والمتطرف تبرز في نهجه وسلوكه خصائص خمس، قلما يخطئها المراقب ويمكن إجمالها في :

١- إمكانية التحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض، وقد رأينا ملاحدة كانوا متطرفين في إلحادهم ورفضهم للخالق وشريعته وأنبيائه لدرجة الهوس، قد تحولوا بتحول الظروف والمصالح والمستجدات الاجتماعية والسياسية إلى إسلاميين متطرفين إلى درجة الهوس أيضا يجوبون الحواضر والبوادي مكفِّرين كل من خالف زيهم الجديد وداعين إلى قتله والتنكيل به.

٢- سهولة الانقياد للقوى المتربصة بالأرض والعرض والعقيدة، حيث لا يستدعي تجنيد المتطرف من قبل تلك القوى كبير جهد أو كثير عناء، ويكفي أن نعلم بأن أهم المواصفات المطلوبة في من تسعى تلك القوى إلى تجنيده واستخدامه : هي التطرف في المقام الأول ثم النرجسية وهستيريا جنون العظمة والجهل والدعوى التي يتحول بها ضمير الأنا إلى ورم خبيث قاتل.

٣- العداوة المزمنة للعلم والعلماء ، والرفض الشديد للتطور العلمي والتحديث الحضاري الذي تمتلك المجتمعات من خلاله أسباب القوة والتقدم والرخاء، والسخرية من التحصيل العلمي الديني والدنيوي المؤسس على منهج وقواعد واضحة ومدروسة. والاستعاضة عن ذلك بأساليب حرق المراحل التي توفرها للراغبين والمضلَّلين -بفتح اللام- محافل التطرف ومدارسه ذات الأساليب والنتائج المتشابهة وإن تناقضت في الأهداف والمظاهر، لأن نتائجها في كل الحالات خروج العنصر المتطرف على الناس، بزي العالم وعقل الجاهل وقلب المدعي المغرور، وليس تخرجه

٤- التحول بالتعبئة الخاطئة والتضليل المتصل من خلال كلمات الحق التي يراد بها باطل، إلى عنصر مدمر في مخزون بشري كمي يعيش غيبوبة شبه كاملة. هذا المخزون يكون جاهزا في كل وقت للاستخدام السياسي أو العقائدي من كل من هب ودب.

٥- القطيعة التامة مع العلم والتواضع، فطريق التطرف من جهة وطريق العلم والتواضع من جهة أخرى يسيران أبدا في خطين متوازين لا يتلقيان، ويندر بل يستحيل أن تجد عالما أو طالب علم حقيقي، يكون في نفس الوقت متطرفا أو مترددا على محافل التطرف.

ولقد أدى الخلط بين التطرف والتدين وبين التطرف وحرية الرأي إلى اختلال في الموازين والمعايير وإلى تعدٍّ على القيم والمقدسات وإلى ثغرات في فهم العقائد وفي سلوك المعتقدين نفذ منها كل ساع إلى البلبلة والتدمير.

فالممتثل لأوامر الله جلت قدرته والمجتنب لنواهيه، الذي يطلب العلم ويعمل به وينشره، الداعي إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة والحسنة، المقتدي بسنة رسول الله صلى الله صلوات وسلامه عليه، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر في ما هو معلوم بالضرورة وفيما حاز على إجماع الأمة في أي عصر، أو وردت فيه نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة، يسمى متدينا بحق ينفعه الله بتقواه وعلمه ودعوته وسلوكه وأمره ونهيه وينفع به عباده ، ويجد فيه الناس شخصا متوازنا جم التواضع حسن السمت نوراني الطلعة خفيف الحاذ محبوبا ومقبولا في حركته وسكونه وفي صمته وحديثه.

أما الذي يقف على أطراف العلم والمعرفة بجزء من آية أو بعض من حديث أو صفحات من كتاب أو شريط من شرائط أصحاب الأصوات المنكرة، ثم يدعي أنه المرجع والمفتي والقدوة ، وأن قوله الفصل ، وحكمه الفيصل ، وفهمه في القرآن والسنة فهم مطلق وليس نسبي، ورأيه الصواب، واجتهاده الحق الخالص، الذي كل فهم أو رأي واجتهاد يخالفه كفر وشرك وبدعة ضلالة في نظره، يوزع التكفيرَ على عباد الله بالجملة، يرمي هذا بالشرك جزافا، وآخر بالبدعة والضلال بهتانا، ويدعو إلى سفك دماء الأبرياء الذين يخالفونه الرأي والاجتهاد، أو يمارس سفك الدماء وذبح الأبرياء بالفعل، يهزأ بالعلماء ، ويدمر السلام الاجتماعي والوحدة الوطنية في مجتمعه، فهو يسمى متطرفا وليس متدينا ، وهو ضالة أعداء دينه وأمته في كل زمان ومكان وأسهل من يتأتى لهم اصطياده وتسخيره ودعمه في الظاهر أو الباطن.

والمتدين أيضا الذي تتوفر فيه خصال التدين إذا جمع الله له بين تلك الخصال وصدق التوجه إلى الله بما يرضى سلوكا إلى مقام الإحسان : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وتبصيرا بمعنى الإيمان ومراتب اليقين ومعرفة بحقائق التزكية والسلوك علما وعملا فهو الصالح العابد الذي يرحم الله به وأمثاله أهل الأرض كما وردت بمضمون ذلك الأحاديث الصحيحة والآثار السلفية الموثوقة.

أما الذي جل همه القيل والقال ومبتغاه الرسوم والمظاهر والأشكال ، صارفا نظره عن العلم وطلبه، يسبح ويسبح بمن معه في بحر من التهويمات والخرافات والدعاوى والترهات، يدعو الناس مِن حوله إلى الانسحاب من الحياة والزهد في مستجدات العصر وعلومه والبعد عن قراءة الواقع وحقائقه وظروفه، والعزوف عن طلب العلم وعن الصبر على تحصيله ، كلامه كله تنفير أو تشهير ، يضيِّق واسعا من رحمة الله فلا يمزج الخوف والتخويف بالرجاء والتخفيف كما يفعل أهل الصدق والحكمة ، يجهد في إقناع من حوله بعدم جدوى الأخذ بأسباب القوة والمنعة والعزة المعروفة في العصر التي هي أمضى سلاح للتعامل مع العصر ومواجهة أهل العداوة والتآمر والغدر، فمثل هذا لا يمكن تسميته عالما أو عارفا أو داعيا صادقا إلى الله ورسوله بل هو متطرف ، ربما اختلف مع غيره من المتطرفين في المسمى والشكل أما الأسلوب والنتيجة فواحدة.

والمتمسك بحقه في حرية الرأي والتعبير المدافع عنها بقلمه ولسانه وسلوكه، عنصر حضاري تعتز به أمته وشعبه إذا التزم الصدق في طرح رأيه وكانت الحقيقة هي ضالته والإصلاح ونشر المعرفة والحقائق غايته، واعترف للآخر بحق الاختلاف معه والتزم الأدب الرفيع في الطرح والحوار والرد على من يخالفه .

أما الذي يتخذ من حرية الرأي والتعبير وسيلة للتطاول على الله وكتابه ورسوله وعباده، وأداة للفتنة والتشهير، يجأر بالشكوى إذا حرم من حرية الرأي والتعبير ويشكو منها ويحاربها إذا أُتيحت لخصمه، لا يتورع عن نقل ما جزل ودق من التلفيقات والإشاعات والمغالطات في مضمار تصفية الحسابات الشخصية مع الخصوم، ينتقي من الكلام ما فحش ومن التعبيرات ما سف ورخص، يحوِّل الحوار إلى خوار والنقاش إلى

سباب فهذا متطرف مستعبد لعقده وجهله وليس حرا يتمسك بالحرية ويدافع عنها أو عنصرا يمكن أن يشارك في تأصيل الحرية وحمايتها.

محصلة القول : إن التطرف هو الخيط الذي يربط بين المتناقضات وهو المشترك الأعظم بين الجحود والجمود والعمالة تحت أي لافتة مضلله زورت حقيقتها ومضمونها، وهو الداء العضال الذي يجب حماية شبابنا ومجتمعاتنا منه بالتوعية والإقناع والسلوك وليس بالعنف والتنكيل والقوة التي تحوله في الغالب إلى أخطبوط إذا قطع له طرف من هنا ظهرت أطراف عدة أكثر تدميراً وتأثيراً وبلاء.

أهمية العناية بأصول العقيدة الإسلامية

قال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن محمد الجويني رحمه الله :

[من اعتقد أن السلف الصالح رضي الله عنهم نهوا عن معرفة الأصول وتجنبوها، أو تغافلوا عنها وأهملوها، فقد اعتقد فيهم عجزا، وأساء بهم ظنا، لأنه يستحيل في العقل والدين عند من أنصف من نفسه، أن الواحد منهم يتكلم في مسألة العَول وقضايا الجد، وكمية الحدود، وكيفية القصاص بفصول، ويباهل عليها ويلاعن ويجاثي فيها ويبالغ، ويذكر في إزالة النجاسات عشرين دليلا لنفسه وللمخالف، ويشقق الشعر في النظر فيها ، ثم لا يعرف ربه الآمر خلْقَه بالتحليل والتحريم، والمكلِّف عبادَه للترك والتعظيم، فهيهات أن يكون ذلك أو أنهم أهملوا تحرير أدلته، وإقرار أسئلته وأجوبته، فإن الله سبحانه وتعالى بعث نبينا محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فأيده بالآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، حتى أوضح الشريعة وبينها، وعلمهم مواقيتها وعينها، فلم يترك لهم أصلا من الأصول إلا بناه وشيده، ولا حكما من الأحكام إلا أوضحه ومهده، لقوله سبحانه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل/ ٤٤) .

فاطمأنت قلوب الصحابة لما عاينوا من عجائب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وشاهدوا من صدق التنزيل ببداءة العقول ، والشريعة غضة طرية متداولة بينهم في مواسمهم ومجالسهم، يعرفون التوحيد مشاهدة بالوحي والسماع، ويتكلمون في أدلة الوحدانية بالطباع، مستغنين عن تحرير أدلتها وتقويم حجتها وعللها ، كما أنهم كانوا يعرفون تفسير القرآن، ومعاني الشعر والبيان، وترتيب النحو والعروض ، وفتاوى النوافل والفروض، من غير تحرير العلة، ولا تقويم الأدلة.

ثم لما انقرضت أيامهم، وتغيرت طباع من بعدهم وكلامهم، وخالطهم أقوام من غير جنسهم ، وطال بالسلف الصالح والعرب العرباء عهدهم، وأشكل عليهم تفسير القرآن، ومرن عليهم غلط اللسان ، وكثر المخالفون في الأصول والفروع، واضطروا إلى جمع العروض والنحو ، وتمييز المراسيل من المسانيد، والآحاد عن التواتر، وصنّفوا التفسير والتعليق ، وبينوا التدقيق والتحقيق ، ولم يقل قائل إن هذه كلها بدع ظهرت ، وأنها مُحالات جمعت ودونت، بل هو الشرع الصحيح ، والرأي الصريح، وكذلك هذه الطائفة -يعني علماء التوحيد- كثّر الله عددهم ، وقوّى عُددهم ، بل هذه العلوم أولى بجمعها، لحرمة معلومها ، فإن مراتب العلوم تترتب على حسب معلوماتها ، والصنائع تكرم على قدر مصنوعاتها ، فهي من فرائض الأعيان ، وغيرها إما من فرائض الكفايات أو كالمندوب والمستحب، فإن من جهل صفة من صفات معلومه لم يعرف المعلوم على ما هو به ، ومن لم يعرف الباري سبحانه على ما هو به لم يستحق اسم الإيمان ، ولا الخروج يوم القيامة من النيران] انتهى من ((التبيين)) (صفحة ٣٥٤).

وقال الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ في كتابه ((أصول الدين)) :

[المسألة العاشرة : في ترتيب أئمة الدين في علم الكلام : أول متكلمي أهل السنة من الصحابة: علي بن أبي طالب لمناظرته الخوارج في مسائل الوعد والوعيد ، ومناظرته القدرية في القدر والقضاء والمشيئة والاستطاعة ، ثم عبد الله بن عمر في كلامه على القدرية وبراءته منهم ومن زعيمهم المعروف معبد الجهني، وادعت القدرية أن علياً كان

منهم ، وزعموا أن زعيمهم واصل بن عطاء المعتزلي أخذ مذهبه من محمد وعبد الله ابني علي رضي الله عنه ، وهذا مِن بهتهم، ومن العجائب أن يكون ابناعلي قد علّما واصلاً ردَّ شهادة علي وطلحة، والشك في عدالة علي ، أفترى هما علّماه إبطال شفُاعة علي ؟! شفاعة صهر المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وأول متكلمي أهل السنة من التابعين : عمر بن عبد العزيز ، وله رسالة بليغة في الرد على القدرية، ثم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وله كتاب في الرد على القدرية من القرآن ، ثم الحسن البصري ، وقد ادّعته القدرية ، فكيف يصح لها هذه الدعوى مع رسالته إلى عمر بن عبد العزيز في ذم القدرية؟ ، ومع طرده واصلا من مجلسه عند إظهاره بدعته؟ ثم الشعبي ، وكان من أشد الناس على القدرية ، ثم الزهري ، وهو الذي أفتى عبد الملك بن مروان بدماء القدرية.

ومن بعد هذه الطبقة : جعفر بن محمد الصادق ، وله كتاب في الرد على القدرية وكتاب في الرد على الخوارج ، ورسالة في الرد على الغُلاة من الروافض ، وهو الذي قال : أرادت المعتزلة أن توحد ربها فألحدت ، وأرادت التعديل فنسبت البخل إلى ربها .

وأول متكلميهم –أي أهل السنة– من الفقهاء وأرباب المذاهب : أبو حنيفة والشافعي ، فإن أبا حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سماه «الفقه الأكبر» وله رسالة أملاها في نصرة قول أهل السنة : إن الاستطاعة مع الفعل ، ولكنه قال : إنها تصلح للضدين ، وعلى هذا قوم من أصحابنا . وقال صاحبه أبو يوسف في المعتزلة : إنهم زنادقة وللشافعي كتابان في الكلام : في تصحيح النبوة والرد على البراهمة ، والثاني : في الرد على أهل الأهواء ، وذكر طرفاً من هذا النوع في كتاب القياس ، وأشار فيه إلى رجوعه عن قبول شهادة المعتزلة وأهل الأهواء] انتهى من كتاب «أصول الدين» .

وبعد أن ذكر البغدادي عدداً من تلامذة الشافعي وغيرهم من أكابر علماء الأمة الذين سبقوا ظهور الإمام الأشعري ومنهم الإمام الكبير الجنيد بن محمد البغدادي الذي كتب رسالة في التوحيد قال : [ثم بعدهما شيخ النظر وإمام الآفاق في الجدل والتحقيق : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي صار شجًا في حلوق القدرية والنجارية

والجهمية والجسمية والروافض والخوارج ، وقد ملأت الدنيا كتبه، وما رُزِق أحد من المتكلمين من التبع ما قد رُزِق. لأن جميع أهل الحديث ، وكل من لم يعتزل من أهل الرأي على مذهبه، ومن تلامذته المشهورين : أبو الحسن الباهلي ، وأبو عبد الله بن مجاهد وهم اللذينِ أثمرا تلامذتهم إلى اليوم شموس الزمان ، وأئمة العصر ، كأبي بكر محمد بن الطيب قاضي قضاة العراق والجزيرة وفارس وكرمان وسائر حدود هذه النواحي ، وأبي بكر محمد بن الحسين بن فورك (المتوفى سنة ٤٠٦هـ) وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد المهراني ، وقبلهم أبو الحسن علي بن مهدي الطبري صاحب الفقه والكلام والأصول والأدب والنحو والحديث ، ومن آثاره : تلميذ مثل أبي عبد الله بن الحسين بن محمد البزازي ...] انتهى من كتاب ((أصول الدين)) .

وقال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام عند سؤاله عن حديث : (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن) :

[إن الله تعالى مستولٍ عليه –أي على قلب المؤمن– بقدرته وتصريفه وكيف يشاء من كفر وإيمان ... إلى أن قال : وليس الكلام في هذا بدعة قبيحة وإنما الكلام فيه بدعة حسنة واجبة لما ظهرت الشبهة ، وإنما سكت السلف عن الكلام فيه إذ لم يكن في عصرهم من يحمل كلام الله وكلام رسوله على ما لا يجوز حمله ، ولو ظهرت في عصرهم شبهة لكذبوهم وأنكروا عليهم غاية الإنكار ، فقد رد الصحابة والسلف على القدرية لمّا أظهروا بدعتهم ، ولم يكونوا قبل ظهورهم يتكلمون في ذلك ، ولا يردون على قائله ، ولا نقل عن أحد من الصحابة شي من ذلك إذ لا تدعو الحاجة إليه ... والله أعلم] انتهى من ((الفتاوى)) (صفحة٥٦).

وقال الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشهير بـ: (بدر الدين بن جماعة) المتوفى سنة ٧٢٧ هـ رحمه الله :

[أما بعد فإن الذب عن الدين لمن تمكن منه فرض واجب، والرد على أهل البدع أمر لازب، مع أنه لا يقدر على الحمل على الاعتقاد إلا الرب الذي بيده تصاريف قلوب

العباد، وغاية المنتصب لإقامة الدليل بيان إبطال حجج أهل التشبيه والتعطيل ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ (الأنعام/ ١٢٥) . ولما شاع في الخاصة مذهب المعتزلة المؤدي إلى التعطيل، وفي العامة مذهب التشبيه المؤدي إلى التجسيم والحلول، انتصب أهل العلم والحق للرد على المذهبين وبيان الحق المبين المباين للقولين.

فأما مذهب الاعتزال فقد مُحي في بلادنا رسمه، ولم يبقَ فيها إلا ذكره .

وأما مذهب التشبيه فإن جماعات من العوام (العامة) المجانبين للعلماء الأعلام أحسنوا الظن في بعض من ينسب ذلك إليهم فاعتمدوا في تقليد دينهم عليهم، إذ كان هذا المذهب أقرب إلى ذهن العامي وفهمه : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (يونس/ ٣٩).] انتهى من كتاب ((إيضاح الدليل)) .

وقال الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي :

[وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكاية مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم، وبينوها للناس ، ونقضوا شبهها ، وإن كان وقع لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا على الحارث المحاسبي فقد صنع مثله في رده على الجهمية والقائلين بأن القرآن مخلوق] . انتهى من كتاب ((المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب)) (٢/ ٣٦٠).

وقال العلامة محمد زاهد الكوثري :

[وفي كلام المتقدمين من المتكلمين ما يجب أن يسترشد به القائمون بالدفاع عن الدين في كل عصر. ومن البين أن طرق الدفاع عن عقائد الإسلام ووسائل الوقاية عن تسرب الفساد إلى الأخلاق والأحكام مما يتجدد في كل عصر بتجدد أساليب الأخصام وهي في نفسها ثابتة عند ما حده الشرع لا تتبدل حقائقها فيجب على المسلمين في جميع أدوار بقائهم أن يتفرغ منهم جماعة لتتبع أنواع الآراء السائدة في طوائف البشر والعلوم المنتشرة بينهم وفحص كل ما يمكن أن يأتي من قبله ضرر للمسلمين، لاسيما في المعتقد الذي لا

يزال ينبوع كل خير مادام راسخا رصينا ويصير منشأ كل فساد إن استحال واهنا واهيا فيدرسون هذه الآراء والعلوم دراسة أصحابها أو فوق دراستهم ليجدوا فيها ما يدفعون به الشكوك التي يستثيرها أعداء الدين بوسائط عصرية ، إذا فَوَّقَ عدو سهاما منها نحو التعاليم الإسلامية من معتقد وأحكام وأخلاق ردوها إلى نحره اعتمادا على حقائق تلك العلوم وتجاربها واستنادا على إبداء نظريات تقضي على نظريات المتشككين -وجل الدين الإسلامي أن يصطدم مع حقائق العلوم- وأقاموا دون تسرب تلبيسات أعداء الإسلام سورا حصينا واقيا وعبأوا المسلمين على أنظمة يتطلبها الزمن في غير هوادة ولا توان ودونوا ما استخلصوه من تلك العلوم من طرائق الدفاع في كتب خاصة بأسلوب يعلق بالخاطر وتستسيغه العامة لتكون سدا محكما مدى الدهر دون مفاجأة جوارف الشكوك وإن لم يفعلوا ذلك يسهل على الأعداء أن يجدوا سبيلا إلى مراتع خصبة بين المسلمين تنبت فيها بذور تلبيساتهم بحيث يصعب اجتثاث عروقها الفوضوية بل تسري سموم الإلحاد في قلوب خالية تتمكن فيها فيهلك الحرث والنسل وقانا الله شر ذلك وأيقظنا من رقدتنا] انتهى من مقدمة الكوثري على ((التبيين)).

وقال الدكتور نشأت عبد الجواد ضيف :

[فالقرآن بطبيعته يدعو إلى التفكير، ومع أنه ليس -كما يقول بعض الباحثين – كتابا في المنطق ، لكنه يحتوي على الأصول العامة للدلائل العقلية، أما تفصيلاتها فليس من وظيفة القرآن أن يتعرض لها، ويكفي القرآن أنه ينبّه إلى مثل تلك الدلائل الإجمالية، ليمضي العقل البشري بعد ذلك إلى وضع تفاصيلها وكشف قوانينها وطرق استخدامها، مما جعل كبار المشتغلين بالمعقولات من المسلمين يقولون : (إن القرآن قد انطوى على مختلف أنواع الحجج والبراهين، بحيث لا يمكن أن يزاد عليه في هذا شي، ذلك لأنه ينبه العقول إلى استخدام أنواع الاستدلال العقلي المختلفة المباشرة وغير المباشرة) .

والذي ننتهي إليه : هو أن القرآن الكريم بطبيعته وأسلوبه وطريقة تناوله للقضايا المختلفة يدعو لإعمال العقل، وعلم الكلام ما هو إلا نتاج لإعمال هذا العقل ، وفي ضوء ما سبق نفهم السر وراء تحريم الإسلام لكل ما يغيب العقل أو يسكره ويفتّره، وندرك

إخطأ بعض الباحثين الغربيين الذين يرون أن القرآن من جملة عوائق التفكير الحر، كما اشتمل القرآن على الاستدلال على وجود الله ، والدعوة إلى التوحيد الخالص وعرضها عرضا في غاية الوضوح وهي النواة الأولى التي استند إليها المتكلمون في الاستدلال على وجوده تعالى، يقول بعض الباحثين المحدثين : (لابد من التنبيه بأن القرآن انفرد من بين الكتب المنزلة على صورتها التي وصلت إلينا بهذه الطريقة في المعرفة بالله وجعل مسألة إثبات وجود الله مسألة بحث علمي في ضوء العقل والحس] من كتاب ((المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد)) (صفحة: ٣٤، ٣٥).

وقال الأستاذ سعيد عبد اللطيف فودة ، في تحقيقه وتعليقاته على رسالة العلامة بهاء الدين عبد الوهاب بن عبد الرحمن الأخميمي الشافعي المصري المتوفى سنة ٧٦٤ هـ في الرد على ابن تيمية في مسألة اعتقاده بحوادث لا أول لها التي تكررت في الكثير من كتبه –أي ابن تيمية– :

[إن علم الكلام –أي علم التوحيد أو علم أصول الدين– ، إذا ذمه الجاهل به والمنكر له فإن إنكاره وذمه لا يدل مطلقا على قبح علم الكلام ، فإن السبب الذي يدفع هؤلاء الجهلة من المشبهة والحشوية إلى ذم علم الكلام هو أنهم يعلمون أن الواحد إذا تمكّن من قواعد هذا العلم الشريف، فإن شبهاتهم وتشكيكاتهم كلها تنهدم وتضمحل أمام عينيه، ويصير قادرا على هدم دلائلهم ومذهبهم بأقل جهد ، ولذلك فإن أقل فرقة حظا في علم الكلام هم المشبهة .

فهم يذمون علم الكلام وينهون الناس عن الخوض فيه لأنه يقدم للناس أوضح الأدلة على هدم التشبيه وفساد التجسيم، والقول بالحد والجهة وغير ذلك من الضلالات.

ولذلك ترى أبا لهب –قبحه الله تعالى– قد بالغ في ذم القرآن وشتم سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وبالغ في مدح هُبل واللات والأصنام التي يعبدها ، وكان كذلك يدعو الناس إلى عدم الاستماع إلى كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه كان يعرف أنهم إذا استمعوه فسوف يقبلونه، وعنده يظهر لهم فساد قول أبي لهب وجماعته من

الكفار والمشركين ، وهذا مَثَل المجسمة في نهيهم عن علم الكلام ، لأنهم يعلمون أنه مرهم عللهم ، وكاشف شبهتهم .

وكثير من علماء السنة اشتغلوا بعلم الكلام ، ومن لم يشتغل به منهم فلم يذمه ، بل مدحه ومدح أصحابه.

هذا بعد أن تعلم أن مقصودنا بعلم الكلام هنا : علم الكلام على طريقة أهل السنة والجماعة رضي الله عن جميعهم ، ولا نعني بالكلام كلام المبتدعة من الفِرق الإسلامية أو غير الإسلامية الأخرى، فأهل السنة لما تكلموا في العقائد ساروا على النهج الصحيح فنجوا من مزالق الأهواء .

أما ما روي عن بعض الأئمة من الذم لعلم الكلام كالذي رُوي عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره فنذكر أمثلة على هذه الكلمات ونعلق عليها توجيها لمعانيها] رسالة في الرد على ابن تيمية (صفحة١٠٢ و١٠٣) .

وبعد أن أورد الأستاذ سعيد فودة بعض نصوص كلمات الإمام الشافعي في النهي عن الكلام على طريقة المبتدعة من المشبهة والمعطّلة قال :

[وقد وردت أشباه هذه الكلمات عن غير الشافعي كذلك ، وقد وضَّح الإمام الغزالي حجة من قال بإباحة علم الكلام في أحلى عبارة وأجلاها ، فقال في كتابه ((إحياء علوم الدين)) (١ :٥١:٢ من ((الإتحاف)) للإمام الزبيدي) : (وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعَرَض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم ، فالأمر قريب ، إذ ما من علمٍ إلا وقد أُحِدثَ فيه اصطلاحات لأجل التفهيم ، كالحديث والتفسير والفقه ، ولو عُرِضَ عليهم عبارة : النقض ، والكسر ، والتركيب ، والتعدية ، وفساد الوضع ، وجميع هذه الأسئلة التي تورد علة القياس لما كانوا يفقهونه ، فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح : كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى : فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ، ووحدانية الخالق وصفاته ، كما جاء في الشرع ، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟! وإن كان المحذور هو التشغيب

والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام ، فذلك محرّم ويجب الاحتراز عنه ، كما أن الكِبر والعُجُب والرياء وطلب الرئاسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه ، وهو محرَّم يجب الاحتراز عنه ، ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه ، وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها ، والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ ... إلى آخر ما ذكره الإمام الغزالي ، فراجعه في محله فإنه في غاية النفاسة ، وقد ذكر هناك رأيه رحمه الله تعالى في هذا الموضوع فلا نطيل بذكره لكونه مشهورا عند طلبة العلم ، فليطلبه من لا يعرفه .

وخلاصة البحث في هذه المسألة هو ما لخصه العلامة الزبيدي من كلام الإمام الشافعي رحمهما الله تعالى ، فقال في ((إتحاف السادة المتقين)) (٢/ ٤٨):

قال الشافعي : (كل متكلم على الكتاب والسنة فهو الجد ، وما سواه فهو الهذيان) فكل كلام يخالف الكتاب والسنة فهو هذيان ، وكل كلام يوافقهما فهو الجد، وكلام أهل السنة كما علمت موافق للكتاب والسنة ، فهو الجد بلا شك .

وقد أشار العلامة السعد -التفتازاني- في ((شرح العقائد النسفية)) (١/ ٢٢) : إلى أن ذم العلماء المتقدمين كالشافعي لعلم الكلام إنما هو متوجه على من يتكلم مخالفا للكتاب والسنة ، أو من يكون قاصرا عن الفهم ، أو من يتكلم في هذه الموضوعات والمباحث قاصداً هدم الدين ونشر الضلالات]انتهى من رسالة الرد على ابن تيمية (صفحة١٠٤و١٠٥).

ولعل فيما ذكره هؤلاء الأعلام مبررا كافيا لعلماء الأمة من بذل المزيد من الاهتمام في شرح وتوضيح عقيدة الإسلام ونشرها بالحكمة على نهج خير الأنام صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله البررة الكرام وعلى أصحابه مصابيح الظلام في المبدأ والختام .

التفويض والتأويل

قال العلامة الإمام بدر الدين بن جماعة :

[قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم/ ٤) . فأرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم بلسان قومه العربي المبين ، ونزل به القرآن ، ونيط به عقود الإيمان ، وبه وردت أدلة الأحكام ، وبيان الحلال والحرام . وخُطوبوا على ما يعرفونه من لغاتهم ، ويفهمونه من مخاطباتهم، من حقائقها ومجازاتها، ومفصلاتها ومضمراتها، وإشاراتها ، واستعاراتها وكناياتها، ونصوصها وظواهرها، وعمومها وخصوصها، ومطلقها ومقيدها، فلم يحتاجوا عند نزول الكتاب إليهم ، وورود السُنّة عليهم ، إلى سؤال عن مدلول الألفاظ لمعرفتهم بمعناها، ولا بحث عن محلها لفهم مقتضاها، ولذلك لما نزل : ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ (البقرة/ ١٨٧) لم يشكّوا أنه الجماع. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ (الإسراء/ ٢٩) لم يشكّوا أنه البخل والجود . ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ (الحديد/ ٢٥) لم يشكّوا أن معنى الإنزال فيه الخلق ، وكذا ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ (الزمر/ ٦) فكذلك لم يشكّوا أن ما لا يليق بجلال الله تعالى لم يُرِدْ في قوله تعالى ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ ونحوه من الآيات . ومن السُنّة : (ينزل ربنا كل يوم إلى سماء الدنيا)، (الحجر الأسود يمين الله في الأرض) ، (القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن) ، (... فإن الله قبل وجهه) .

كل ذلك ونحوه لم يشكّوا أن ما لا يليق بجلال الرب تبارك وتعالى غير مراد، وأن المراد بذلك المعاني اللائقة بجلاله تعالى من مجازات الألفاظ وتأويلها، لما فهموا منه لم يسألوا عنه، ولو لم يفهموا منه ما يليق بجلال الرب لسألوا عنه ، وبحثوا .

كيف ؟ وقد سألوا عن المحيض، وأموال اليتامى، والأهلّة، والإنفاق، ولُبس الإيمان بالظلم ، وصلاة المصلين إلى بيت المقدس من المتوفّين قبل تحويل القبلة.

فكيف يتركون السؤال عن صفات الرب العلية عند عدم فهم ما ورد فيها؟، مع أن معرفة الله تعالى أصل الإيمان ، ومنبع العرفان ، ولكن لما انتشر الإسلام في الأرض ، ودخل فيه من لا يعرف تصاريف لسان العرب من الأعاجم والأنباط، والتبس عليهم اللسان العربي بالعرفي لعدم علمهم بتصاريفه من حقيقة ومجاز، وكناية واستعارة، وحذف وإضمار، وغير ذلك ، وقع من وقع في التجسيم ، وطائفة في التعطيل ، وتفرقت الآراء في الكلام على الذات والصفات، كما أخبر الصادق صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن فِرق الأمة الكائنة بعده.

فاحتاج أهل الحق إلى الرد على ما ابتدعوه ، وإقامة الحجج على ما تقوَّلوه ، وانقسموا قسمين :

أحدهما : أهل التأويل : وهم الذين تجردوا للرد على المبتدعة من المجسمة والمعطلة ونحوهم، من المعتزلة والمشبهة والخوارج، لما أظهر كل منهم بدعته ودعا إليها، فقام أهل الحق بنصرته ودفع عنه الدافع بإبطال دعوته، وردوا تلك الآيات المحتملة، والأحاديث إلى ما يليق بجلال الله من المعاني ، بلسان العرب وأدلة العقل والنقل، ليحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل بحُججه ودلالاته .

والقسم الثاني : القائلون بالقول المعروف بقول السلف ، وهو القطع بأن ما لا يليق بجلال الله تعالى غير مراد، والسكوت عن تعيين المراد من المعاني اللائقة بجلال الله تعالى إذا كان اللفظ محتملا لمعاني تليق بجلال الله تعالى.

فالصنفان قاطعان بأن ما لا يليق بجلال الله تعالى من صفات المحدثين غير مراد وكل منهما على الحق ، وقد رجح قوم من الأكابر الأعلام قول السلف لأنه أسلم ، وقوم منهم رجح قول أهل التأويل للحاجة إليه ، والله أعلم.

ومن انتحل قول السلف ، وقال بتشبيه أو تكييف أو حمل اللفظ على ظاهره مما يتعالى الله عنه من صفات المحدثين فهو كاذب في انتحاله، بريء من قول السلف واعتداله.

وإذا ثبت أن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب ، وأن ما لا يليق بجلاله غير مراد فنقول : إن اللفظ العربي المتعلق بالذات المقدسة، أو الصفات العلية، إما أن يحتمل معاني عدة أو لا يحتمل إلا معنى واحدا ، فإن لم يحتمل إلا معنى واحدا يليق بجلاله تعالى كالعلم تعين حمله عليه، وإن احتمل معاني تليق بجلاله تعالى فهذا محل الكلام بين قول السلف أي : في التفويض والتأويل كما تقدم.

وقد رجح قوم التأويل لوجوه :

الأول : إنا إذا منعنا الألسنة عن الخوض فيه ولم نتبين معناه، فكيف نكف القلوب عن عروض الوساوس والشك، وسبق الوهم إلى ما لا يليق به تعالى؟ .

الثاني : أن انبلاج الصدور بظهور المعنى والعلم به أولى من تركه بصدد عروض الوساوس والشك، ومن ذا يملك القلب مع كثرة تقلبه؟ .

الثالث : أن الاشتغال بالنظر المؤدي إلى الصواب والعلم أولى من الوقوف مع الجهل مع القدرة.

الرابع : أن السكوت عن الجواب وإن اكتُفِيَ به في حق المسلم الموفق والعامي فلا يُكتفى به في جواب المنازع من مبتدع أو كافر أو مصمم على التشبيه والتجسيم.

الخامس : أن السكوت مناقض لقوله تعالى ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (آل عمران/ ١٣٨) و﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (يونس/ ٥٧) و﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء/ ١٩٥) و﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (صفحة٢٩) . و﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة/ ١٥) ، و ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل/ ٤٤) ونحو ذلك والله أعلم .] ((الإيضاح)) (٩٠ – ٩٥).

ثم قال بدر الدين بن جماعة أيضا : [وبهذا يرد قول من قال : إن الوجه عبارة عن صفة لا ندري ما هي ، وكذلك اليد والضحك ، والحياء وغير ذلك من الصفات. وكذلك قول من يقول : وجه لا كوجهنا ، ويد لا كيدنا ، ونزول لا كنزولنا ، وشبه ذلك.

فيقال لهم هذه المعاني المسماة إن لم تكن معلومة ، ولا معقولة للخلق ، ولا لها موضع في اللغة استحال خطاب الله الخلق بها ، لأنه يكون خطابا بلفظ مهمل لا معنى له ، وفي ذلك ما يتعالى الله عنه] المصدر السابق (صفحة٩٥، ٩٦) .

وقال الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى : [وأحب أن يعلم قبل الدخول في دقائق البحث أن الله تعالى لا يشبه الكائنات ، ولا الكائنات تشبهه، فهو سبحانه الأزلي الأبدي المباين لمخلوقاته في الذات والصفات والأفعال ، فذاته سبحانه ليست كذوات غيره، فليس جوهراً يشغل فراغا ، وليس عَرَضًا أي صفة لجوهر ، وليس ذا روح وجسد ، وصفاته لا تشبه صفات غيره ، ولئن حصل فيها الاشتراك الاسمي فالحقيقة مفترقة ، وأفعاله خلق وإيجاد ، وإعدام وإفناء ، وأفعال غيره جمع وتفريق ، وتركيب وتحليل ، وكسب وتحصيل ، والخالق لها هو عز وجل : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ . والجامع لهذا كله قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ . والبرهان العقلي يقضي بنفي المماثلة كالدليل النقلي، وقد عرف هذا في مكانه من كتب العقائد ، وليس في الوسع اطّراح العقل جانبا وإهماله، فإنه الذي يعقل عن الله خطابه، وإنه الذي استدل بالكون على المكوّن سبحانه، فالطعن فيه طعن في النقل الذي اعتدّ به مكلفا مخاطبا من ربه العليم الحكيم جل وعلا. إذا تأصل لدينا الأصل –ولا بد منه– فكل ما ورد من النصوص السمعية مما يفيد بظاهره المشابهة فهو محمول على غير المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر يؤول إلى الالتئام ، والنصوص السمعية المحكمة كالآيتين السابقتين] انتهى من ((نسمات القرآن)) .

وقال الألوسي في ((روح المعاني)) : [ذهبت شرذمة قليلة من السلف إلى إبقاء نحو المذكورات على ظواهرها ، إلا أنهم ينفون لوازمها المنقدحة في الذهن الموجبة لنسبة النقص إليه جل شأنه ، ويقولون : إنما هي لوازم لا يصح انفكاكها عن ملزوماتها الحادثة ، وأما صفات من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فليست بلوازم في الحقيقة ، ليكون القول بانفكاكها سفسطة ، وأين التراب من رب الأرباب ؟] .

وقال العلامة محمد زاهد الكوثري : [والحاصل أن التفويض مع التنزيه مذهب جمهور السلف لانتفاء الضرورة في عهدهم ، والتأويل مع التنزيه مذهب جمهور الخلف حيث عنَّ لهم ضرورة التأويل لكثرة الساعين في الإضلال في زمنهم ، وليس بين الفريقين خلاف حقيقي لأن كليهما منزه ومن أهل العلم] انتهى من ((السيف الصقيل)) .

والتأويل هو التفسير ، وأصله في اللغة : المرجع والمصير ، من القول آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه، قال تعالى ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ، وترجيح التأويل يرجع في أصله إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ بعطف (الراسخون) على لفظ الجلالة ومن جعل نهاية الكلام : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ كلاما مستأنفا لم يرجح التأويل .

قال تعالى : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة/ ٦٧) ، وقال عز من قائل ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ (السجدة/ ١٤) . وهنا نجد أن تأويل النسيان في الآيتين الكريمتين (بالترك) واجب وضرورة كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وليس مباحا فقط لأننا لا نستطيع أن نثبت لله جل شأنه صفة النسيان وهو القائل : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (مريم/ ٦٤) .

وفي الحديث القدسي فيما يرويه الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله عن ربه، أن الله تعالى قال : (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ ...) الحديث في ((صحيح مسلم)) برقم(٢٥٦٩) ولا جدال في أن الظاهر غير مراد عند كل عاقل وهو مصروف ومؤوّل.

قال النووي في ((شرح صحيح مسلم)) : قال العلماء : إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد ، تشريفا للعبد وتقريبا له، قالوا : ومعنى وجدتني عنده، أي : وجدت ثوابي وكرامتي ...) انتهى .

وقد أَوَّل ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما الساق في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ (القلم/ ٤٢) بالشدة كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في « الفتح » والحافظ ابن جرير الطبري في « التفسير » وأوَّل ابن عباس أيضا الأيد بالقوة في قول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الذاريات/ ٤٧) كما في ((تفسير الطبري)).

وأوَّل الإمام أحمد بن حنبل قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ بأنه : جاء ثواب ربك كما ذكر ذلك البيهقي في مناقب الإمام أحمد وابن كثير في « البداية » . وأجاب الإمام أحمد الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ قال الإمام أحمد كما ذكر ذلك ابن كثير في ((البداية)) : يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث .

وممن أوّلَ في ما يفهم منه التشبيه، الإمام البخاري وسفيان بن عيينه وابن حبان وغيرهم من كبار الأئمة كما ذكر ذلك بتفصيل الإمام البيهقي في ((الأسماء والصفات)) وغيره .

أما التفويض : فإن السلف الصالح كانوا يفوِّضون الكيف والمعنى : قال الإمام الترمذي في ((السنن)) : والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك ، وابن عيينه، ووكيع، وغيرهم أنهم رووا هذه الأشياء -أي أحاديث الصفات- ثم قالوا : هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال : كيف ؟ . هذا الذي اختاره أهل الحديث أن تُروى هذه الأشياء كما جاءت ويُؤمَن بها ولا تُفسَّر ولا تُتوهم ولا يقال : كيف ، وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه .

وقال اللقاني الأشعري في ((الجوهرة)) :

وكلُّ نصٍ أوهم التشبيها ... أوِّله أو فوّض ورُمْ تنزيها

وقد توسط الحافظ ابن دقيق العيد بن التأويل والتفويض فقال :

[إن كان التأويل من المجاز البين الشائع فالحق سلوكه، من غير توقف ، أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه، وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدم جوازه مسألة فقهية اجتهادية] انتهى من ((السيف الصقيل)) .

من كل ذلك يتضح أن الرفض المطلق للتأويل الذي يعلنه حشوية الأمس ومن حذا حذوهم من أدعياء السلفية اليوم، واعتقادهم في آيات وأحاديث الصفات بما يصف الخالق جل شأنه بمشابهة خلقه، وبكونه محلا للحوادث، مصدره الجهل والبلادة الممزوجة بالغرور والدعوى، وهم ينكرون التأويل والتفويض بالتشبيه والتقويض ويحاربون ما يسمونها في عرفهم (البدع) بالمغالطات والخِدع . نسأل الله أن يعافيهم مما ابتلاهم ولا يبتلينا به إنه سميع مجيب .

الإمام الأشعري

نسبه وترجمته

قال الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي ثابت :

[أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر واسمه إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى ، المتكلم صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة وهو بصري سكن بغداد إلى أن تُوفي بها .

وكان يجلس أيام الجمع في حلْقة أبي إسحق المروزي الفقيه من جامع المنصور.

وذكر الإمام أبو بكر بن فورك أن أباه هو إسماعيل بن إسحاق كان سُنياً أوصى عند وفاته –أي بابنه أبي الحسن– إلى زكريا الساجي رحمه الله وهو إمام في الفقه والحديث وكان يذهب مذهب الإمام الشافعي ، وقد روى أبو الحسن عن الساجي في كتاب التفسير أحاديث كثيرة.

ونسب جده (أبو موسى الأشعري) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عتر بن بكر بن عامر بن عذَر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر

وهو نبت بن أدد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وكان النسابة هشام بن محمد بن السائب الكلبي يقول : إن أباه محمد بن السائب الكلبي أدرك أهل النسب والعلم ينسبون قحطان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فهو :

قحطان بن الهميسع بن تيم بن إسماعيل بن إبراهيم .

وذكر ذلك الإمام البخاري في المناقب فقال : باب نسبة اليمن إلى إسماعيل : وهناك من النسابين من ينسب قحطان إلى إنه : قحطان بن فالغ بن عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ولد أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري بالبصرة عام ٢٦٠ هـ وتوفي ببغداد عام ٣٢٤ هـ على أصح الأقوال .

ونشأ في بيت علم وجاه ، وأخذ ينهل من علوم الدين ، إلى أن غدا إماماً من أئمة عصره .

حضر حلْقة أبي إسحاق المروزي الفقيه من جامع المنصور كما تقدم وهو الذي انتهت إليه رئاسة الشافعية بالعراق المتوفى عام ٣٧٦ هـ وأخذ الفقه عن أحمد بن سريج قاضي شيراز المتوفى سنة ٣٧١ هـ ، وأخذ الحديث عن زكريا بن يحي الساجي ، محدث البصرة المتوفى سنة ٣٠٧ هـ .

عاش أبو الحسن الأشعري ، فيما بين بداية النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والربع الأول من القرن الرابع الهجري ، في عصر اتسم بالتناقضات والعنفوان على كافة الصُّعُدِ ، سياسيا وفكريا .

عاصر ستة من خلفاء بني العبا س وهم :

١. المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) .

٢. والمعتضد (٢٧٩-٢٨٨ هـ) .

٣. والمكتفي بالله (٢٨٨-٢٩٥هـ) .

٤. والمقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠ هـ) .

٥. القاهر (٣٢٠-٣٢٢ هـ) .

٦. الراضي (٣٢٢-٣٣٢هـ) في الفترة التي تسلط فيها سلاطين بني بُوَيْهٍ على الخلفاء العباسيين وسلبوهم سلطانهم ، ولم يبقوا لهم سوى المرتبة الدينية فقط .

كما أنه عاش في الفترة التي قامت فيها ثورة الزنج ، وعاثت يد القرامطة ، من البحرين إلى الشام .

عاصر من الناحية الفكرية مجموعة من أبرز علماء المسلمين ، منهم :

- محمد بن جرير الطبري ، المؤرخ المفسر .
- إبراهيم بن احمد المروزي .
- محمد بن داود الأصبهاني .
- عبد الله بن أحمد بن حنبل (نسب إليه الحشوية كتابا موضوعا سموه التوحيد أو السنة) .
- محمد بن محمد الماتريدي .
- الجنيد بن محمد البغدادي .
- ابن الراوندي (وهو ممن يقول بالتجسيم والتشبيه وقد رد عليه الأشعري) .

اعتنق الإمام أبو الحسن الأشعري في بداية أمره عقيدة المعتزلة متأثرا بأبي علي الجبائي المعتزلي الذي تزوج أمه بعد وفاة أبيه حتى تبحر في تلك العقيدة وكان من أئمتها المشار إليهم بالبنان.

[وكان سبب رجوعه عن الاعتزال أنه لما تبحر في كلام الاعتزال وبلغ غاية كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد جوابا شافيا فتحير في ذلك وحكي عنه أنه قال : وقع في صدري بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ونمت فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

عليك بسنتي، فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهريا.

وذكر أبو القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي من أهل طرابلس المغرب قال: سألت أبا بكر إسماعيل بن أبي محمد بن إسحاق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة رحمه الله عن أبي الحسن الأشعري رحمه الله فقلت له : قيل لي عنه إنه كان معتزلياً وإنه لما رجع عن ذلك أبقى للمعتزلة نكتاً لم ينقضها، فقال لي : الأشعري شيخنا وإمامنا ومَنْ عليه معولنا قام على مذاهب المعتزلة أربعين سنة وكان لهم إماما ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال: معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديتُ الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت عن جميع ما كنت اعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب ((اللمع)) وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب ((كشف الأسرار وهتك الأستار)) وغيرهما، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة، أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماما حتى نُسب مذهبهم إليه.

قال لي أبو بكر : فصار عند المعتزلة ككتابي أسلم وأظهر عوار ما تركه فهو أعدى الخلق إلى أهل الذمة ، وكذلك الأشعري أعدى الخلق إلى المعتزلة، فهم يشنعون عليه من الأشانيع وينسبون إليه الأباطيل] انتهى من ((تبيين كذب المفتري)) (صفحة٣٨، ٣٩، ٤٠) بتصرف .

ويقول ابن النديم في ((الفهرست)) : [وكان الأشعري معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة في يوم الجمعة، ورقى كرسيا ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان ابن فلان كنت قلت بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالأبصار -أي يوم القيامة بلا كيف- وأن

أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع عن كل ذلك . وبعض المراجع يحدد الفترة التي مكثها الأشعري على مذهب الاعتزال بأنها كانت أربعين سنة] انتهى من ((الفهرست)).

وهناك روايات أخرى متعددة حول تخليه عن الاعتزال ورده على المعتزلة يظهر في الكثير منها ((أثر الصنعة)) وما نقلناه هنا هو أقرب الروايات التي نطمئن إليها والله أعلم.

والحقيقة أننا لا نسلِّم أن الأشعري مكث على الاعتزال أربعين سنة، لأن الرواة جعلوا سبب ذلك زواج أبي علي الجبائي، شيخ المعتزلة في عصره بأم الأشعري وربطوا فقط بين ولادة الأشعري عام ٢٦٠ هـ ووفاة أبي علي الجبائي سنة ٣٠٣ هـ .

وبعض المراجع تربط بين تحول الأشعري عن الاعتزال وبين المناظرة التي جرت بينه وبين الجبائي حول قضية الصلاح والأصلح ، وقد ذكر السبكي في ((الطبقات)) هذه المناظرة فقال:

[سأل الأشعريُّ الجبائيَّ عن ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ؟ .

فقال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الهلكات ، والصبي من أهل النجاة .

فقال الأشعري : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى درجات عليا هل يمكن ؟ .

قال الجبائي : لا ، لأن المؤمن نال درجته بالطاعة ، والصبي لا طاعة له .

قال الأشعري : فإذا قال الصبي : التقصير ليس مني فلو أحييتني لأطعتك ؟ .

قال الجبائي : يقول الله : كنت أعلم أنك لو بقيتَ لعصيتَ فتدخل النار ، فراعيتُ مصلحتَك وأمتُّك قبل سِنِّ التكليف .

قال الأشعري : فلو قال الكافر : يا رب ولِمَ لَمْ تُمتني قبل سن البلوغ حتى لا أعصيك، وهلا راعيت مصلحتي كما راعيت مصلحته ؟ فانقطع الجبائي .

وذهب بعض الباحثين إلى القول : [بأن الرجل وجد الفقهاء والمحدثين في عصره يقصرون همهم على التفقه في الدين، بدلائله وحججه من التفسير والحديث والإجماع والقياس ، ورأى المعتزلة في الجانب الآخر يعنون بالدفاع عن الدين ضد أعدائه بالمنطق والجدل والمناظرة، ووجد العداء بينهما -أي بين الفقهاء والمحدثين من جهة والمعتزلة من

جهة ثانية– مستحكما، فسعى للإصلاح بينهما بإرجاعهما عن تطرفهما إلى العدل، ومن هنا حاول التزام المنهج الوسط بينهما، وهذا ما أشار إليه الدكتور غرابة –في كتابه ((أبي الحسن الأشعري)) (صفحة٦٦)–: إن الأشعري رأى طريقةَ المعتزلةِ ستؤدي بالإسلام إلى الدمار، كما أن طريقةَ بعضِ المحدثين والمشبهة وبعض الفقهاء ستؤدي إلى الجمود والانهيار، مع ما في ذلك من تفرقة كلمة الأمة وغرس بذور الشقاق بينها، وأنه من الخير لهذه الجماعة أن يلتقي العقليون والنصِّيون على مذهب وسط يوحد القلوب، ويعيد الوحدة إلى الصفوف، مع احترام النص والعقل معا.] ((المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد)) للدكتور نشأت عبد الجواد ضيف (صفحة١٣٦).

وهو ما نعتقد أنه الأقرب إلى الصحة في ظل كثرة الروايات المختلفة والمناظرات المتعددة التي رويت والتي جعلت منها بعض المراجع السبب في ترك الأشعري لعقيدة الاعتزال.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي علقمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر أقوال العديد من الأئمة الأعلام بأن مجدد المائة الهجرية الأولى هو الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز بن مروان الأموي .

ومجدد المائة الثانية هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي القرشي ، ومجدد المائة الثالثة هو الإمام علي بن إسماعيل أبو الحسن الأشعري .

ومجدد المائة الرابعة هو الإمام أبو بكر بن محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله وهو من أتباع مذهب أبي الحسن الأشعري .

ومجدد المائة الخامسة هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، المتوفى يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ رحمه الله ، وهو أيضا من أتباع مذهب الأشعري في الأصول ، ثم لم يتفق بعده أغلب علماء العصور من المسلمين على مجدد القرون التالية ولعلها كانت في أكثر من إمام على رأس كل مائة سنة .

تلامذته

* **من أعيان الطبقة الأولى :**

١) **محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد** : أبو عبد الله الطائي المتكلم ، صاحب أبو الحسن الأشعري وهو من أهل البصرة سكن ببغداد وعليه درس القاضي أبو بكر بن محمد بن الطيب الباقلاني الكلام وله كتب حسان في الأصول ، حسن السيرة ، حسن التدين ، جميل الطريقة .

٢) **أبو الحسن الباهلي البصري** : شيخ القاضي أبي بكر بن محمد الطيب الباقلاني وأبي بكر بن فورك وأبي أسحق الإسفرايني ، وكان أبو إسحاق يقول : كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر ، وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي يقول : كنت أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب بحر .

٣) **بندار بن الحسين بن محمد بن المهلب** : أبو الحسين الشيرازي الصوفي (خادم أبي الحسن) توفي سنة ٣٥٣ هـ . كان من أصحاب الشبلي ، قال أبو القاسم القشيري : كان بندار عالما بالأصول كبيرا في الحال مات بأرجان.

٤) **عبد الله بن علي بن عبد الله القاضي** : أبو محمد الطبري ويعرف بالعراقي توفى ببخارى عام ٣٥٩ هـ روى عنه الحاكم النيسابوري .

٥) **محمد بن علي بن إسماعيل الفقيه الأديب** : أبو بكر الشاشي إمام عصره بما وراء النهر للشافعيين وأعلمهم بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث توفي بالشاش في ذي الحجة سنة ٣٦٥ هـ ، له كتاب في أصول الفقه وله «شرح الرسالة» للشافعي وعنه انتشر فقه الشافعي فيما وراء النهر .

٦) **محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن هارون بن عيسى بن إبراهيم بن بشير الحنفي العجلي** : أبو سهل الصعلوكي الفقيه الأديب اللغوي النحوي الشاعر المتكلم المفسر المفتي الصوفي الكاتب العروضي حبر زمانه وبقية أقرانه ولد سنة ٢٧٦ هـ طلب الفقه وتبحر في العلوم ، توفي في آخر سنة ٣٦٩ هـ بنيسابور .

٧) **محمد بن أحمد بن عبد الله الفقيه الزاهد** : أبو زيد المروزي ، كان أحد أئمة المسلمين ومن أحفظ الناس لمذهب الشافعي وأحسنهم نظرا وأزهدهم في الدنيا كان ممن غزا في سبيل الله وحج وجاور بمكة . توفي بمرو في رجب سنة ٣٧١ هـ وعنه أخذ أبوبكر القفال وفقهاء مرو.

٨) **محمد بن خفيف الشيرازي** : الصوفي فقيه على مذهب الشافعي توفي سنة ٣٧١هـ.

٩) **أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس** : أبو بكر الإسماعيلي ولد سنة ٢٧٧ هـ توفي سنة ٣٧١ هـ هذب ((مسند عمر)) في مجلدين قال الذهبي : طالعته وعلقت منه وانبهرت بحفظ هذا الإمام وجزمت بأن المتأخرين على إياس من أن يلحقوا المتقدمين في الحفظ والمعرفة .

١٠) **أبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبري** : كان من أعيان أصحاب أبي الحسن وممن تخرج به وخرج إلى الشام ونشر مذهبه في الأصول وكتب عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري كتابه في التفسير ، له كتاب سماه ((رياضة المبتدي وبصيرة المهتدي)).

١١) **أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري** : صحب أبا الحسن الأشعري بالبصرة مدة وأخذ عنه وتخرج به واقتبس منه وصنف تصانيف عدة تدل على علم واسع وفضل بارع وهو الذي ألف الكتاب المشهور في تأويل الأحاديث والمشكلات الواردة في الصفات .

١٢) **محمد بن أحمد بن العباس بن أحمد بن خلاد بن أسلم بن سهل بن مرداس** : أبوجعفر السلمي النقاش ، ثقة ، متكلم على مذهب أبي الحسن الأشعري ، ولد سنة ٢٩٤ هـ ، وتوفي سنة ٣٧٩ هـ .

١٣) **محمد بن القاسم** : أبو عبد الله الشافعي ، متكلم على مذهب أهل السنة ، أشعري في الأصول ، توفي بأصبهان سنة ٣٨١ هـ .

١٤) **عبد الواحد بن أحمد بن القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الزهري** : أبو محمد، المتكلم الأشعري كان يصوم الدهر ويختم القرآن في يومين ، توفي الزهري بنيسابور الخميس ١٨ ربيع الأول سنة ٣٨٢ هـ .

١٥) **محمد بن عبد الله بن محمد الفقيه** : أبو بكر البخاري ثم الأودني، إمام الشافعيين بما وراء النهر في عصره بلا مدافعة، كان من أزهد الفقهاء ، وأورعهم وأكثرهم اجتهادا في العبادة ، وأبكاهم على تقصيره ، وأشدهم تواضعا وإخباتا وإنابة ، توفي ببخارى سنة ٣٨٥ هـ .

١٦) **محمد بن عبد الله بن جمشاد** : أبو منصور الأديب الزاهد من العبّاد العلماء المجتهدين ، تخرج به جماعة من العلماء ، وظهر له من مصنفاته أكثر من ثلاثمائة كتاب ، كان مجاب الدعوة ، ولد عام ٣١٦ هـ ، توفي رحمه الله يوم الجمعة ٢٤ رجب سنة ٣٨٨ هـ ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

١٧) **محمد بن أحمد بن سمعون** : أبو الحسين من مشائخ البغداديين ، له لسان عال في علوم التصوف ، والمرجوع إليه في آداب الظاهر ، إمام المتكلمين، دون الناس حكمه ، وجمعوا كلامه له الأسانيد العالية في الحديث ، صحب الشبلي ، يأكل من عمل يده كان بارا بأمه ، بصورة مميزة يقتدى بها ، توفي يوم الخميس الرابع عشر من ذي القعدة سنة ٣٨٧ هـ .

١٨) **أبو عبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي عبد الرحمن القطان الشروطي** : كان متكلما على مذهب أهل السنة ، وعالما بالفقه والطب ، كتب الحديث عن أبي يعقوب النحوي ومن في طبقته ، توفي سنة ٣٨٩ هـ .

١٩) **زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسي** : أبو علي المقري الفقيه المحدث ، شيخ عصره بخراسان ، توفي رحمه الله يوم الأربعاء في شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٧ هـ .

وعن هؤلاء الأئمة الأعلام من تلاميذ الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه ، الذي أخذوا عنه مباشرة وتخرجوا به نفع الله بعلم أبي الحسن عشرات الآلاف من جهابذة العلماء ، أهل الصدق والتقوى والورع طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل

ذكربعضهم بتفصيل الحافظ ابن عساكر في كتابه ((تبيين كذب المفتري على فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)) الذي نقلنا عنه هنا باختصار وتصرف وكذا أصحاب ((الطبقات)) كالسبكي وغيره .

*** ومن أعيان الطبقة الثانية :**

أبو بكر بن الطيب بن الباقلاني البصري المتوفى سنة ٤٠٣ رحمه الله .

والإمام أبو علي الدقاق النيسابوري ، شيخ أبي القاسم القشيري ، عبد الكريم بن هوازن الصوفي العابد العارف بالله ،

والإمام أبو عبد الله **محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم بن الحكم** ، الحاكم النيسابوري الحافظ صاحب كتاب ((المستدرك على الصحيحين)) ولد سنة ٣٢١ هـ بخراسان نيفت تصانيفه على ألف وخمسمائة جزء وروى عن ألف شيخ أو أكثر من أهل الحديث توفي سنة ٤٠٥ هـ .

و الإمام **محمد بن الحسن بن فورك** الأديب المتكلم الأصولي الواعظ النحوي أبو بكر الأصبهاني بلغت تصانيفه في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن قريبا من المائة ، توفي سنة ٤٠٦ هـ .

ومنهم **إبراهيم بن محمد بن إبراهيم** الفقيه الأصولي المتكلم المقدم في هذه العلوم أبو سحاق الإسفرايني الزاهد ، أقر له أهل العلم بالعراق وخراسان بالتقدم والفضل ، وفي بنيسابور سنة ٤١٨ هـ.

*** ومن أعيان الطبقة الثالثة :**

عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني النيسابوري و محمد ، الإمام ، ركن الإسلام ، الفقيه الأصولي الأديب النحوي المفسر ، أوحد زمانه صاحب التصانيف الكثيرة في مختلف العلوم والفنون ، توفي في ذي القعدة سنة ٤٣٨ هـ

والإمام الكبير **أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى أبو بكر البيهقي** الإمام الحافظ الفقيه الشافعي الأصولي الدين الورع واحد زمانه ، ألَّف من الكتب ما يربو على

ألف جزء ، ولد سنة ٣٨٤ هـ وتوفي سنة ٤٥٨ هـ بنيسابور وحمل إلى خسروجرد رحمه الله.

* ومن أعيان الطبقة الرابعة :

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ، الخطيب البغدادي صاحب ((تاريخ بغداد)) ولد سنة ٣٩١ هـ وتوفي سنة ٤٦٣ هـ ببغداد .

و أبو القاسم **عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري** صاحب ((الرسالة)) و((لطائف الإشارات)) ولد سنة ٣٧٦ هـ وتوفي سنة ٤٦٥ هـ .

ومنهم أبو إسحاق **إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزأبادي** الشافعي ، صاحب كتاب ((المهذب)) و((التنبيه)) في الفقه و((التبصرة)) في الأصول توفي سنة ٤٧٦ هـ ،

ومنهم إمام الحرمين **عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أبو المعالي** ، ولد سنة ٤١٩ هـ ، وتوفي وهو ابن تسع وخمسين سنة .

* ومن أعيان الطبقة الخامسة :

الإمام حجة الإسلام **أبو حامد الغزالي** المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .

* بعض رافعي قواعد المذهب الأشعري في الأصول وشارحيه :

يقول الدكتور ضيف : [وإذا كان الأشعري قد وضع قواعدَ مذهبِه الذي تميَّز بالوسطية، فإن تلامذته رفعوا قواعد المذهب ، وفصّلوا مجمله، وشرحوا إشاراته، وأفاضوا في الحديث عن المشكلات الفكرية التي أثارها وأثارها عليه خصومه، ومن ثم بلْوَرُوا الأشعرية بل طوَّروها.

كان منهم : الباقلاني ، والجويني ، والغزالي ،وكانوا أبرز الفرسان وأعظم البناة لصرح الأشعرية كمذهب] . ((المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد)) (صفحة١٣٩).

مؤلفاته

وقد ألف أبو الحسن رحمه الله ما يربو على مائتي كتاب ، بين رسالة ومجلد ومرجع موسوعي من عدة مجلدات ذكرها بتفصيل الإمام أبو بكر بن محمد بن فورك كما ورد في كتاب ((تبيين كذب المفتري)) لابن عساكر نذكر من أشهرها :

((العمد)) : في الرؤية ، و((الفصول)) : في الرد على الملحدين ، و((الموجز)) : في خلق الأعمال ، و((إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان)) ، و((اللُّمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) ، و((اللُّمع الكبير)) ، و((اللُّمع الصغير)) ، و((الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل)) ، و((مقالات الإسلاميين)) ، و((جُمَل المقالات)) ، و((الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات)) ، و((القامع لكتاب الخالدي في الإرادة)) ، و((الرد على ابن الراندوي في الصفات والقرآن)) ، و((الرد على كتاب التاج)) لابن الراوندي الذي نصر فيه القول بقدم العالم ، و((الدافع للمهذب)) : وهو كتاب للخالدي يسمى ((المهذب)) ، و((المختصر في التوحيد والقدر)) ، وكتاب ((الطبريين)) ، و((جواب الخراسانية)) ، وكتاب ((الأرجانيين)) ، وجواب ((السيرافيين)) ، و((جواب العمانيين)) ، و((جواب الجرجانيين)) ، و((جواب الدمشقيين)) ، و((جواب الواسطيين)) ، و((جوابات الرامهرمزيين)) ، و((المسائل المنثورة البغدادية)) ، و((المتنخل)) ، و ((الفنون)) ، و((الإدراك)) ، و((المختزن)) ، و((جواب المصريين)) ، و((المسائل على التثنية)) ، وكتاب ((تفسير القرآن)) ، و((زيادات النوادر)) ، و((جوابات أهل فارس)) ، و((الجوهر في الرد على أهل الزيغ والمنكر)) ، و((أدب الجدل)) .

وكل هذه الكتب عدا النزر القليل مما خسره العالم الإسلامي من كتب السلف ، أما سبب التلف الذي أدى إليه الإهمال ، أو الضياع الذي أدى إليه عدم معرفة قيمة لكتاب، أو بسبب هجمات الغزاة على الحواضر الإسلامية كما حصل في مكتبة بغداد على د التتار ، أو بسبب الصراعات المذهبية والفكرية التي لا تعرف حدا أو خطا فاصلا بين لشخصي والعام .

فقد ذكر العلامة الكوثري في تعليقه على ((التبيين)) فيما يتعلق بكتاب أبي الحسن ((تفسير القرآن)) : أن الصاحب بن عباد المعتزلي سعى في إحراق النسخة الوحيدة منه في خزانة دار الخلافة ببغداد بأن دفع للخازن عشرة آلاف دينار ، ورغم أن الكوثري علّق باستبعاده صدور مثل ذلك من الصاحب بن عباد ونسب هذه القصة إلى اختلاقات أبي حيان التوحيدي على الصاحب بن عباد ، فإن القصة تؤمىء في مدلولها إلى تأثير الصراعات الفكرية والمذهبية والتباينات العِرَقية والطائفية والعنصرية وانعكاساتها السلبية على علم العلماء وجهود المفكرين وإبداع المبدعين.

والمؤسف أنه حتى بعض هذا النزر القليل من كتب أبي الحسن الأشعري الذي سلم من التلف والضياع لم يسلم من تحريف ودس الحشوية كما حصل في كتاب ((الإبانة)) وفي ((رسالة أهل الثغر)) ، ولم يعد في اعتقادنا من كتب الإمام الأشعري التي تطمئن النفس إلى سلامتها من التحريف والتشويه غير كتاب ((اللمع)) وكتاب ((مقالات الإسلاميين)).

وإذا كان نصيب معظم كتب الإمام أبي الحسن الأشعري التلف والضياع من عوامل الزمن وهجمات المبتدعة والمخالفين، فإن الله جلت قدرته قد حفظ لنا هذا المذهب المعتدل الوسط المقنع في أصول العقيدة بفضل أعلام الأشاعرة من أئمة الهدى والعلم والتقوى كالباقلاني وابن فورك وأبي إسحاق الأسفرايني وإمام الحرمين والقشيري وحجة الإسلام الغزالي والعز بن عبد السلام وابن عساكر وغيرهم المئات ممن وَثَّقوا وفصلوا وحققوا وشرحوا جزاهم الله عنا وعن المسلمين كافة خير الجزاء.

ومحصلة القول في ما تتداوله الأيدي في العصر الحاضر من مؤلفات الإمام أبي الحسن الأشعري المطبوعة، أن هذه المؤلفات لا تتعدى الخمسة على النحو التالي :

١ - ((الإبانة عن أصول الديانة)) .

٢ - رسالة في ((استحسان الخوض في علم الكلام)) .

٣ - رسالة أهل الثغر ((باب الأبواب)) .

٤ - ((اللمع)) . ٥ - ((مقالات الإسلاميين)) .

حال المسلمين

قبل ظهور مذهب أبي الحسن

بعد أن طرأ بعض فتور على الفتوح ازداد الناس تفرغا لتلك الآراء المبثوثة (مثل آراء الخوارج والباطنية والقدرية والجبرية والمرجئة والحشوية، وبالجملة لمجمل الآراء صحيحها وسقيمها والمنحرف منها ومستقيمها) وتغلب على عقول الناس شهوة التعمق فيها.

وأخذ أمثال ابن المقفع وحماد عجرد ويحي بن زياد ومطيع بن إياس وعبد الكريم بن أبي العوجاء -الذي كان ربيب حماد بن سلمة وكان اعترف أنه وضع أربعة آلاف حديث- يواصلون السعي في نشر الإلحاد بين المسلمين وترجمة كتب الملاحدة والثنوية ونشرها، حتى استفحل أمرهم. فأمر المهدي علماء الجدل من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين .

وكان القائمون بأعباء تلك المدافعات طائفة من المعتزلة، فأصبحوا -أي المعتزلة- بين عدوين :

(١) عدو من خارج الملة له آراء وفلسفة تدرب عليها من عهد قديم، ويتمثل في الكفرة والملاحدة والزنادقة.

(٢) وعدو مجافٍ من داخل الأمة كاد السواد أن ينحاز إليه لتقشفه وهو بعيد عن قضايا العقول ، راجت عليه تمويهات المضلين من اليهود والنصارى والثنوية ؛ فكان قصارى عمله وهمه في هذه المعمعة : الوقيعة في أهل النظر العقلي لا يفرق بين العدو والحميم ، ولو وُكِّل له أمر الدفاع عن العقيدة الإسلامية لما أمكن أن يدافع عنها ساعة من نهار.

ولقد اشتغل المدافعون عن العقيدة والمناظرون لخصومها بالعدو الأول -من خارج الملة- وتغاضوا عن العدو الثاني -وهم الحشوية- حتى أتموا الرد على الأول وكشفوا تمويهاته ، ثم نقضوا كلام العدو الثاني وأظهروا سخف آرائهم.

لكـن طـول وعمـق الجـدل والمنـاظرات في مسـائل العقيـدة مـع خصـوم متعـددين ومتباينين، أدَّت كما قلنا بالمعتزلة إلى ركونهم المطلق إلى العقل وتمجيده والثقة المطلقة بـه وبكل ما ينتج عنه، ورفضهم المطلق للنقل وغلوهم في رفضه وتنحيته من أصول العقيدة بشكل كامل.

وكان غالـب الفقهـاء وحملـة السـنة طـوال هـذه المكافحـات يـأبون الخـوض في تلـك المسائل ويجْرون على ما عليه الصحابة وخيار التابعين من الاقتصار على ما ثبت من الدين بالضرورة، رغم أن خصوم الدين من الزنادقة كان لهم من الأسلحة ما لا يمكن مقابلته إلا بمثله، خصوصا وأنهم جـروا في بـث سـمومهم وزنـدقتهم مـع المتـسلمين عـلى طريـق التدرج في مراحل التشكيك والتضليل، والجمهور من الفقهاء وأهل السنة، في غفلة مـن ذلك.

ومشى أولئك الزنادقـة بالمسـلمين إلى مرحلـة لـو تـرك الأمـر لهـم وشـأنه لكـادت أن تتسرب شكوكهم إلى قلوب جماعة المسلمين فتعم البلوى ويبلغ الخطب مداه.

في هذه الظروف كما ذكرنا آنفا، تولى المـأمون العبـاسي الخلافـة وأخـذ يشـايع المعتزلـة ويقربهم حتى حمـل النـاس عـلى القـول بخلـق القـرآن والتنزيـه حسـبما يـوحي إليـه عقلـه وعقول خلطائه ، ودامت هذه المحنة طوال خلافة المعتصم والواثـق وزاد الأخـير مسـألة نفي الرؤية ، فلقي خصـوم المعتزلـة شـدائد اسـتمرت إلى أن رفـع المتوكـل المحنـة وأظهـر الإمام أحمد بن حنبل فيها من الثبات ما رفع شأنه.

ولم يكن للمتوكل ما يحمد عليه غير رفعه المحنة ومنع الناس عن المنـاظرات في الآراء والمذاهب ، وكان ناصـبيا يـبغض عليـاً كـرم الله وجهـه ورضي الله عنـه وأرضـاه، ولـه أي المتوكل من الأفعال الشنيعة والمستقبحة ما لا يخطر على بال .

ثم ابتدأ من عهد المتوكل العبـاسي رد الفعـل يأخـذ سـيره الطبيعـي مـن ارتفـاع شـأن الحشوية وانقماع أهل النظر والمعتزلة.

وتشكل حال المسلمين في أمر العقيدة على ما يقرب من هذا التقسيم :

- **أهل السنة** : من الفقهاء والمحدثين غارقين في علومهم المجردة في غير جلبة ولا ضوضاء.

- **الحشوية** : يَجْرون على طيشهم وعمايتهم واستتباع الرعاع والغوغاء ويتقولون في الله ما لا يجوِّزه شرع ولا عقل من التشبيه والتجسيم.

- **المعتزلة** : يعطلون اللهَ جل شأنه عن صفاته، ويحكِّمون العقل تحكيما مطلقا، ويرفضون النقل رفضا تاما، ويقولون بخلق القرآن وبنفي الرؤية في الآخرة ونفي الشفاعة وبالأصول الخمسة التي خالفوا بها عقيدة أهل السنة والجماعة، وكانوا يتغلبون على عقول المفكرين من العلماء ويسعون في استعادة سلطانهم على الأمة .

- **أصناف الملاحدة والقرامطة والزنادقة** : توغلوا في الفساد واحتلوا بلاد الإسلام

ولم يبق في ثغور الدفاع عن العقيدة من يرابط بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة والأدلة الناصعة التي تمحق مخرقة الإلحاد والزندقة والقرمطة حيث انشغل الكل بأنفسهم وبصراعاتهم البينية.

(مقدمة الكوثري على ((التبيين)) بتصرف)

مجدد المائة الثالثة

في ظل هذه الظروف التي سادت العالم الإسلامي ، كان الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل قد خرج من بحثه العميق ، ومراجعته الواعية لعقيدة الاعتزال التي كان يعتنقها، ويدافع عنها، ويناظر خصومها ، بقناعات واجتهادات في أصول العقيدة ، جمع الله بها بين الصحيح عند كل فريق من الاجتهادات والأقوال وزال بها عن الأمة الحيرة والإشكال، وكسدت بفضل الله ثم بفضل هذا الإمام العظيم شبهاتُ ونياتُ أهلِ الزيغ والفتنة والضلال وقام لنصرة السنة وقمع البدعة، وبذلك اتفق الجمهور على أنه مجدد المائة الثالثة رحمه الله رحمة الأبرار.

لقد كان الأشعري على دراية واسعة وعميقة أيضا بمختلف الملل والنحل المشهورة والمغمورة في التاريخ الإسلامي بوجه خاص والإنساني بوجه عام ، فسعى أولاً للإصلاح بين فريقي الأمة بإرجاعهما عن تطرفهما إلى الوسط العدل وهما :

- فريق من المعتزلة الذين تعاملوا مع أصول العقيدة بالبحث المجرد دون عصبية أو هوى ومصلحة شخصية وإن اشتط بهم البحث العقلي المجرد ومقارعة الخصوم بنتاجه إلى رفض ما ثبت من النقل بشكل شبه مطلق.

- وفريق من أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والدعاة الصالحين وأتباعهم الذين ربما تسربت إليهم بعضاً من عقائد الحشوية الضالة.

أمثلة من طريقته الوسطى المعتدلة :

(١) ففي قضية خلق القران :

قال أبو الحسن للفريق الأول: أنتم على حق إذا كنتم تريدون بخلق القرآن : اللفظ والتلاوة والرسم ، وليس لكم مجال أن تنفوا الصفة القديمة القائمة به تعالى وغير البائنة منه، وهو الكلام، من غير لفظ ولا حرف ولا صوت.

وقال للفريق الثاني: أنتم مصيبون إذا كان مقصودكم (بالقديم) الصفة القائمة بذات الباري غير البائنة منه - كما يقول ابن المبارك-، يعنى الكلام النفسي، وليس لكم مجال أن تنكروا حدوث لفظ اللافظ وتلاوة التالي.

(٢) وفي مسألة رؤية الله تعالى في الآخرة:

قال أبو الحسن للفريق الأول : أنتم على حق في نفي المحاذاة والصورة، ولكن يجب عليكم الاعتراف بالتجلي من غير كيف .

وقال للفريق الثاني : أنتم على صواب إن اقتصرتم على إثبات الرؤية للمؤمنين من غير كيف ولكن إياكم من إثبات الصورة والمحاذاة وكل ما يفيد الحدوث .

(٣) وفي مسألة العقل والنقل:

الأشعرية والماتريدية هم العدل الوسط بين المعتزلة والحشوية ، لا ابتعدوا عن النقل كما فعل المعتزلة، ولا عن العقل كعادة الحشوية، ورثوا خير من تقدمهم وهجروا باطل كل فرقة، حافظوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه وملأوا العالم علما ، فالأشعري والماتريدي هما إماما أهل السنة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربها لهم كتب لا تحصى وغالب ما وقع بين هذين الإمامين العظيمين من الخلاف هو من قبيل الخلاف اللفظي فقط، وقد دونت عدة كتب في ذلك وقد أحسن تلخيصها البياضي في ((إشارات المرام في عبارات الإمام)) ونقل الزبيدي نصه في ((شرح الأحياء)).

الإمام الذي جمع الله به كلمة المسلمين
وأقوال جهابذة العلماء فيه

على هذا المنوال سار أبو الحسن حتى وفقه الله لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وقمع المعاندين وكسر تطرفهم ، وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها فطبق ذكره الآفاق وملأ العالم بكتبه وكتب أصحابه في السنة والرد على أصناف المبتدعة والملاحدة وأهل الكتاب ، وتفرق أصحابه في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب وفي كل بلاد الإسلام عموما ، ينشرون عقيدة أهل السنة الجماعة التي جمع الله عليها السواد الأعظم بعد فرقة وشتات وتمزق .

وبعد وفاته رحمه الله تعالى بفترة يسيرة استعاد المعتزلة بعض قوتهم في عهد بني بُوَيْه. ولكن الإمام ناصر السنة أبا بكر محمد الطيب بن الباقلاني، قام في وجههم وقمعهم بحججه ودانت للسنة على مذهب الأشعرية في الأصول أهل البسيطة من المسلمين إلى أقصى بلاد أفريقية، وقد بعث ابن الباقلاني في جملة من بعث من أصحابه إلى البلاد : أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن حاتم الأزدي إلى الشام ثم إلى القيروان وبلاد المغرب، فدان له أهل العلم من أئمة المغاربة وانتشر المذهب إلى صقلية والأندلس، ولابن أبي زيد وأبي عمران الفاسي وأبي الحسن القابسي وأبي الوليد بن الباجي وتلامذتهم أياد بيضاء في نشر مذهب الإمام أبي الحسن رحمه الله في تلك البلاد .

وقام بنشر المذهب في الحجاز راوية ((الجامع الصحيح)) الحافظ أبو ذر الهروي وأخذ عنه من ارتحل إليه من علماء الآفاق.

وكان انتشاره بالشام قبل ذلك بواسطة صاحب الإمام الأشعري : أبي الحسن عبد العزيز الطبري، راوية ((تفسير ابن جرير)) عن مؤلفه ، وكان أهل الشام يجتلبون كبار الأئمة من المذهب الأشعري حينا بعد حين كالإمام قطب الدين النيسابوري ، اجتلبه نور الدين الشهيد بناء على طلب العلماء من أهل الشام.

وكان جماعة من المقادسة الحنابلة ممن ورثوا بعض أراء (المشبِّه الضال) ابن كرام، الذي كان عشش بالقدس وباض وترك أصحاباً له متقشفين يتوارثونها من بعدهم هاجروا منها لما احتلها النصارى وحملوا بدع التشبيه إلى الشام وكان بها شئ من تلك البدع من عهد عبد الواحد الشيرازي صاحب أبي يعلي (الحشوي المشبه).

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يرعى خاطر (الحشوية المشبهة) لكونهم مهاجرين زهادا ويتغاضى عن معتقدهم، ولم يكن السلطان صلاح الدين هو الذي يحمل الناس على المذهب الأشعري كما ظن البعض، بل اشتهر بأنه لزم الصمت المطبق خلال محنة الاضطهاد القاسية التي تعرض لها الشهاب الطوسي القائم بنصرة مذهب الأشعري في مصر والتي كانت تجري على مرأى ومسمع منه، وكاد آله -أي آل السلطان صلاح الدين- أن ينحازوا إلى الحشوية في المعتقد لولا وقفة سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام في هذه المسألة وقفة عالم يقوم بواجبه، مما أدى إلى تضاؤل أصوات الحشوية المشبهة وإلى اختفائهم في دورهم مقتصرين على الرواية فقط.

من كل ذلك يظهر بجلاء أن انتشار مذهب الإمام الأشعري كان بسلطان العلم لا بشوكة السلطان.

وما وقع ببغداد وغيرها من بعض التشدد على الحشوية بين حين وآخر كان لإخلالهم بالأمن وإثارتهم للقلاقل، (أي بسبب لجوئهم للعنف والإرهاب والتكفير في مجابهة من يختلف معهم) ، وليس بسبب الخلاف المحض في الرأي والاجتهاد والبحث النزيه المجرد.

إن المالكية والشافعية كافة ، وثلث الحنفية وقسم من الحنابلة هم على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في المعتقد من عهد الباقلاني ، والثلثان من الحنفية هم على مذهب الإمام أبي منصور الماتريدي في المعتقد ، في ديار ما وراء النهر وبلاد الترك والأفغان والهند والصين وما والاها. وبعض الحنابلة كان من أهل التفويض وترك الخوض في أمور المتشابه.

وكان غالب الحنابلة على تعاقب القرون (حشوية مشبهة) على الطريقة السالمية والكرامية، إلى أن جعل الظاهر بيبرس قاضياً للقضاة في المذاهب الأربعة لأول مرة، فاتصلوا بعلماء أهل السنة، يحاورونهم في العلم، فأخذت تزول أمراضهم -أي الحنابلة- البدعية، وكاد أن لا يبقى منهم حشوي .

لولا أن الذين جلوا عن حران (جالية حران) بعد نكبة بغداد حطوا رحالهم في الشام، وظهر من بينهم رجل كان له ذكاء وحافظة وسمت، وكان واعظا طلق اللسان، فإذا به يجري على خطة مدبرة في إحلال مذهب الحشوية (أهل التشبيه والتجسيم) تحت ستار مذهب السلف ، محل مذهب أهل السنة ، ولم يعلم أن مذهب أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية بلغ من التمحيص العلمي على تعاقب القرون بأيدي نوابغ أهل النظر والفقه في الدين إلى مستوى من قوة الحجج بحيث إذا حاول مثل هذا الحشوي أن يصطدم به لا يقع إلا على أم رأسه فيردي ولا يودي.

وحيث لم يكن له شيخ يرشده في العلوم النظرية، أصبح علمه لا يرتكن على شي وثيق، وبرز ذلك العلم خليطا كثير الاضطراب والتناقض والغموض والتمويه.

مقدمة ((التبيين)) للكوثري بتصرف .

قال العلامة المحقق العارف بالله عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري :

[إن الأشعري لا يشترط في صحة الإيمان ما قالوه -يعني من شنع عليه- أن إغمار العوام عنده غير مؤمنين، لأنهم خليون عن علم الكلام، بل هو وجميع أهل التحصيل من أهل القبلة يقولون: يجب على المكلف أن يعرف الصانع والمعبود بدلائله، التي نصبها على توحيده واستحقاقه نعوت الربوبية، وليس المقصود استعمال ألفاظ المتكلمين، من لفظ الجوهر والعرَض، وإنما المقصود حصول النظر والاستدلال، المؤدي إلى معرفة الله، وإنما استعمل المتكلمون هذه الألفاظ على سبيل التقريب والتسهيل على المتعلمين، والسلف الصالح وإن لم يستعملوا هذه الألفاظ فلم يكن في معارفهم خلل، والخَلَف الذين استعملوا هذه الألفاظ لم يكن ذلك منهم لطريق الحق مباينة، ولا في الدين بدعة، كما أن

المتأخرين من الفقهاء عن زمان الصحابة والتابعين لما استعملوا ألفاظ الفقهاء من لفظ العلة والمعلول والقياس وغيره، لم يكن استعمالهم لذلك بدعة، ولا خلو السلف عن ذلك كان لهم نقصا، وكذلك شأن النحويين والتصريفيين ونقلة الأخبار في ألفاظ تختص بها كل فرقة منهم.

فإن قالوا : إن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفَة لطريقة السلف .

قيل : لا يختص بهذا السؤال الأشعري دون غيره من متكلمي أهل القبلة، ثم الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية الذين لا تحصيل لهم، وكيف يُظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر، وانهم اتصفوا بالتقليد ؟ ، حاش الله أن يكون ذلك وصفهم، ولقد كان السلف من الصحابة مستقلين بما عرفوا من الحق وسمعوا من الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من أوصاف المعبود، وتأملوه من الأدلة المنصوبة في القرآن وأخبار الرسول عليه السلام في مسائل التوحيد، كذلك كان التابعون واتباع التابعين لقرب عهدهم من الرسول عليه السلام، فلما ظهر أهل الأهواء، وكثر أهل البدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية، وأوردوا الشُبَه، انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم، والايصاء للمسلمين بمباينة طريقتهم، فلما أشفقوا على القلوب أن يخامرها شبههم، شرعوا في الرد عليهم، وكشف شبههم، وأجابوهم عن أسئلتهم، وحاموا عن دين الله بإيضاح الحجج، ولما قال الله تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ تأدبوا بآدابه سبحانه، ولم يقولوا في مسائل التوحيد إلا بما نبههم الله سبحانه عليه في محكم التنزيل، والعجب ممن يقول : ليس في القرآن علم الكلام، والآيات التي هي في الأحكام الشرعية نجدها محصورة، والآيات المنبهة على علم الأصول نجدها توفي على ذلك وتربي بكثير.

وفي الجملة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين: جاهل ركن إلى التقليد، وشق عليه سلوك طرق أهل التحصيل، وخلا عن طرق أهل النظر، والناس أعداء ما جهلوا، فلما انتهى عن التحقق بهذا العلم نهى الناس ليُضِل كما ضل، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة،

فينطوي على بدع خفية، يُلبِّس على الناس عوار مذهبه، ويعمي عليهم فضائح عقيدته، ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بِدَعِهم، ويظهرون للناس قبح مقالاتهم، والقلاب لا يحب من يميز النقود، والخلل فيما في يده من النقود الفاسدة، كالصراف ذي التمييز والبصيرة، وقد قال الله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . فهذا ما حضرني من مدح الكلام والمتكلمين، وذكر بعض من نعلمه من علماء المسلمين.

فإن قال بعض الجهال المبتدعة : لسنا نعرف غير المذاهب الأربعة ، فمن أين أتى هذا المذهب الخامس الذي اخترعتموه؟ ولمَ رضيتم لأنفسكم بالانتساب إلى الأشعري الذي اتبعتموه؟ وهلا اقتنعتم بالانتساب إلى الإمام الألمعي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، فإنه أولى بالانتساب إليه ممن سواه، وأحق بالانتماء إلى مذهبه ممن عداه؟

قلنا : هذا قول عري عن الصدق ، وقائله بعيد عن الحق، فمن ذا الذي حصر المذاهب بالعدد الذي حصرتم؟ ومن يصحح لكم من قولكم ما ذكرتم؟ بل المذاهب أكثرها لا ينحصر بهذا العدد الذي عددتم، ولو كانت منحصرة به لم يحصل لكم بذلك ما قصدتم، وكأنكم لم تسمعوا بمذهب الليث بن سعد المصري، وعثمان بن سليمان البتي البصري ، وإسحاق بن راهويه الخرساني، وداود بن علي الأصبهاني، من علماء الإسلام الذين اختلفوا في الفتاوى والأحكام، لا في أصول الدين المبنية على القطع واليقين، وليس انقراض أرباب المذاهب التي سمينا يصحح لهذا الجاهل هذه المقالة التي عنه حكينا.

ولسنا نسلم أن أبا الحسن اخترع مذهبا خامسا، وإنما أقام من مذاهب أهل السنة ما صار عند المبتدعة دارسا، وأوضح من أقوال مَن تقدمه من الأربعة وغيرهم ما غدا ملتبسا، وجدد مِن معالم الشريعة ما أصبح بتكذيب من اعتدى منطمسا، ولسنا ننتسب بمذهبنا في التوحيد إليه على معنى أنا نقلده فيه ونعتمد عليه، ولكنا نوافقه على ما صار إليه من التوحيد لقيام الأدلة على صحته لا لمجرد التقليد.

وإنما ينتسب منا من انتسب إلى مذهبه ليتميز عن المبتدعة الذين لا يقولون به، من أصناف المعتزلة والجهمية والمعطلة والمجسمة والكرامية والمشبهة السالمية وغيرهم من سائر طوائف المبتدعة، وأصحاب المقالات الفاسدة المخترعة، لأن الأشعري هو الذي انتدب للرد عليهم حتى قمعهم، وأظهر لمن لم يعرف البِدَعَ بِدَعَهم.

ولسنا نرى الأئمة الأربعة الذين عنيتم في أصول الدين مختلفين، بل نراهم في القول بتوحيد الله وتنزيهه في ذاته مؤتلفين، وعلى نفي التشبيه عن القديم سبحانه وتعالى مجتمعين، والأشعري رحمه الله في الأصول على مناهجهم أجمعين، فما على من انتسب إليه على هذا الوجه جناح، ولا يرجى لمن تبرأ عن عقيدته الصحيحة فلاح.

فان عددتم القول بالتنزيه وترك التشبيه تمشعرا فالموحدون بأسرهم أشعرية، ولا يضر عصابة انتمت إلى موحد مجرد التشنيع عليها بما هي منه برية، وهذا كقول إمامنا الشافعي المطلبي ابن عم المصطفى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما أخبرنا به الشيخ أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن احمد الواسطي ببغداد بسنده إلى الربيع بن سليمان قال: أنشدنا الشافعي رحمه الله:

يا راكبا قف بالمحصب من مِنى ... واهتف بساكن خيفها والناهضِ
سحرا إذا فاض الحجيج إلى مِنى ... فيضا كملتطم الفرات الفائضِ
إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وأنشدت لبعضهم في المعنى المتقدم:

إن اعتقاد الأشعري مسدد ... لا يمتري في الحق إلا ممتري
وبه يقول العالمون بأسرهم ... من بين ذي قلم وصاحب منبر
والمدّعون عليه غير مقاله ... ما فيهم إلا جهول مفتري
فذر التعامي واعتصم بمقاله ... واعلم يقينا أنه القول السري
وارفض ملامة من نهاك بجهله ... عما يراه لأنه لم يشعر
وإذا لحاك العاذلون فقل لهم ... قول امرىءٍ في دينه مستبصر
إن كان من ينفي النقائص كلها ... عن ربه ترمونه بتمشعر

وترونـــــه ذا بدعـــــة في عقلـــــه فليشـــــهد الـــثقلان أني اشـــعري

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي :

[الحمد لله الذي اجتبى من صفوة عباده عصابة أهل الحق وأهل السنة، وخصهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التي قمع بها ضَلال الملحدين، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم من نزغات الزائغين، وعمر أفئدتهم بأنوار اليقين، حتى اهتدوا إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيد المرسلين، واطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع والمنقول والحق والمعقول ، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، و ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وإن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد، ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ؟ ، وينكر مناهج البحث والنظر، أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر ، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر ؟، أو لا يعلم أن خطأ العقل قاصر، وأن مجاله ضيق منحصر ، هيهات قد خاب على القطع والبتات ، وتعثر بأذيال الضلالات ، من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأذى ، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني ، إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء ، فالمعرض عن العقل مكتفيا

بنور القرآن ، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالأعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور] ((الاقتصاد في الاعتقاد)) (صفحة٣، ٤) .

الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي :

ولإبراز الاعتدال واتخاذ طريق الحق الوسط عند الإمام أبي الحسن الأشعري والأشاعرة، عقد الحافظ المؤرخ ناصر السنة أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي الأشعري عقيدة الشافعي مذهبا المتوفى سنة ٥٧١ هـ في كتابه ((تبيين كذب المفتري)) مقارنة بين العقيدة الأشعرية وبعض العقائد الأخرى في بعض مسائل الأصول فقال:

- المعتزلة والجهمية: عطلوا وأبطلوا فقالوا : لا علم لله ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا بقاء ولا إرادة.

وقالت الحشوية (المجسمة والمكيفة والمحددة) : إن لله علما كالعلوم وسمعا كالأسماع وبصراً كالأبصار .

فسلك الأشعري طريقاً بينهما فقال : إن لله علما لا كالعلوم وقدرة لا كالأقدار وسمعا لا كالأسماع وبصرا لا كالأبصار.

وقال جهم بن صفوان : العبد لا يقدر على إحداث شيء ولا على كسب شيء .

وقالت المعتزلة : قادر على الإحداث والكسب معا .

فسلك الأشعري طريقا بينها فقال : العبد لا يقدر على الإحداث ويقدر على الكسب فنفى قدرة الإحداث وأثبت قدرة الكسب.

وقال الحشوية المشبهة : إن الله يُرى مكيفا كسائر المرئيات .

وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية : إنه سبحانه لا يُرى بحال من الأحوال .

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال : يُرى من غير حلول ولا حدود ولا تكييف كما يرانا هو سبحانه وتعالى وهو غير محدد ولا مكيف فكذلك نراه هو غير محدد ولا مكيف.

قالت النجارية : إن الباري سبحانه بكل مكان من غير حلول ولا جهة .

وقالت الحشوية المجسمة : إنه سبحانه حال في العرش وإن العرش مكان له وهو جالس عليه .

فسلك الأشعري طريقة بينهما فقال : كان ولا مكان فخلق العرش والكرسي ولم يحتج إلى مكان وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه.

وقالت المعتزلة : له يد قدرة ونعمة ووجهه وجه وجود .

وقالت الحشوية : يده يد جارحة ووجهه وجه صورة .

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال: يده يد صفة، ووجهه وجه صفة كالسمع والبصر .

وقالت المعتزلة : النزول نزول بعض آياته وملائكته والاستواء بمعنى الاستيلاء .

وقالت الحشوية : النزول نزول ذاته بحركة وانتقال من مكان إلى مكان والاستواء الجلوس على العرش والحلول فيه.

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال : النزول صفة من صفاته والاستواء صفة من صفاته وفِعْلٌ فَعَلَهُ في العرش يسمى الاستواء .

وقالت المعتزلة : كلام الله مخلوق مخترع مبتدع.

وقال الحشوية : الحروف المقطعة والأجسام التي يكتب عليها والألوان التي يكتب بها وما بين الدفتين كلها قديمة أزلية .

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال : كلام الله قديم غير مغير ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع فأما الحروف المقطعة والأجسام والألوان والأصوات والمحدودات وكل ما في العالم من المكيفات مخلوق مبتدع مخترع .

وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية : الإيمان مخلوق على الإطلاق

وقالت الحشوية المجسمة: الإيمان قديم على الإطلاق.

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال : الإيمان إيمانان :

١. إيمان لله قديم لقوله : ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ .

٢. وإيمان للخلق فهو مخلوق لأنه منهم يبدو وهم مثابون على إخلاصه معاقبون على شكه.

وقالت المرجئة : من أخلص لله سبحانه وتعالى مرة في إيمانه لا يكفر بارتداد ولا كفر ولا يكتب عليه كبيرة قط.

وقالت المعتزلة : صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعاته مائة سنة لا يخرج من النار قط.

فسلك الأشعري طريقا بينهما فقال : المؤمن الموحد الفاسق فهو في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عاقبه بفسقه ثم أدخله الجنة ، فأما عقوبة متصلة مؤبدة فلا يجازي بها كبيرة منفصلة منقطعة.

وقالت المعتزلة : لا شفاعة للرسول بحال .

وقال الأشعري : بأن للرسول شفاعة مقبولة في المؤمنين المستحقين للعقوبة يشفع لهم بأمر الله تعالى وإذنه ولا يشفع إلا لمن ارتضى .

نظرة في كتب الأشعري المتداولة

تتداول أيدي الدارسين والباحثين -كما ذكرنا آنفا- كتباً خمسة منسوبة للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري على النحو التالي:

١- ((مقالات الإسلاميين)) .

٢- رسالة في ((استحسان الخوض في علم الكلام)) .

٣- ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) .

٤- ((الإبانة عن أصول الديانة)) .

٥- رسالة أهل الثغر ((باب الأبواب)) .

والثلاثة الكتب الأولى : ((مقالات الإسلاميين))، ورسالة ((استحسان الخوض في علم كلام)) ، و((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) لم تتعرض لتحريف ودس الحشوية لمشبهة ممن يسمون أنفسهم بالسلفيين لأنهم ركزوا جهود تحريفهم ودسهم على الكتابين لأخيرين ((الإبانة)) ، و((رسالة أهل الثغر)) .

(١) «الإبانة عن أصول الديانة» :

كان تركيز الحشوية المشبهة على هذا الكتاب الإبانة ملحوظا وواضحا ، فقد بذلوا جهودا متصلة وواسعة في مجال تحريفه ثم طبعه وتوزيعه ، حتى أن كل طبعة من طباعته تخالف الطبعة الأخرى ، لقد أدخلوا في نصوص الكتاب ما يفيد بأن الأشعري يذهب مذهب الحشوية المشبهة أو من يسمون أنفسهم بالسلفيين في التشبيه والتجسيم والحد وكون الله جل شانه محلا للحوادث تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

لقد أتى من يسمون أنفسهم بالسلفيين بعد أربعمائة عام من وفاة الأشعري وبعد تحريفهم ودسهم في كتابي «الإبانة» و«رسالة أهل الثغر» ليقول بعضهم : إن الأشعري قد ثاب في آخر حياته إلى رشده وإلى عقيدة التجسيم والتشبيه التي يسمونها عقيدة السلف وألّف «الإبانة» متنكرا لكل ما ذهب إليه في السابق من تأويل ما يفهم منه التشبيه والتجسيم والحد من الآيات والأحاديث في الأسماء والصفات بما يتوافق مع تنزيه الله جلت قدرته ومن التوفيق بين العقل والنقل محتجين «بالإبانة» التي أوسعوها كعادتهم تحريفا وتشويها و «برسالة أهل الثغر».

أما البعض الآخر من الحشوية الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين فقد أوغلوا في المغالطة والاستغفال إلى حد القول بأن الأشعري كان منذ بداية عودته عن الاعتزال سلفيا أي حشويا مشبها ومجسما في عقيدته: وأن العلة في خلاف ذلك مصدرها تلامذته وأتباعه الذين حرفوا مذهبه مما يدفع إلى القول –حسب زعم هؤلاء المشبهة– إن القطيعة تامة بين الأشعري والأشاعرة .

فعشرات التلاميذ المشهورين بالورع والتقوى والعدالة والضبط الذين تلقوا عقيدة الأشعري في الأصول عنه مباشرة ومن على شاكلتهم من تلامذتهم من أعلام علماء الأشاعرة طبقة بعد طبقة كالباقلاني وابن فورك الذين يعدون من أعلام الطبقة الثانية والبغدادي وإمام الحرمين والقشيري والغزالي و العز بن عبد السلام والحافظ بن عساكر وبدر الدين ابن جماعة وابن دقيق العيد والنووي والسيوطي والآلاف من هؤلاء الأعلام

الذين بلغ بهم سند نقل عقيدة الأشعري إلى حد التواتر ، كلهم دون استثناء تواطئوا على الكذب وخالفوا ما تلقوه عن الأشعري من عقيدة في الأصول جملة وتفصيلا، والحشوية الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين هم وحدهم الذين جاءوا في القرن الثامن الهجري وبعد ما يزيد عن أربعمائة عام من وفاة الأشعري ليبينوا عقيدة الأشعري التي لا تختلف —حسب زعمهم— عن عقيدتهم في التطاول على الله بالتشبيه والتجسيم والحد في قليل أو كثير .

صدق رسول الله الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله حين قال : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت) رواه البخاري .

وأسلوب الحشوية المشبهة الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين هذا شنشنة نعرفها من أخزم فلم يصطلِ بها الأشعري وحده بل قلما سلم منها عالم من علماء أهل السنة والجماعة في الماضي والحاضر .

وهذه أمثلة بسيطة على صحة ما نقول :

– استبدالهم عنوان (فصل في زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم) في كتاب «الأذكار» للإمام النووي، بعنوان (فصل في زيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم) مع حذف عدة أسطر من أول الفصل وآخره وحذف قصة العتبي.

– حذف (فصل مبحث الاستغاثة) من كتاب «المغني» لابن قدامة الحنبلي .

– حذف الفصل الخاص بالأولياء والأبدال والصالحين من «حاشية ابن عابدين» الشامي في الفقه الحنفي .

– حذف عبارات لا تعجبهم من «حاشية الصاوي» على «تفسير الجلالين».

– الحذف لشرح الإمام ابن حجر للأحاديث المرتبطة بالصفات من «فتح الباري» متهمين الإمام ابن حجر العسقلاني بفساد العقيدة وتأثره بمذهب الأشاعرة والماتريدية في الصفات والإيمان.

قال تاج الدين السبكي :

[وقد وصل حال المجسمة في زماننا إلى أن كتب بعضهم شرح صحيح مسلم للنووي وحذف من كلام النووي ما تكلم به على أحاديث الصفات، فإن النووي أشعري العقيدة، فلم تحمل قوى هذا الكاتب أن يكتب الكتاب على الوضع الذي صنفه مصنفه. وهذا عندي من كبائر الذنوب ، فإنه تحريف للشريعة، وفتح باب لا يؤمن معه بكتب الناس وما في أيديهم من المصنفات، فقبح الله فاعله وأخزاه] ((الطبقات الكبرى)) (١٩/٢) .

وقال العلامة المحدث السيد حسن بن علي السقاف :

[والإمام أبو الحسن الأشعري يُؤوِّل في كتابه ((الإبانة)) وفي كتابه ((رسالة أهل الثغر)) اللذين تتظاهر المجسمة والمتمسلفة الاحتجاج بما فيهما :

قال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه ((الإبانة)) المحقق على أربع نسخ خطية (دار الأنصار تحقيق الدكتورة فوقية) (صفحة٢١) ما نصه : (وإن الله تعالى استوى على عرشه على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواءً مُنزّهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورن في قبضته، وهو فوق العرش وفوق كل شي إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شي شهيد) انتهى كلام الأشعري في ((الإبانة)) .

وتنبهوا : إلى أن هذه القطعة من ((الإبانة)) محذوفة من أكثر نسخ ((الإبانة)) التي طبعها سلفية العصر، والموجودة في الأسواق ، وبأيدي الناس ، وابحثوا عن النسخة المشار إليها وهي متوفرة ومطبوعة .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في ((رسالة أهل الثغر)) ، وهي من آخر مؤلفاته (صفحة :٧٣) : (وأجمعوا على أنه عز وجل يرضى عن الطائعين له، وأن رضاه عنهم إرادته

لنعيمهم، وأنه يحب التوابين ويسخط على الكافرين ويغضب على عليهم، وأن غضبه إرادته لعذابهم) انتهى من ((رسالة أهل الثغر)).

فالأشعري هنا يؤوّل الرضا والغضب بصراحة فأين ما يدّعيه المتمسلفون ؟!] انتهى من مقدمة السقاف لكتاب ((دفع شبه التشبيه)) (صفحة١٩، ٢٠) .

وروى أبن أبي يعلي (أبو حسين الفراء) الحشوي المشبه في ((طبقاته)) بطريق الأهوازي هذه الرواية الموضوعة حول كتاب ((الإبانة)) التي يلمس فيها الباحث أثر الاختلاق والصنعة فقال :

[قرأت على علي القومسي عن الحسن الأهوازي قال : سمعت أبا عبد الله الحمراني يقول : لما دخل الأشعري بغداد جاء إلى البربهاري فجعل يقول : رددت على الجبائي وعلى أبي هاشم وقضيت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس وقلت وقالوا وأكثر الكلام فلما سكت قال البربهاري: ما أدري مما قلت لا قليلا ولا كثيرا ولا نعرف إلا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل. قال : فخرج من عنده وصنف كتاب ((الإبانة)) فلم يقبله منه ولم يظهر ببغداد إلى أن (خرج منها)] (صفحة٣٩٠ / ٣٩١) ((التبيين)) .

قال العلامة محمد زاهد الكوثري عن البربهاري: [هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري ، كان أكبر أصحاب أبي بكر المروزي وخليفته في القول بأن المقام المحمود هو أن يقعد الله رسوله معه على العرش ، وروى القاضي أبو الحسين بن أبي يعلي بسنده : (أنه ما كان يجلس مجلسا إلا ويذكر فيه إن الله عز وجل يقعد محمدا صلى الله عليه وسلم معه على العرش) تعالى الله عما يقول المجسمة علوا كبيرا وكم أثار الفتن ببغداد عاصمة الخلافة وراء هذه البدعة السخيفة والدعوة إليها ، اختفى البربهاري ومات متخفيا سنة ٣٢٩ هـ منذ صدر أمر الخليفة الراضي العباسي في شأنه وشأن طائفته بالتشدد عليهم ، ترجمه ابن أبي يعلي في ((الطبقات))] . ((تعليقات الكوثري على التبيين)) (صفحة٣٩٢) .

وقال اليعقوبي :

[وقد صدرت أخيراً طبعة من كتاب ((الإبانة)) لأبي الحسن الأشعري محرفة يحاولون بها إيهام الناس أنه كان على مذهبهم الفاسد ، وفي طبعات ((تفسير القرطبي)) عند ذكر الاستواء في سورة الأعراف كلمة في الجهة لا يشك من له إلمام برأي القرطبي أنها مدسوسة في كتابه ، بل من الطريف أن من دسها في وسط كلام القرطبي ترك كلاماً قبلها وبعدها يكذبها بوضوح، فجاءت ناشزة قلقة ، وأغلب الظن أنها دست في كتابة منذ زمن بعيد] انتهى من كتاب ((فتاوى ابن تيميه في الميزان)) (صفحة٥٠).

وقال العلامة الكوثري في مقدمته على ((التبيين)) عن ما تعرضت له بعض نسخ كتاب ((تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)) ، للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ هـ من هجمات الحشوية التحريفية :

[ومن عادة الحشوية أن يترصدوا الفرص لإفناء أمثال هذه الكتب إما بحرقها علنا يوم يكون لهم شوكة وسلطان أو بسرقتها من دور الكتب أو بوضع مواد متلفة فيها ، وإما بتشويهها بطرح ما يخالف عقولهم منها عند نسخها أو بالكشط والشطب في نسخها الأصلية ، وكتابنا هذا كان حظه من النوع الثالث من فنون احتيالهم ولكن أبى الله إلا أن يظهر الحق فلم تأكل هذه المادة غير أوله] (صفحة٥) ((التبيين)) .

(٢) ((رسالة أهل الثغر)) :

قال ياقوت الحموي : [جهة باب الأبواب التي كان يسكنها أهل الثغر، عبارة عن ممر وحصن في الطرف الشرقي من القوقاز في دربند الفارسية، ويعرف في العصر الحديث باسم الباب الحديدي أو باب الحديد، والأبواب هي مخارج الأودية في شرق القوقاز] ((معجم البلدان)) (١/ ٤٣٩) .

وهي مدينة في وسطها مرسى السفن وهذا المرسى قد بُني وجعل مدخله ملتويا، وعلى هذا الفم سلسلة ملتوية ممدودة فلا تدخل منها السفن ولا تخرج إلا بإذن ، وهي على بحر طبرستان وهي أحد الثغور الجليلة لبلاد المسلمين الواقعة على الحدود بين بلاد الروس وبلاد الإسلام الواقعة على بحر الخزر.

و((رسالة أهل الثغر)) المنسوبة لأبي الحسن الأشعري ، حققها الدكتور السلفي (محمد السيد الجليند) ونشرتها المكتبة الأزهرية للتراث ، وقد ولد تحقيق ودقة هذه الرسالة بعلة الموت من البداية على يد هذا الدكتور السلفي حين قال في مقدمته :

[نقل ابن عساكر في كتابه ((التبيين)) ثبتا كبيرا بمؤلفات الأشعري نقلها عن الأشعري نفسه في كتابه ((العمدة)) الذي لم يصلنا ولم نعرف شيئا عنه غير ما ذكره ابن عساكر ، وقد نقل ابن عساكر هذا الثبت عن ابن فورك من كتابه ((طبقات المتكلمين)) ذكر فيها ما يقرب من سبعين مؤلفا للأشعري ليس بينها ((رسالة أهل الثغر))] . مقدمة الجليند على ((رسالة أهل الثغر)) (صفحة١٠).

وقد ساق الجليند بعد ذلك مجموعة من القرائن ليدلل على أن الرسالة التي حققها هي ((رسالة أهل الثغر))لأبي الحسن الأشعري. مثل قوله [ورسالتنا التي نحن بصددها هن من النوع الذي أملاه المؤلف خلال هذه الفترة ولم يذكر اسمها ، لأنها إجابة على سؤال ورد إليه من أهل الثغر بباب الأبواب، فليست مؤلفا مستقلا حتى يذكره باسمه ضمن المؤلفات التي ذكرها] (المصدر السابق صفحة١١) . ،

وليس في تلك المجموعة من القرائن التي ساقها الجليند حول ((رسالة أهل الثغر)) المزعومة التي حققها ونشرها ما يلتفت إليه الباحث لأن أثر الصنعة والوضع والاعتساف واضح فيها ومكثف.

لقد صحح الجليند التاريخ المكتوب على النسخة المخطوطة من الرسالة المذكورة بمزاجية واضحة خالف فيها الجميع وذكر ذلك صراحة في مقدمته فقال :

[قد تشكك بعض المستشرقين في هذه الرسالة، لما فيها من ذكر التاريخ ٢٩٧ هـ ، ذلك أن التاريخ مكتوب في المخطوط ٢٦٧ هـ على سبيل الخطأ من الناسخ !!! وصحته

كما ذكرناه ٢٩٧ هـ ، وهذا لا يعني أبدا الشك في صحة نسبة الرسالة للأشعري ، وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه ((مذاهب الإسلاميين)) أن الآر (المستشرق) قد شك في هذه الرسالة وبنى شكه فيها على أمور ثلاثة :

١ - أن التاريخ المذكور لا يتفق مع عمر المؤلف ، إذ لو صح لكان عمره حينئذ سنة ٢٦٧ هـ سبع سنوات .

٢ - أن الأشعري لم يذكر في الرسالة شيئاً عن المعتزلة ولا عن آرائهم .

٣ - أن الأشعري لم يقرر في الرسالة موقفه من خلق القرآن .

لقد تعقب الدكتور الجليند هذه الأمور الثلاثة باجتهادات مزاجية من عنده كأن يبدأها بقوله : (ونحن من جانبا...) وبدون أن يقدم أي دليل على صحة ما يقول .

وحجة الدكتور الجليند الوحيدة في نسبة ((رسالة الثغر))كما حققها إلى الإمام أبي الحسن الأشعري هو : ذكر ابن تيميه لها في الجزء الرابع من كتابه ((درء تعارض النقل والنقل)) ، واقتباس ابن تيميه ما يقرب من نصفها في كتابه المذكور ليوضح حشوية الأشعري وأنه يختلف في موقفه عن موقف تلامذته من بعده ، وذكرها - أي ابن تيميه - مرة أخرى في ((الفتاوى)) (٥/٥٤٣) .

وهذه الحجة المتمثلة في اعتماد ابن تيميه على ((رسالة الثغر)) في وصم الأشعري بالتشبيه والتجسيم كما هو الحال عند ابن تيميه وتلامذته ، كافية وحدها للشك في نسبة ((رسالة الثغر)) كما نقلها ابن تيميه وكما حققها الجليند إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لأن احتجاج ابن تيميه بأي كتاب يتعلق بالأشاعرة كافٍ للتوقف عن قبول الكتاب على علاته وداعيا إلى إعادة النظر فيه.

وكأن الجليند في عالم معزول ليس فيه محقق ولا باحث حين قال في مقدمته:

[هذا وقد لفت نظرنا إلى أن النسخة التي اعتمد عليها ابن تيميه ربما كانت مختلفة عن المخطوط الأصلي الموجود بمكتبة روان كشك بتركيا، لأن هناك خلافاتٍ كثيرة ...]صفحة ٢٠ مقدمة الجليند على ((الرسالة)) .

فالمسألة هنا عند من يسمون أنفسهم بالسلفيين من الحشوية المشبهة ليست مسألة نقل أمين لعقيدة إمام من أئمة أهل السنة والجماعة في الأصول، لكن الأمر يهدف إلى تحريف هذه العقيدة لتنسجم مع بدع التشبيه والتجسيم والحد وتثليث التوحيد التي يبتدعها من يسمون أنفسهم بالسلفيين على شكل فرمانات: أما القبول بها والوقوع في شرك الشرك والتشبيه والتطاول على الله وأما التعرض لكم هائل من الاتهامات الرخيصة بالجهمية والكفر والضلال .

(٣) ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) :

جعل الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله كتابه هذا على شكل حوار بينه وبين محاور مفترض في مسائل العقيدة بهدف الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، وسد منافذ التشكيك في عقيدة الحق والتنزيه الوسط التي خرج بها هذا الإمام الكبير من بين إفراط الفرق المختلفة أو تفريطها.

وفي اعتقادنا أن أسلوب أبي الحسن هذا أعجز الحشوية عن التسلل بين ثنايا هذا الكتاب وعن دس ما اعتادوا دسه في كتبه وكتب غيره ممن يخالفهم العقيدة ، مضافا إلى ذلك فإن عمق الطرح والحوار في الكتاب المذكور لم ترتقِ إليه قدرات الحشوية الذهنية ومن جاء بعدهم ممن يسمون أنفسهم بالسلفيين في فهم نصوصه أولا ثم في العمل على تحريفها ثانيا، لأن جواد معارفهم يكبو بهم عند أول حوار علمي عميق وواسع إذا خرج عن إطار ما تلقوه واستظهروه في أي مجال من مجالات العلم والمعرفة، وعن لازمة .

قال شيخ الإسلام بن تيميه رحمه الله أو ابن القيم : عند كل استشهاد في احاديثهم وندواتهم وكتبهم ، وديدنهم في مواجهة المحاور ينحصر في إطلاق كمية كبيرة من مفردات السباب والشتائم ومن الوزن الثقيل في العادة.

وقال محقق كتاب ((اللمع)) الدكتور حمودة غرابة عن كتاب ((اللمع)) : [فسوف يلمس القاري بعد مطالعة هذا الكتاب السر في نجاح الأشعري، وكيف أن الأشعري قد كسب تلك الشهرة عن أسباب ذاتية أصيلة فيه، وأن مذهبه قد نال تلك المكانة الرفيعة لأنه مذهب يرضي خاصة الأمة، ولا يصعب على عامتها، لا لأن صاحبه كان من أسرة

كبيرة أو أنه كان قوي الشخصية ، كما أن القارىء سوف يلمس أيضا بطلان الادعاء بوجود هوة سحيقة بين مذهب الأشعري ومذهب الأشاعرة ، وسوف يجد أن الخلاف بينه وبين أتباعه لم يمس أية مسألة جوهرية في المذهب نفسه، على حسب ما قرره وصوره وإنما هو :

- خلاف في طريقة الاستدلال .
- أو في تفسير بعض الأصول .
- أو الزيادة في الشرح .
- أو الاشتغال بمسائل لم تعرض للأشعري في حياته .

وحسب «اللمع» ذلك ليكون جديرا بما بذل فيه من جهد ، وما كلفنا من نصب وإرهاق] المصدر السابق (صفحة ٦) .

وعلى هذا الكتاب سيكون معوَّلُنا في النقل عن أبي الحسن في أصول العقيدة مع ما فصله أعلام مذهبه الثقات الأتقياء العارفون .

التوحيد

يقول الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ في كتاب «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» :

[إن سأل سائل فقال : ما الدليل على أن للخلق صانعاً صنعه ومدبرا دبره ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام ، كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظما ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال ، لأننا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ، ولا أن يخلق لنفسه جارحة ، ويدل ذلك على أنه في حال ضعفه وتقصانه عن فعل ذلك أعجز، ورأيناه طفلا ثم شابا كهلا ثم شيخا ، وقد علمنا انه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم ، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك ، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له ناقلا نقله من حال إلى

حال، ودبره على ما هو عليه، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر، ومما بينَ ذلك أن القطن لا يجوز أن يتحول غزلا مفتولا ، ثم ثوبا منسوجا ، بغير ناسج ولا صانع و مدبر ، ومن اتخذ قطنا ثم انتظر أن يصير غزلا مفتولا ثم ثوبا منسوجا بغير صانع ولا ناسج كان عن المعقول خارجا ، وفي الجهل والجا، وكذلك من قصد إلى برية ولم يجد قصرا مبنيا فانتظر أن يتحول الطين إلى حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض ، بغير صانع ولا بانٍ ، كان جاهلا، وإذا كان تحول النطفة علقة ، ثم مضغة، ثم لحما ودما وعظما ، أعظم في الأعجوبة ، وكان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال وقد قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾ (الواقعة/ ٥٨/ ٥٩) . فما استطاعوا أن يقولوا انهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد . وقد قال الله تعالى منبها لخلقه على وحدانيته : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (٥١/ ٢١). بيّنَ لهم عجزهم وفقرهم إلى صانع صنعهم ومدبر دبرهم.

فإن قالوا : فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة ؟ قيل لهم : لو كان ذلك كما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الاعتمال والتأثير ، ولا الانقلاب والتغيير ، لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره ، وأن يجري عليه سمات الحدث ، وما لم يسبق المحدث كان محدثا مصنوعا ، فبطل بذلك قدم النطفة وغيرها من الأجسام.

فإن قال قائل : لم زعمتم أن البارئ سبحانه لا يشبه المخلوقات ؟ قيل (له) : لأنه لو أشبهها لكان حكمه في الحدث حكمها ، ولو أشبهها لم يخل من أن يشبهها من كل الجهات أو من بعضها فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثا مثلها من جميع الجهات ، وإن أشبهها من بعضها كان محدثا من حيث أشبهها ، ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديما، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (٤٢/ ١١) . وقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (١١٢/ ٤).

فإن قال قائل : لم قلتم : إن صانع الأشياء واحد ؟ قيل له : لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام، ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحدا منهما ؛ لأن

أحدهما إذا أراد أن يحيي إنسانا وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعا أو لا يتم مرادهما ، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعا ؛ لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيا ميتا في حال واحدة، وإن لم يتم مرادهما جميعا وجب عجزهما ، والعاجز لا يكون إلها ولا قديما ، وان تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما والعاجز لا يكون إلها ولا قديما ، فدل على أن صانع الأشياء واحد وقد قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢٢/٢١) ، فهذا معنى احتجاجنا آنفا.

فإن قال قائل : ما الدليل على جواز إعادة الخلق ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الله سبحانه ، خلقه أولاً لا على مثال سبق ، فإذا خلقه أولا لم يعيه أن يخلقه خلقا آخر ، وقد قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾ (يس/ ٧٨/ ٧٩). فجعل النشأة الأولى دليلا على جواز النشأة الأخرى، لأنها في معناها ، ثم قال ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ ﴾ (يس/ ٨٠) . فجعل ظهور النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على نداوته ورطوبته دليل على جواز خلقه الحياة في الرمة البالية والعظام النخرة ، وعلى قدرته على خلق مثله، ثم قال : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ ﴾ (يس/ ٨١) . وهذا هو المعول عليه في الحِجاج في جواز إعادة الخلق .

وهذا هو الدليل أيضا على صحة الحجاج والنظر ، لأن الله تعالى حكم في الشيء بحكم مثله، وجعل سبيل النظير ومجراه مجرى نظيره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ (الروم/ ١١) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾ (الروم/ ٢٧) يريد وهو هين عليه ، فجعل الابتداء كالإعادة. فإن قال قائل : زيدوني وضوحا في صحة النظر . قيل له : قول الله تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه السلام لما

رأى الكوكب : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) ﴾ (الأنعام/ ٧٦/ ٧٧) .

فجمع عليه السلام القمر والكواكب في أنه لا يجوز أن يكون منهما إلها ربا لاجتماعهما في الأفول ، وهذا هو النظر والاستدلال الذي ينكره المنكرون وينحرف عنه المنحرفون .

فإن قال قائل : لم أنكرتم أن يكون الله تعالى جسما ؟ قيل له : أنكرنا ذلك لأنه لا يخلو أن يكون القائل لذلك أراد ما أنكرتم أن يكون طويلا عريضا مجتمعا ، أو أن يكون أراد تسميته جسما وإن لم يكن طويلا عريضا مجتمعا عميقا ، فإن كان أراد ما أنكرتم أن يكون طويلا عريضا مجتمعا، كما يقال ذلك للأجسام فيما يلينا فهذا لا يجوز ، لأن المجتمع لا يكون شيئا واحدا ، لأن أقل قليل الاجتماع لا يكون إلا من شيئين ، ولأن الشيء الواحد لا يكون لنفسه جامعا ، وقد بينا آنفا أن الله عز وجل واحد ، فبطل بذلك أن يكون مجتمعا. وإن أراد –أي القائل لذلك– لم لا تسمونه جسما ، وإن لم يكن طويلا عريضا مجتمعا ، فالأسماء ليست إلينا ، ولا يجوز أن نسمي الله تعالى باسم لم يسم به نفسه، ولا سماه به رسوله ، ولا أجمع المسلمون عليه ولا على معناه] انتهى من ((اللمع)) (صفحة١٨–٢٥).

وقال القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني البصري الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٤٠٣ هـ : [والتوحيد له : هو الإقرار بأنه تعالى ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود ، ليس كمثله شي ، على ما قرر به قوله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾ (البقرة/ ١٦٣) . وقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ (الشورى/ ١١) وأنه الأول قبل جميع المحدثات ، الباقي بعد المخلوقات، على ما أخبر به تعالى من قوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾ (الحديد/ ٣) والعالم الذي لا يخفى عليه شي والقادر على اختراع كل مصنوع ، وإبداع كل جنس مفعول على ما أخبر به في قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام/ ١٢٠) ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (هود/ ٤) وأنه الحي الذي لا يموت ، الدائم الذي لا يزول ، وأنه إله كل مخلوق ومبدعه ومنشؤه ومخترعه] ((الإنصاف)) (صفحة٢٣،٢٢).

وقال العلامة القاضي الباقلاني أيضا : [ويجب أن تعلم أن كل ما يدل على الحدوث أو على سمة النقص فالرب تعالى يتقدس عنه . فمن ذلك : أنه تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات ، والاتصاف بصفات المحدثات ، وكذلك لا يوصف بالتحول ، والانتقال ، ولا القيام ، والقعود ، لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ (الشورى/ ١١). وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص/ ٤) ولأن هذه الصفات تدل على الحدوث ، والله تعالى يتقدس عن ذلك .

فإن قيل : أليس قد قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (طه/ ٥) ؟ قلنا : بلى ، قد قال ذلك ، ونحن نطلق ذلك وأمثاله على ما جاء في الكتاب والسنة ، ولكن ننفي عنه أمارة الحدوث ، ونقول : استواؤه لا يشبه استواء الخلق ، ولا نقول : إن العرش له قرار ولا مكان ، لأن الله تعالى كان ولا مكان ، فلما خلق المكان لم يتغير عما كان.] المصدر السابق (صفحة٤٠،٣٩).

وقال العلامة القاضي الباقلاني أيضا : [وقال بعض أهل التحقيق : (الزم الكل الحدث ، لأن القِدم له، فهو سبحانه لا يظله فوق ، ولا يقله تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عد ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده أمام ، ولا يظهره قبل ، ولا يفنيه بعد ، ولا يجمعه كل ، ولا يوجده كان ، ولا يفقده ليس ، باينهم بقدمه، كما باينوه بحدوثهم .

إن قلت : متى ؟ فقد سبق الوقت كونه –أي وجوده– وإن قلت: أين ؟ فقد تقدم المكان وجوده . فوجوده إثباته ، ومعرفته توحيده .

إنَ تميزه من خلقه ، ما تصور في الأوهام فهو بخلاف ذلك . كيف يحل به من منه بدؤه ؟ أو يتصف بما هو إنشاؤه ؟ لا تمقله العيون ، ولا تقابله الظنون ، قربه كرامته ، وبعده إهانته ، علوه من غير ترق ، ومجيؤه من غير تنقل ، هو الأول والآخر والظاهر

والباطن والقريب والبعيد الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى/ ١١).] المصدر السابق (صفحة٤٠ ، ٤١).

ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٥٠٥ هـ في كتاب قواعد العقائد من ((إحياء علوم الدين)) : [اعلم أن الله سبحانه وتعالى ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا في التقدير ولا في الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، أي الأجسام ولا بعرَض ولا تحله الأعراض أي الصفات والآفات التي فيها نقص كالمرض ونحوه بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ (الشورى/ ١١). ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحدّه مقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء ، فهو لأنها قبلة الدعاء ، وفيه أيضا إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء ، وأنه مستوٍ على العرش بالوجه الذي قال، وبالمعنى الذي أراد ، استواءً منزهاً عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته.

وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شي إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى.

وهو –سبحانه– مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل في شيء ، ولا يحل فيه شيء ، تعالى أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن

التغيير والانتقال ، لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفي صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال .

وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئي الذات بالأبصار -أي في الآخرة بلا كيف- نعمة منه ولطفا بالأبرار في دار القرار ، وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم] انتهى من ((قواعد العقائد)) ، ((عقيد أهل السنة والجماعة)) (صفحة٣٠ ٣٩).

وقال الإمام الكبير سلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذَّب السُّلمي الأشعري عقيدة المتوفى في العاشر من جمادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ بالقاهرة :

[الحمد لله ذي العزة والجلال ، والقدرة والكمال ، والإنعام والإفضال، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد، ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر ، ولا يشبه شيئا ، ولا يشبهه شيء ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، كان قبل أن كوَّن المكان ، ودبّرَ الزمان ، وهو الآن على ما عليه كان ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدّرَ أرزاقهم وآجالهم ، فكل نعمة منه فهي فضل ، وكل نقمة منه فهي عدل ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣ ﴾ (الأنبياء/ ٢٣). استوى على العرش المجيد على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، فتعالى الله الكبير المتعال ، عما يقوله أهل الغي والضلال ، بل لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، مقهورون في قبضته ، أحاط بكل شي علما ، وأحصى كل شي عددا ، مطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، حي ، مريد ، سميع ، بصير ، عليم ، قدير ، متكلم بكلام أزلي ، ليس بحرف ولا صوت ، ولا يتصور في كلامه أن ينقلب مدادا في الألواح والأوراق وشكلا ترمقه العيون والأحداق ، كما زعم أهل الحشو والنفاق ، بل الكتابة من أفعال العباد ، ولا يتصور في أفعالهم أن تكون قديمة، ويجب احترامها لدلالاتها على

كلامه كما يجب احترام أسمائه لدلالاتها على ذاته ، وحق لما دل عليه وانتسب إليه ، أن يعتقد عظمته وترعى حرمته ، ولذلك يجب احترام الكعبة والأنبياء والعُبَّاد والصلحاء :

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّل ذا الجدارا وذا الجدارا
ما حبُ الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ولمثل ذلك يُقبَّل الحجر الأسود ، ويحرم على المحدث أن يمس المصحف ، أسطره وحواشيه التي لا كتابة فيها وجلده وخريطته التي هو فيها ، فويل لمن زعم أن كلام الله القديم شيء من ألفاظ العباد أو رسم من أشكال المداد.

واعتقاد الأشعري رحمه الله مشتمل على ما دلت عليه أسماء الله التسعة والتسعون التي سمى بها نفسه في كتابه وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأسماؤه مندرجة في أربع كلمات هن الباقيات الصالحات:

***الكلمة الأولى** : قول : (سبحان الله) ومعناها في كلام العرب : التنزيه والسلب* ، فهي مشتملة على سلب النقص والعيب عن ذات الله وصفاته ، فما كان من أسمائه سلبا فهو مندرج تحت هذه الكلمة كالقدوس وهو الطاهر من كل عيب والسلام وهو الذي سلم من كل آفة .

الكلمة الثانية : قول : (الحمد لله) وهي مشتملة على إثبات ضروب الكمال لذاته وصفاته فما كان من أسمائه متضمنا للإثبات كالعليم والقدير والسميع والبصير فهو مندرج تحت الكلمة الثانية ، فقد نفينا بقولنا : (سبحان الله) كل عيب عقلناه ، وكل نقص فهمناه، وأثبتنا بـ: (الحمد لله) كل كمال عرفناه ، وكل جلال أدركناه ،ووراء ما نفيناه وأثبتناه شأن عظيم قد غاب عنا وجهلناه ، فنحققه من جهة الإجمال بقولنا : (الله أكبر) وهي **الكلمة الثالثة** ، بمعنى أنه أجل مما نفيناه وأثبتناه ، وذلك معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك) فما كان من أسمائه متضمنا لمدح فوق ما عرفناه وأدركناه كالأعلى والمتعالي فهو مندرج تحت قولنا : (الله أكبر) ، فإذا كان في الوجود من هذا شأنه نفينا أن يكون في الوجود من يشاكله أو يناظره ، فحققنا ذلك بقولنا : (لا إله إلا الله) وهي **الكلمة الرابعة** ، فإن الألوهية ترجع إلى

استحقاق العبودية، ولا يستحق العبودية إلا من اتصف بجميع ما ذكرناه من أسمائه، متضمنا للجميع على الإجمال، كالواحد الأحد وذي الجلال والإكرام، فهو مندرج تحت قولنا : (لا إله إلا الله) وإنما استحق العبودية لما وجب له من أوصاف الجلال ونعوت الكمال الذي لا يصفه الواصفون ولا يعدّه العادّون :

حسـنك لا تـنقضي عجائبـه   كـالبحر حـدِّث عنـه بـلا حـرجِ

فسبحان من عظم شأنه وعز سلطانه ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الرحمن/ ٢٩). لافتقارهم إليه، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرحمن/ ٢٩). لاقتداره عليهم، له الخلق والأمر والسلطان والقهر، فالخلائق مقهورون في قبضته، ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر/ ٦٧)، ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (العنكبوت/ ٢١) فسبحان الأزلي الذات والصفات، ومحي الأموات، وجامع الرفات.

ولو أدرجت الباقيات الصالحات في كلمة منها على سبيل الإجمال، وهي (الحمد لله) لاندرجت فيها، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو شئت أن أوقِر بعيرا من قولك (الحمد لله) لفعلت، فإن الحمد هو الثناء والثناء يكون بإثبات الكمال تارة، وبسلب النقص أخرى، وتارة بالاعتراف بالعجز عن درك الإدراك، وتارة بإثبات التفرد بالكمال، والتفرد بالكمال من أعلى مراتب المدح والكمال. فقد اشتملت هذه الكلمة على ما ذكرناه في الباقيات الصالحات، لأن الألف واللام لاستغراق جنس المدح والحمد، مما علمناه وجهلناه، ولا خروج للمدح عن شيء مما ذكرناه، ولا يستحق الإلهية إلا من اتصف بجميع ما قررناه، ولا يخرج عن هذا الاعتقاد ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، ولا أحد من أهل النِّحَل، إلا من خذله الله فاتبع هواه، وعصى مولاه، أولئك قوم قد غمرهم ذل الحجاب، وطردوا عن الباب، وبعدوا عن ذلك الجناب، وحق لمن حُجِبَ في الدنيا عن إجلاله ومعرفته أن يُحجَبَ في الآخرة عن إكرامه ورؤيته :

أرض لمـن غـابَ عنـك غيبتـهُ   فـذاكَ ذنـبٌ عِقابـهُ فيـهِ

فهذا إجمال من اعتقاد الأشعري رحمه الله تعالى واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة ، نسبته إلى التفصيل الواضح ، كنسبة القطرة إلى البحر الطافح .

يعرفه الباحث عن جنسه ... وسائر الناسِ له منكرُ

غيره :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحدٍ ... إلا على أكمهٍ لا يعرف القمرا

والحشوية المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه ضربان :

أحدهما : لا يتحاشى من إظهار الحشو ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (المجادلة/ ١٨) .

والآخر : يتستر بمذهب السلف ، لسحت يأكله أو حطام يأخذه :

أظهروا للناس نُسكاً ... وعلى الدينار داروا

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ (النساء/ ٩١). ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه ، دون التجسيم والتشبيه ، ولذلك جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف ، فهم كما قال القائل :

وكلٌّ يدّعون وصالَ ليلى ... وليلى لا تقِرُّ لهم بذاكا

وكيف يدّعي الحشوي المشبه على السلف أنهم يعتقدون التجسيم والتشبيه ، أو يسكتون عند ظهور البدع ويخالفون قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (البقرة/ ٤٢).

وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (آل عمران/ ١٨٧) . وقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل/ ٤٤).

والعلماء ورثة الأنبياء ، فوجب عليهم من البيان ما وجب على الأنبياء .

قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ (آل عمران/ ١٠٤).

ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ، ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه ، وإنما سكت السلف قبل ظهور البدع . فورب السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، لقد تشمّر السلف للبدع لما ظهرت ، فقمعوها أتم القمع ، وردعوا أهلها أشد الردع ، فردوا على القدرية والجهمية والجبرية ، وغيرهم من أهل البدع ، فجاهدوا في الله حق جهاده .

والجهاد ضربان : ضرب بالجدل والبيان ، وضرب بالسيف والسنان . فليت شعري فما الفرق بين مجادلة الحشوية وغيرهم من أهل البدع ! ولولا خبث في الضمائر ، وسوء في اعتقاد السرائر ، ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ (النساء/١٠٨) . وإذا سئل أحدهم عن مسألة من مسائل الحشو أمر بالسكوت عن ذلك ، وإذا سئل عن غير الحشو من البدع أجاب فيه بالحق ، ولولا ما انطوى عليه باطنه من التجسيم والتشبيه ، لأجاب في مسائل الحشو بالتوحيد والتنزيه ، ولم تزل هذه الطائفة المبتدعة قد ضربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا ، ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (المائدة/٦٤) لا تلوح لهم فرصة إلا طاروا إليها ، ولا فتنة إلا أكبوا عليها ، وأحمد بن حنبل وفضلاء أصحابه وسائر علماء السلف براء إلى الله مما نسبوه إليهم ، واختلقوه عليهم] انتهى من «طبقات الشافعية» لتاج الدين السبكي (الجزء الثامن ٢١٩-٢٢٣) .

وقال العلامة الإمام الكبير شهاب الدين أحمد بن يحي بن إسماعيل الكلابي الحلبي ، المتوفى بدمشق سنة ٧٣٣ هـ في تصنيف صنّفه في نفي الجهة ردا على ابن تيمية : [وها نحن نذكر عقيدة أهل السنة فنقول : عقيدتنا أن الله قديم أزلي ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، ليس له جهة ولا مكان ولا يجري عليه وقت ولا زمان ، ولا يقال له : أين ولا حيث ، يُرى لا عن مقابلة، ولا على مقابلة ، كان ولا مكان ،وكوّن المكان ، ودبر الزمان ، وهو الآن على ما عليه كان ، هذا مذهب أهل السنة وعقيدة مشائخ الطريق رضي الله عنهم .

قال الجنيد رضي الله عنه : (متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير) .

قيل ليحي بن معاذ الرازي : أخبرنا عن الله عز وجل؟ فقال : إله واحد . فقيل له : كيف هو؟ فقال: مالك قادر . فقيل له : أين هو؟ فقال : بالمرصاد . فقال السائل : لم أسألك عن هذا ؟ فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوقين ، فأما صفته فما أخبرت عنه.

وسأل ابن شاهين الجنيد رضي الله عنه عن معنى (مع) فقال : (مع) على معنيين : مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ (طه/ ٤٦) . ومع العالَم بالعلم والإحاطة ، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ ﴾ (المجادلة/ ٧) فقال ابن شاهين : مثلك يصلح دالاً للأمة على الله .

وسُئل ذو النون المصري رضي الله عنه ، عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (طه/ ٥) . فقال : أثبت ذاته ، ونفى مكانه ، فهو موجود بذاته ، والأشياء بحكمته كما شاء .

وسئل الشبلي رضي الله عنه فقال : الرحمن لم يزل ، والعرش محدث ، والعرش بالرحمن استوى .

وسئل عنها جعفر بن نصير فقال : استوى علمه بكل شي ، وليس شي أقرب إليه من شي .

وقال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : من زعم أن الله في شي، أو من شي ، أو على شيء ، فقد أشرك ، إذ لو كان في شيء لكان محصورا ، ولو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان من شيء لكان محدثا .

وقال محمد بن محبوب ، خادم أبي عثمان المغربي : قال لي أبو عثمان المغربي يوما : يا محمد : لو قال لك قائل : أين معبودك إيش تقول ؟ قلت : أقول : حيث لم يزل . قال :

فإن قال فأين كان في الأزل أيش تقول؟ قلت : حيث هو الآن ، يعنى أنه كان ولا مكان فهو الآن كما كان . فارتضى ذلك مني .

وقال أبو عثمان المغربي : كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة ، فلما قدمت بغداد زال ذلك عن قلبي ، فكتبت إلى أصحابي بمكة أني أسلمت جديدا . قال : فرجع كل من كان تابعه على ذلك .

فهذه كلمات أعلام أهل التوحيد وأئمة جمهور الأمة ، سوى هذه الشرذمة الزائغة ، وكتبهم طافحة بذلك ، وردهم على هذه النازغة لا يكاد يحصر ، وليس غرضنا بذلك تقليدهم ، لمنع ذلك في أصول الديانات ، بل إنما ذكرت ذلك ليعلم أن مذهب السلف أهل السُنة ما قدمناه] ((طبقات الشافعية)) لتاج الدين السبكي (الجزء التاسع : ٤١،٤٢).

وقال العلامة العارف بالله الشيخ محمد أمين الكردي الأربلي الشافعي مذهبا الأشعري عقيدة المتوفى ليلة الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٢ هـ في كتابه ((تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب)) :

[وأما المخالفة للحوادث: فمعناها أنه تعالى ليس مماثلا لشيء من الحوادث في الحدوث ولوازمه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فليس جسما ، وليس قائما بجسم أو محاذيا له، وليس فوق شيء ولا تحته ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا يوصف بحركة ولا سكون ، وليس بذي أجزاء، فليس له يد ولا عين ولا أذن ، ولا غير ذلك مما هو من سمات الحدوث ،وما ورد من ذلك ونحوه في الكتاب أو السنة فمصروف عن ظاهره الذي يتبادر إلى العامة، وليس علمه تعالى مكتسبا عن دليل أو ناشئاً عن ضرورة ،ولا يطرأ عليه سهو أو غفلة أو جهل كعلمنا ، وليست قدرته محتاجة إلى آلة أو معاونة ،وليست إرادته لغرض من الأغراض ، وليست حياته بروح كحياتنا ،وليس سمعه وبصره وكلامه بجارحة أو مقابلة للمبصرات، وليس كلامه بصوت ولا حرف عارض للصوت ولا يطرأ عليه السكوت ، وليس أفعاله تعالى بجارحة ولا بممازجة لشيء من الأشياء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا] انتهى من ((التنوير)) (صفحة١٣ -١٤)

وقال العلامة إبراهيم الباجوري الأشعري عقيدة ، في ((شرحه على الجوهرة)) :

[وقوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ... ﴾ إلى آخر السورة التي تسمى سورة الإخلاص ، وسبب نزولها أن المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه فقالوا : صف لنا ربك ، أمن ذهب أمن فضة ؟ وقد نفت هذه السورة أنواع الكفر الثمانية ، لأن قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ نفى الكثرة والعدد . وقوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ وهو الذي يقصد في الحوائج ، نفى القلة والنقص . وقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ نفى العلة والمعلولية : أي أن يكون تعالى علة لغيره وأن يكون معلولا لغيره . وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ نفى الشبيه والنظير] انتهى من ((هداية المريد شرح جوهرة التوحيد)) (صفحة٦٢،٦٣).

* عرض وتحليل :

يعتبر التنزيه هو الأساس الذي يرتكز عليه مذهب الإمام أبي الحسن الاشعري في مسألة التوحيد خاصة وفي أصول العقيدة الإسلامية بوجه عام ، ويقدِّم صاحب المذهب وعلماؤه في كل طبقة الأدلة الناصعة من العقل والنقل على صدقه وصحته وترسيخه في العقول والقلوب :

ويشمل التنزيه في عقيدة الأشاعرة :

- تنزيه الخالق جل شأنه عن مشابهة الخلق بشكل مطلق ، فالله سبحانه وتعالى بخلاف كل ما تصور في الأذهان، وكل ظاهر يوهم التشبيه، يجب عند الأشاعرة صرف معناه لما ينفي التشبيه، وإلى ما يليق بمن ليس مَثَل أو شبيه .
- تنزيه الخالق جلت قدرته عن أن يكون جسما أو حالا في جسم .
- تنزيه الخالق تبارك وتعالى عن أن يكون محدوداً بحد أو محصوراً في جهة أو حالاً في مكان .

- تنزيه الخالق عز وجل عن أن يكون حادثا أو محلا للحوادث ، أي : الأمور الحادثة بعد عدم كالحركة والسكون .

- تنزيه الخالق سبحانه ما أعظم شأنه عن يكون معه غيره . حيث كان و لاشي معه ، هو القديم الدائم الحي الباقي الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية ليس قبله قبل ولا بعده بعد .

هذه العقيدة الصحيحة المعتدلة الوسطى المؤسسة على تنزيه الباري جل شأنه تنزيها مطلقا وعلى التمسك بهدي نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله عقيدة وشريعة وسلوكا وعلى المحبة لذاته الشريفة صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ولأهل بيته وصحابته وصالحي أمته، وعلى الامتناع عن تكفير أي مسلم من أهل القبلة بذنب غير مستحل ، قيض الله لها بعد أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه ، علماء أعلام ، وأئمة أتقياء كرام ، في كل عصر ومصر إسلامي ، يذودون عن حياض الإسلام ، وينافحون بالحجة والبرهان من المنقول والمعقول عن عقيدة وشريعة سيد الأنام ، حتى بسطت عقيدة التنزيه ، بفضل الله تعالى ثم بفضل هؤلاء البررة المخلصين، راياتها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وبين الأقليات الإسلامية ، وصارت بحق وجدارة ، هي عقيدة أهل السنة والجماعة التي يشار إليها بالبنان ، ومذهب السواد الأعظم من أمة الحبيب الكريم الأكرم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، في أصول العقيدة الإسلامية بلا منازع ، بعد أن توارت عقائد القدرية والمعطلة ومعتقدات الحشوية المجسمة والمشبهة ، وألقت بها حجج الأشاعرة والماتريدية في غياهب التاريخ ، كعقائد محنطة منزوية في بعض المراجع ، يطالعها المطالع لدواعي البحث الأكاديمي المجرد، حيث لم يبق لها أي أثر أو تأثير على حياة المسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر.

لقد ترسخت عقيدة الحق والعدل والتنزيه منذ البداية بفضل الله ثم بفضل جهود الأئمة الأربعة الأعلام وجهادهم : أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك ابن انس الأصبحي ، والشافعي محمد بن إدريس المطلبي القرشي ، وأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني ثم بجهود حملة راية التنزيه والاعتدال والطريق الوسطى من بعدهم : أبي

الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، وأبي منصور محمد بن محمد الماتريدي واتباعهم طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل .

والجدير بالملاحظة أن المجموعات العقدية الإسلامية الأربع التي يتوزع بينها المسلمون في شتى بقاع الأرض وهي :

أولا : مجموعة السواد الأعظم من المسلمين وهم أهل السنة والجماعة الآخذين بمذهبي الإمام أبي الحسن الاشعري والإمام أبي منصور الماتريدي في أصول العقيدة .

ثانيا : مجموعة الشيعة الإمامية الاثناعشرية الآخذين بمذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام .

ثالثا : مجموعة الأباضية اتباع عبد الله بن أباض .

رابعا : مجموعة الزيدية اتباع الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام .

تلتقي كلها في أمر التوحيد على فهم متقارب ومعتقد متماثل ، في مسألة تنزيه الله جلت قدرته عن مشابهة خلقه وفي مسألة نفي الجسمية والحد والجهة عنه جل وعلا ، ونفي كونه محلا للحوادث .

وان اختلفت هذه المجموعات بعد ذلك في العديد من الأصول والفروع ، ولم يشذ عن المسلمين في مسألة التوحيد والتنزيه ، غير الحشوية المشبهة الذين سموا أنفسهم بالسلفيين ، حيث جسموا وشبهوا وبالأين قالوا ، ووصفوا الباري جل شأنه بكل ما لا يليق به من الصفات تعالى عما يقولون علوا كبيرا .

ومن ذلك نفهم أن الخلاف بين المجموعات الأربع التي ذكرناها مهما تعددت جوانبه وتعمقت مضامينه ظل ويظل في إطار الخلاف حول المخلوق الحادث بعد عدم بينما خلاف المسلمين قاطبة مع الحشوية المشبهة ومع السلفية المعاصرة حاملة رايات التشبيه والتجسيم بعد الحشوية ، يتمحور حول الخالق الواحد الفرد القديم جل شأنه ذاتا وصفاتاً ، وهي قضية أخطر وأكبر من قضية الخلاف حول المخلوقين .

ونحسب أن عقائد القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ونظرية الفيض قد نشأت كلها في أحشاء التشبيه والتجسيم والتطاول على الله ومنه استمدت فلسفتها وشطحاتها وإن ادعى الحشوية غير ذلك في محاولة لتبرئة ساحتهم من دنس هذا الشطحات والانحرافات التي كانت عقائدهم السبب الخفي وغير المباشر فيها .

الصفات الإلهية

يقول الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ في كتاب ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) :

[فإن قال قائل : لم قلتم إن الله تعالى عالم ؟ قيل له : لأن الأفعال المحكمة لا تتسق في الحكمة إلا من عالم . وذلك أنه لا يجوز أن يحوك الديباج العصافير ويصنع دقائق الصنعة من لا يحسن ذلك ولا يعلمه. فلما رأينا الإنسان على ما فيه من اتساق الحكمة كالحياة التي ركّبها الله فيه والسمع والبصر وكمجاري الطعام والشراب وانقسامها فيه ، وما هو عليه من كماله وتمامه ، والفلك وما فيه من شمسه وقمره وكواكبه ومجاريها دل ذلك على أن الذي صنع ما ذكرناه لم يكن يصنعه إلا وهو عالم بكيفيته وكنهه ولو جاز أن تحدث الصنائع الحكمية لا من عالم، لم ندر لعل جميع ما يحدث من حكم (الناس) وتدابيرهم وصنائعهم يحدث منهم وهم غير عالمين . فلما استحال ذلك دل على أن الصنائع المحكمة لا تحدث إلا من عالم . كذلك لا يجوز أن تحدث الصنائع إلا من قادر حي ، لأنه لو جاز حدوثها ممن ليس بقادر ولا حي لم ندر لعل سائر ما يظهر من الناس يظهر منهم وهم عجزة موتى ، فلما استحال ذلك دلت الصنائع على أن الله حي قادر .

فإن قال قائل : لم قلتم إن الله سميع بصير ؟ قيل له : لأن الحي إذا لم يكن موصوفاً بآفة تمنعه من إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت فهو سميع بصير .

فإن قال : أتقولون : إن الله تعالى لم يزل عالما قادرا سميعا بصيرا ؟ قيل له : كذلك نقول .

فإن قال : فما الدليل على ذلك ؟ قيل له : الدليل على أن الحي إذا لم يكن عالما كان موصوفا بضد العلم من الجهل والشك أو الآفات ، فلو كان الباري تعالى لم يزل حيا غير عالم لكان لم يزل موصوفا بضد العلم . ولو كان لم يزل موصوفا بضد العلم من الجهل والشك والآفات لاستحال أن يعلم ، لأن ضد العلم لو كان قديما لاستحال أن يبطل . وإذا استحال أن يبطل ذلك لم يجز أن يصنع الصنائع الحكيمة. فلما صنعها ودلت على أنه عالم صح وثبت أنه لم يزل عالما ، إذ قد استحال أن يكون لم يزل بضد العلم موصوفا .

وكذلك لو كان حيا غير قادر لوجب أن يكون لم يزل عاجزا موصوفا بضد القدرة . ولو كان عجزه قديما لا ستحال أن يقدر وأن تحدث الأفعال منه .

وكذلك لو كان لم يزل حيا غير سميع ولا بصير لكان لم يزل موصوفا بضد السمع من الصمم والآفات ، وبضد البصر من العمى والآفات .ومحال جواز الآفات على الباري ، لأنها من سمات الحدث ، فدل ما قلناه على أن الله تعالى لم يزل عالما قادرا سميعا بصيرا] ((اللمع)) (صفحة٢٥ – ٢٧) .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري أيضا : [والدليل على أن لله تعالى قدرة وحياة كالدليل على أن لله تعالى علما . وقد قال جل ذكره : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (النساء/ ١٦٦) . وقال ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ (فصلت/ ١٥) فأثبت العلم لنفسه ، وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (فصلت/ ١١) فأثبت القوة لنفسه .

ومما يدل على أن الله تعالى عالم بعلم أنه لا يخلو أن يكون الله تعالى عالما بنفسه ، أو بعلم يستحيل أن يكون هو نفسه ، فإن كان عالما بنفسه كانت نفسه علما . لأن قائلا لو قال : إن الله تعالى عالم بمعنى هو غيره ، لوجب عليه أن يكون ذلك المعنى علما . ويستحيل أن يكون العلم عالما أو العالم علما ، أو يكون الله بمعنى الصفات ، ألا ترى أن الطريق الذي يُعلم به أن العلم علم هو أن العالِم به عَلِمَ . لأن قدرة الإنسان التي لا يعلم بها لا يجوز أن تكون علما ، فلما استحال أن يكون الباري تعالى علما استحال أن يكون عالما بنفسه ، فإذا استحال ذلك صح أنه عالم يستحيل أن يكون هو نفسه (أي أنه جل

شأنه عالم بعلم وليس هو العلم) -ثم قال الأشعري بعد ذلك- : وهذا الدليل يدل على إثبات صفات الله تعالى لذاته كلها: من الحياة والقدرة والسمع والبصر وسائر صفات الذات] انتهى من ((اللمع)) (صفحة٣١).

وقال العلامة القاضي محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر الباقلاني الأشعري المتوفى سنة ٤٠٣ :

[وأن يعلم -أي المسلم المكلف- مع كونه تعالى سميعا بصيرا، أنه مدرك لجميع المدركات التي يدركها الخلق : من الطعوم والروائح واللين والخشونة والحرارة والبرودة بإدراك معين وأنه مع ذلك ليس بذي جوارح وحواس توجد بها الإدراكات فتعالى الله عن التصوير والجوارح والآلات ، وأنه مع إدراك سائر الأجناس من المدركات وجميع الموجودات غير ملتذ ولا متألم بإدراك شيء منها ولا مشقة له منها ولا نافر عنها ولا منتفع بإدراكها ولا يجانس شيئا منها ولا يضادها وإن كان مخالفا لها .

وأنه سبحانه ليس بمغاير لصفات ذاته ، وأنها في نفسها غير متغايرات ، إذ كان حقيقة الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما الآخر بالزمان والمكان والوجود والعدم وأنه سبحانه يتعالى عن المفارقة لصفات ذاته وأن توجد الواحدة منها مع عدم الأخرى .

وأن صفات ذاته هي التي لم تزل ولا يزال بها موصوفا وأن صفات أفعاله هي التي سبقها وكان تعالى موجودا في الأزل قبلها -كالخلق والرزق والإماتة والإحياء- .

ونعتقد أن مشيئته تعالى ومحبته ورضاه ورحمته وكراهيته وغضبه وسخطه وولايته وعداوته كلها راجعة إلى إرادته ، وأن الإرادة صفة لذاته غير مخلوقة ، لا على ما يقوله القدرية ، وأنه مريد بها لكل حادث في سمائه وأرضه مما يتفرد سبحانه بالقدرة على إيجاده ، وما يجعله منه كسبا لعباده ، من خير وشر ، ونفع وضر ، وهدى وضلال ، وطاعة وعصيان ، لا يخرج حادث عن مشيئته ولا يكون إلا بقضائه وإرادته] انتهى من كتاب ((الإنصاف)) (صفحة٢٤) .

وقال العلامة القاضي الباقلاني أيضا : [يجب أن يُعلم أن الباري جلت قدرته حيٌّ .

- وهـذه المسـألة أول مسـائل قـول الشـيخ أي أبي الحسـن الأشـعري رحمـه الله- موصوف بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه فنقول الباري يوصف بالحياة .

والدليل عليه قوله تعالى ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ (البقرة/ ٢٥٥). وقوله تعالى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان/ ٥٨) . فإن الفعل يستحيل وجوده من الموات الذي لا حياة له والله تعالى فاعل الأشياء ومنشؤها ، فوجب أن يكون حيا.

وأنه تعالى قادر على جميع المقدورات .

والدليل قوله تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ (المائدة/ ١٢٠) .

ولأنا نعلم قطعا استحالة صدور الأفعال من عاجز لا قدرة له ، ولما ثبت أنه فاعل الأشياء ، ثبت أنه قادر .

و يجب أن نعلم أنه تعالى عالم بجميع المعلومات .

والدليل عليه قوله تعالى ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ (النساء/ ١٦٦). وقوله تعالى : ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ (طه/ ١١٠) . وقوله تعالى : ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ (غافر/ ١٩) وقوله تعالى ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ (آل عمران/ ٢٩) . وقوله تعالى : ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ (الهود/ ١٤) . إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى .

وأيضا : فيدل على أنه عالم : صدور الأفعال الحكيمة المتقنة الواقعة على أحسن ترتيب ونظام وإحكام وإتقان ، وذلك لا يحصل إلا من عالم بها ومن جوز صدور خط معلوم منظوم مرتب من غير عالم بالخط ، كان عن المعقول خارجا وفي عمل الجهل والجا.

ويدل على صحة ذلك أيضا : أنه حي ، قادر ، عالم ، أنا لو جوّزنا صدور أفعال محكمة متقنة من غير حي ، عالم ، قادر ، لم ندرِ لعل جميع ما يظهر لنا من أفعال الناس من الكتابة والصناعة وسائر الصنائع لعلها لنا منهم وهم أموات عجزة جهلة .

ويجب أن نعلم أن الله مريد على الحقيقة لجميع الحوادث والمرادات ،

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (هود/ ١٠٧). وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة/ ١٨٥) . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (الأنفال/ ٦٧). وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ (النساء/ ٢٨) . وقد قيل في بعض الآثار : أنه تعالى يقول : يا ابن آدم : تريد وأريد ، ولا يكون إلا ما أريد .

ويدل على أنه مريد من جهة العقل : ترتيب الأفعال واختصاصها بوقت دون وقت ، ومكان دون مكان ، وزمان دون زمان ، وكذلك يدل على أنه أراد أن يكون هذا قبل هذا وهذا بعد هذا وهذا على صفة والآخر على صفة غيرها وهذا من مكان وهذا من مكان آخر ، إلى غير ذلك .

ويجب أن نعلم : أنه سميع لجميع المسموعات بصير لجميع المبصرات .

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى/ ١) . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الزخرف/ ٨٠). وقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (المجادلة/ ١) . وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (العلق/ ١٤) .

وأيضا فإنه لو لم يوصف بالسمع والبصر لوجب أن يوصف بضد ذلك من الصمم والعمى ، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيرا .

ويجب أن نعلم : أن الله تعالى متكلم وأن كلامه غير مخلوق ولا محدث .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة/ ٢٥٣) وقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (النساء/ ١٦٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ (الأنعام/ ١١٥) .

ولا توصف –أي كلماته– ببداية ولا نهاية، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : (أعيذكما بكلمات الله التامة العامة) ومحال أن يُعوَّذ مخلوق بمخلوق . فثبت أنه عوذ مخلوقا بغير مخلوق ، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار ، ولأنه لو لم يكن متكلما لوجب أن يوصف بضد الكلام ، من الخرس والسكوت والعي والله يتعالى عن ذلك .

ويجب أن يعلم : أن الله سبحانه باقٍ ، ومعنى ذلك أنه دائم الوجود .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن/ ٢٧) يعنى ذات ربك ، وأيضا قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص/ ٨٨) يعنى ذاته .

ولأنه قد ثبت قِدَمُه استحال عدمه .

ويجب أن نعلم :

أن الباري عالم بعلم قديم متعلق بجميع المعلومات ولا يوصف علمه بأنه مكتسب ولا ضروري .

وأنه قادر بقدرة قديمة شاملة لجميع المقدورات .

وأنه مريد بإرادة قديمة متعلقة بجميع الكائنات .

وأنه سميع بسمع قديم متعلق بجميع المسموعات .

وأنه بصير ببصر قديم متعلق بجميع المبصرات .

وأنه متكلم وكلامه قديم متعلق بجميع المأمورات والمنهيات والمخبرات .

فعلمه سبحانه لا يوصف بالضرورة والكسب ، لأن ذلك صفات علم الخلق ، وقدرته لا توصف بالاستطاعة لأن ذلك صفات الخلق ، وسمعه لا يوصف بأنه يقوم بالحواس كسمع الخلق ، وبصره لا يوصف بأنه يقوم بالآماق كبصر الخلق ، وكلامه لا يوصف بالجوارح والأدوات لأن ذلك صفات كلام الخلق .

بل صفات ذاته قديمة أزلية لم يزل موصوفا بها ولا يزال كذلك لا تشبَّه بصفات المخلوقين ، ولا يقال : إنها هو و لا غيره ، ولا صفاته متغايرة في نفسها .

والدليل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى/ ١١) . وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص/ ٣/ ٤). فكما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق فكذلك علمه لا يشبه علم الخلق ولا يوصف بصفة علم الخلق وكذلك قدرته وإرادته لا تشبه قدرة الخلق ولا إرداتهم ولا يوصف شي من صفاته بصفات الخلق فاعلم ذلك وتحققه توفق للصواب بمشيئة الله .

والدليل على أن صفاته لا يقال لها : (هي هو) : أنها لو كانت هي هو لكانت خالقة فاعلة مثله ، فلا يجوز أن يقال : (هي هو) . ويدل على صحة هذا المعنى قول الإمام علي عليه السلام في القرآن : ليس بخالق ولا مخلوق ، لأنه لو جعله خالقا كان إلها ثانيا مع الله ، ولو جعله مخلوقا لوجب أن يكون الباري موجودا بلا كلام ثم خلق كلامه بعد ، وذلك لا يصح لأن صفات ذاته قديمة بقدم ذاته .

فإن قيل : فليس ثم إلا خالق أو مخلوق ؟ .

قلنا : نعم ولكن خالق قديم بصفات ذاته ، ومخلوق حادث بصفات ذاته الحادثة التي توجد بعد أن لم تكن ، وتعدم بعد أن كانت ، وصفات القديم لا تتصف بوجود بعد عدم ، ولا بالعدم بعد الوجود ، وإنما قلنا : إن صفات ذاته ليست بأغيار له ، ولا هو غير صفاته ، ولا صفاته متغايرة في أنفسها ، لأن حد الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما الآخر ، إما بزمان أو بمكان ، وهذا يستحيل تصويره في الله تعالى وصفات ذاته ، فافهم .

فإن قيل : قد أثبتم أنه حي عالم قادر سميع بصير متكلم ، أفتقولون : إنه يغضب ويرضى ويحب ويبغض ويوالِ ويعادي ، وأنه موصوف بذلك ؟ قيل لهم : أجل ، معنى وصفه بذلك : أن غضبه على من غضب عليه ، ورضاه عمن رضي عنه ، وحبه لمن أحب ، وبغضه لمن أبغض ، وموالاته لمن والى ، وعدواته لمن عادى ، إن المراد بجميع ذلك إرادته إثابة من رضي عنه وحبه وتولاه ، وعقوبة من غضب عليه وأبغضه وعاداه لا غير.

ويدل على هذه الجملة : أنه يوصف بالغضب ، قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ (النساء/ ٩٣). وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (النور/ ٩) . إلى غير ذلك .

ويدل على أنه يوصف بالحب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (البقرة/ ٢٢٢) . وقوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة/ ٥٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (المائدة/ ٩٣) . إلى غير ذلك .

ويدل على أنه يوالي : قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (آل عمران/ ٦٨) . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (المائدة/ ٥٥) . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (يقول الله تعالى : من آذى وليا) إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ويدل على أنه يعادي : قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (البقرة/ ٩٨) . وقوله تعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الممتحنة/ ١) . إلى غير ذلك من الآيات والآثار .

ويدل على أنه يبغض قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (ثلاثة يبغضهم الله : شيخ زان وبائع حلاف ، وفقير مختال) .

فإن قيل : فما الدليل على أن غضب الله سبحانه ورضاه ورحمته وسخطه وحبه وعداوته وموالاته وبغضه إنما هو إرادته لإثابة من رضي عنه وأحبه ووالاه ونفعه وأن غضبه وسخطه وبغضه وعداوته إنما هي الإرادة عقاب من غضب عليه وسخط وعادى وإيلامه وضره ؟

قيل له : الدليل على ذلك : أن الغضب والرضا ونحو ذلك لا يخلو إما أن يكون المراد به إرادته النفع والضر فقط أو يكون المراد به نفور الطبع وتغيره عند الغضب ورقته وسكونه عند الرضا ، فلما لم يجز أن يكون الباري جلت قدرته ذا طبع يتغير وينفر ، ولا ذا طبع يسكن ويرق ، وأن هذه من صفات المخلوقين ، وهو تعالى عن جميع ذلك، ثبت أن

المراد بغضه ورضاه ورحمته وسخطه إنما هو إرادته وقصده إلى نفع من كان في معلومه أنه ينفعه وضرر من سبق في علمه وخبره أنه يضره لا غير ذلك .

فإن قيل : فهل يجوز أن يوصف بالشهوة ؟ .

قيل له : إن أراد السائل بوصفه بالشهوة إرادته لأفعاله فذلك صحيح من طريق المعنى ، غير أنه أخطأ وخالف الأمة في وصف القديم بالشهوة ، إذ لم يرد بذلك كتاب ولا سُنَّة لأن أسماءه تعالى لا تثبت قياسا وهو معنى قول الشيخ –أي أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه– : (لا مدخل للعقل والقياس في إيجاب معرفته وتسميته ، وإنما يعلم ذلك بفضله من جهته) . يعني : بنص من كتاب أو سنة . وإن أراد السائل أن يصفه بالشهوة التي هي شوق النفس وميل الطبع إلى المنافع واللذات فذلك محال ممتنع على القديم سبحانه وتعالى ، وبما قدمنا ذكره من قبل] المصدر السابق (صفحة٣٣-٣٩).

وقال حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الأشعري عقيدة في كتاب ((قواعد العقائد)) من ((الإحياء)) : [واعلم أنه تعالى حي قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو المُلك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون في قبضته ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، والمتوحد بالإيجاد والإبداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته .

وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال .

وأنه تعالى مريد للكائنات ، مدّبر للحادثات ، فلا يجري في المُلْك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، لا راد لأمره ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ، فلو اجتمع الإنس والجن ، والملائكة والشياطين ، على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وأن إرادته قائمة بذاته ، في جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بهاً ، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها ، فوجدت في أوقاتها كما أراده في الأزل ، من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شان عن شان .

وأنه تعالى سميع بصير ، يسمع ويرى ، ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

وأنه تعالى متكلم آمر ، ناهٍ ، واعد ، متوعد ، بكلام أزلي قديم ، قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت ، يحدث من انسلال هواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع بأطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأن القرآن مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق] انتهى من ((عقيدة أهل السنة والجماعة)) (صفحة٣٩-٤٥).

وقال العلامة العارف بالله الشيخ محمد أمين الكردي الأربلي، الأشعري عقيدةً المتوفى ليلة الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٢ هـ في كتابه ((تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب)) :

[اعلم أن **الصفة** : (وهي الأمر الثابت للموصوف) تنقسم إلى سبعة أقسام :

١. صفة نفسية : وهي التي لا يعقل الموصوف بدونها **كالوجود** .

٢. وصفة سلبية : وهي سلب أمر لا يليق بالموصوف **كالقدم** .

٣. وصفة معنى : وهي صفة وجودية توجب لموصوفها حكما **كالقدرة** .

٤. وصفة معنوية: وهي صفة ثبوتية اعتبارية لازمة للمعنى **ككونه قادرا** .

٥. وصفة فعلية: وهي تعلق القدرة والإرادة **كالخلق والرزق والإحياء والإماتة** .

٦. وصفة جامعة : لسائر الصفات **كالجلال والعظمة والكبرياء** .

٧. وصفة سمعية: وهي عبارة عن معنى ورد به السمع ، أعني الكتاب والسنة المتواترة .

وتنقسم الصفة أيضا إلى قسمين :

١) **صفة متعلقة** : وهي التي تقتضي أمرا زائدا على القيام بمحلها كالقدرة والإرادة فالقدرة تقتضي مقدورا عليه والإرادة تقتضي مرادا .

٢) **وغير متعلقة** : وهي عكس المتعلقة كالحياة .

ومن ثم فيجب على كل مكلّف أن يعرف الواجب والمستحيل والجائز في حق مولانا تعالى:

والمكلّف : هو المسلم البالغ العاقل، سليم الحواس ولو السمع أو البصر، الذي بلغتْه دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكرا كان أو أنثى ، حرا أو عبدا ، أنسيا أو جنيا ، لكن الجن مكلفون من حين الخلقة كآدم وحواء .

والمعرفة : هي الجزم المطابق للواقع عن دليل .

فيجب علينا معاشر البالغين العقلاء أن نعرف ما يجب له تعالى وما يستحيل، وما يجوز عليه إجمالا وتفصيلا.

فالإجمال :أن نعتقد أن الله تعالى متصف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص ،وجائز عليه فعل كل ممكن أو تركه.

والتفصيل : أن نعرف من ذلك ما دل عليه دليل بعينه.

فالواجب له تعالى عشرون صفة: بمعنى أنه لا يدخل في عقل عاقل عدم اتصافه تعالى بها ، ولا يسلم به لما يلزم عليه من المحالات والأباطيل وهي :

الوجود ، والقدم ، والبقاء ، ومخالفته للحوادث، وقيامه بنفسه، والوحدانية ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وكونه قادرا ،وكونه مريدا ، وكونه عالما ، وكونه حيا ، وكونه سميعا ، وكونه بصيرا ، وكونه متكلما .

والمستحيل عليه تعالى عشرون صفة أيضا : وهي أضداد العشرين الواجبة له تعالى وهي :

العدم، والحدوث ، والفناء ، والمماثلة لشيء من الحوادث ، واحتياجه إلى محل أو مخصص ، والتعدد ، والعجز ، والكراهة ، والجهل ، والموت ، والصمم ، والعمى ، والبكم ، وكونه عاجزا ، وكونه كارها ، وكونه جاهلا ، وكونه ميتا ، وكونه أصم ، وكونه أعمى ، وكونه أبكم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

صفة الوجود ودليلها

فأما الوجود : فهو ثبوت الشيء وتحققه ، والوجود واجب له تعالى ، لذاته أزلا وأبدا.

وضده : العدم.

والدليل : على وجوب وجوده تعالى واستحالة العدم عليه :

عقلاً : وجود هذه المخلوقات وذلك أنك إذا نظرت إلى هذا العالم تراه متغيرا ، من عدم إلى وجود ومن وجود إلى عدم، ومن حركة إلى سكون ومن سكون إلى حركة، متنوعا بأنواع مختلفة، وضروب متباينة، فبعضه أبيض، وبعضه أسود، وبعضه أحمر إلى غير ذلك وبعضه في جهة دون جهة وبعضه في مكان دون مكان وبعضه في زمان دون

زمان وبعضه على مقدار دون مقدار وبعضه علوي وبعضه سفلي وبعضه ظلماني وبعضه نوراني وبعضه لطيف وبعضه كثيف إلى غير ذلك من الأنواع ، وكل ذلك مما يدل على أن هذا العالم حادث ، أي موجود بعد عدم ، والحادث لا يكون إلا ممكنا ، لأن ذلك كله يستدعي فاعلا مختارا واجب الوجود يرجّح الوجود على العدم والحركة على السكون والعكس ويرجّح المقدار المخصوص والجهة المخصوصة والزمن المخصوص والمكان المخصوص والصفة المخصوصة على ما يقابلها فلو لم يجب له تعالى الوجود لما وجِد شيء من هذا العالم إذ لا يتصور العقل وجود شيء حادث بدون صانع واجب الوجود ولولا الفاعل المخصِص لوجوده فيما شاء من الأزمنة والأمكنة والجهات على ما شاء من المقادير والصفات لكان يجب أن يبقى على ما كان عليه من العدم أبد الآباد .

ونقلا : قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (يونس/ ٣) وقوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الطور/ ٣٥)

صفة القدم ودليلها

والقدم الواجب له تعالى فمعناه : عدم افتتاح الوجود ، أي : أنه ليس لوجود ذاته تعالى ولا لوجود صفاته الذاتية افتتاح.

وضده الحدوث: أي افتتاح الوجود .

والدليل على وجوب القدم له تعالى ولصفاته واستحالة الحدوث :

عقلا: أنه لو لم يكن قديما لكان حادثا فلا بد له من محدث وهكذا فيدور الأمر أو يتسلسل وذلك باطل ، أو يقال : إذا ثبت حدوث العالم وأنه لا بد له من محدث فلا يكون المحدث مستحيلا بداهة ولا جائزا ، لأنه لا يملك الوجود لنفسه فلا يفيضه على غيره ، فتعين أن يكون واجب الوجود ، وهو معنى القدم ، ولو لم تكن صفاته تعالى قديمة لكانت حادثة، وحدوثها باطل لما يلزم عليه من حدوث ذاته تعالى، لأن كل ما لا تتحقق ذاته بدون الحادث فهو حادث ، وقد سبق قدمه تعالى .

ونقلا: قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ (الحديد/ ٣) وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (الأنعام/ ١٠٢)

صفة البقاء ودليلها

و البقاء : فمعناه عدم اختتام الوجود .أي انه ليس لوجود ذاته ولا لوجود صفاته اختتام وانتهاء .

وضده (الفناء) : أي اختتام الوجود .

والدليل على وجوب البقاء له ولصفاته و استحالة ضده :

عقلا: أنه لو قبل الفناء لكان حادثا ، لأن القديم واجب الوجود لا يقبل الفناء أصلا ، ولو قبلت صفاته الفناء لكانت حادثة أيضا ، ويلزم منه حدوث ذاته أيضا، لان ملازم الحادث حادث، وقد ثبت أنه قديم .

ونقلا : قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ (الحديد/ ٣) وقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (القصص/ ٨٨) .

والمخالفة للحوادث: فمعناها أنه تعالى ليس مماثلا لشيء من الحوادث في الحدوث ولوازمه، في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

وضد المخالفة للحوادث :مماثلته لشيء منها.

والدليل عليها عقلا: أنه لو ماثل شيئا من الحوادث في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله لكان حادثا مثلها وهو باطل .

ونقلا: قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى/ ١١).

صفة قيامه بالنفس ودليلها

وقيامه بنفسه ، فمعناه : أنه لا يفتقر إلى محل أي ذات يقوم بها، ولا مرجح يرجح وجوده على عدمه مثلا .

وضده : احتياجه إلى ذات أو مرجح .

والدليل عليها عقلا: أنه لو احتاج إلى محل لكان صفة والصفة لا تتصف بالصفات وقد ثبت أنه يوصف بالقدرة والإرادة وغيرهما ولو كان محتاجا إلى مرجح لكان حادثا وهو باطل بدليل قدمه تعالى .

ونقلا: قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (العنكبوت/٦) وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (فاطر/١٥) .

وكما أنه تعالى غني عن المحل والمرجّح كذلك هو غني عن جميع وجوه الانتفاع وجميع الأغراض في أفعاله وأحكامه. نعم تنبني عليها حكم ومصالح ترجع إلى منفعة الخلق تفضلا وإحسانا منه لا إليه تعالى فلا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا وإنما أمرنا ونهانا لما يعود علينا على أنه هو الغني عن أن يصل إليه النفع منه فكيف لا يكون غنيا عنا ؟

وشواهد ذلك من الكتاب والسنة كثيرة : قال تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ (فصلت/٤٦) وقال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ (الإسراء/٧) وقال تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ ﴾ (العنكبوت/٦) إلى غير ذلك

ومن الأدلة العقلية في ذلك : أنه لو انتفع بطاعة عبيده لما خلق فيهم سواها، وإلا لكان عاجزا عن دفع ما يضره وهو محال .

والحاصل أنه غني عن جميع وجوه الانتفاع من جميع ما سواه وهو يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

صفة الوحدانية

و **الوحدانية** : فمعناها عدم التعدد وهي ثلاثة أقسام :

١ – **وحدانية في الذات** : بمعنى أن ذاته تعالى ليست مركبة من جزأين فأكثر وليس له نظير في ذاته تعالى .

٢- **ووحدانية في الصفات** : بمعنى أنه تعالى ليس له صفتان فأكثر من جنس واحد كقدرتين وإرادتين وعلمين وليس لغيره صفات كصفاته تعالى .

٣- **ووحدانية في الأفعال** : بمعنى أنه هو الخالق بالاختيار لكل ممكن يبرز إلى الوجود ذاتا كان أو صفة أو فعلا . قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الصافات/ ٩٦) لا يشاركه في ذلك شيء ما فالشمس والقمر والكواكب والماء والتراب والهواء والنار لا تأثير لها في شيء مما قارنها ولا تأثير للطعام في الشبع ولا للسكين في القطع ونحو ذلك ومن هذا القبيل الأفعال الاختيارية فإنها مخلوقة لله تعالى لا للعبد ، أوجدها سبحانه بقدرته عند مقارنة قدرة العبد لها لا بقدرة العبد فليس للعبد فيها تأثير فإنما له الكسب :

والكسب : وهو مقارنة القدرة الحادثة ومصاحبتها للمقدور عند القصد إليه فيخلق الله تعالى الفعل عند ذلك.

كما جرت العادة بإيجاده تعالى المسبب عند وجود السبب فيتراءى بحسب الظاهر أنه الفاعل كما يتراءى بحسب الظاهر أن النار هي المحرقة وحينئذ فالثواب بمحض فضله تعالى والعقاب بمحض عدله لا يسأل ربنا عما يفعل ونحن المسؤولون لأنه إنما يتصرف في ملكه .

إذا علمت هذا علمت أن الأفعال الاختيارية إنما هي أمارات شرعية على الثواب والعقاب يخلقها الله تعالى في عباده للدلالة على ما أراده لهم في الآخرة فكل عبد ميسر بفعله تعالى لما خُلق له.

فإن قيل: إذا كان هو الخالق لأفعال العباد لزم أنه هو القائم والقاعد والآكل والشارب إلى غير ذلك من المفاسد ؟

قلنا : هذا من الجهل والغباوة لأن المتصف بالشيء هو من قام به الشيء لا من أوجده ألا ترى أنه خالق للبياض والسواد وغيرهما قطعا ومع ذلك لا يتصف بأنه أبيض ولا أسود.

وضد الوحدانية هو : التعدد في شيء مما ذكر .

فجملة ما تقدم من الصفات ست:

الأولى : الصفة النفسية : وهي الوجود .

والصفات الخمس بعدها سلبية لأنها دلت على سلب أمور لا تليق بالباري سبحانه.

١) **فالقدم** : معناه سلب الحدوث .

٢) **والبقاء** : سلب الفناء .

٣) **والمخالفة للحوادث** : سلب المماثلة لها.

٤) **والقيام بالنفس** : سلب الافتقار إلى المحل والفاعل .

٥) **والوحدانية** : سلب التعدد في الذات وفي الصفات وفي الأفعال .

صفة القدرة

وأما القدرة: فهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة سواء كان ذلك الممكن كليا أو جزئيا جسما أو عرضا ، ويشمل ذلك ماله سبب كأفعالنا الاختيارية من حركات وسكنات عند وجود السبب وهو تعلق القدرة الحادثة بالمقدور على وجه المصاحبة وكالإحراق عند مماسة النار والشبع عند الأكل والري عند الشرب ويشمل أيضا ما لا سبب له كالسموات والأرض فلا تأثير لغيره تعالى في شيء مما تقدم .

وإنما قلنا : يتأتى بها ولم نقل : (لها) إشارة إلى أن التأثير للذات لا للقدرة ومن أسنده إلى القدرة حقيقة فقد كفر فقول بعض العامة : القدرة فعالة ، وانظر فعل القدرة ، إن كان ناشئا عن اعتقاد وقصد فهو كفر لما فيه من الإشراك كما يكفر من اعتقد أن النار هي المحرقة حقيقة وأن الخبز هو المشبع والسكين هي القاطعة مثلا وإلا فلا يكفر فالواجب أن نعتقد أن لله تعالى قدرة عامة التعلق بجميع الممكنات .

وضد صفة القدرة : العجز عن ممكن ما .

دليل صفة القدرة

والدليل على وجوب اتصافه تعالى بالقدرة وعلى أنها تتعلق بجميع الممكنات :

عقلا: أن هذا العالم كله حادث مسبوق بالعدم كما وضحناه سابقا وكل حادث لا بد له من صانع ضرورة ولا بد للصانع من قدرة يتأتى بها إيجاده وإعدامه إذ لا يتأتى تأثير بدون قدرة فلو لم يكن قادرا لكان عاجزا ولو كان عاجزا لما وجد شيء من هذا العالم فلزم اتصافه بالقدرة وأنه لو تعلقت قدرته تعالى ببعض الممكنات دون بعض ، لكانت حادثة لاحتياجها إلى مخصِّص كيف وقد تقدم أنها قديمة وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وهو باطل.

ونقلا: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت/ ٢٠) وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر/ ٤٤) . وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر/٣) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر/ ٤٩) .

وكذلك إجماع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبالجملة فالكل مستند إليه تعالى ابتداء من غير واسطة ، عقلا ونقلا وإجماعا.

صفة الإرادة

و الإرادة: فهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه دون بعض من الممكنات المتقابلات على وفق علمه تعالى فكل ما علم أنه يكون أو لا يكون فذلك مراده جل وعلا فلا يقع في ملكه تعالى إلا ما أراد .

وضدها :الكراهة.

دليل صفة الإرادة

والدليل على وجوب اتصافه تعالى بالإرادة وأنها عامة التعلق بجميع الممكنات واستحالة الكراهة عليه .

عقلا: أنه لو لم يكن مريدا لكان كارها، والكراهة نقص في حقه تعالى والإرادة كمال له والنقص في حقه تعالى محال ، وأيضا لو لم يكن مريدا مختارا لكان مقهورا مجبورا فلا يكون قادرا ، كيف وقد سبق البرهان على وجوب اتصافه تعالى بالقدرة وأنها عامة التعلق بجميع الممكنات وأيضا فقد خصص الحوادث ببعض الطرفين الجائزين على السواء وكل مخصص لا بد أن يكون مريدا مختارا ولو تعلقت ببعض الممكنات دون بعض لكانت حادثة لافتقارها إلى مخصص يخصصها بالبعض وقد تقدم دليل وجوب قدم صفاته تعالى وإلا لزم الترجيح بلا مرجح وهو باطل .

ونقلا :قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ (يونس/ ٩٩) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل/ ٤٠) ولا فرق بين المشيئة والإرادة.

وبالجملة فيجب أن نذعن ونقر بأن كل ما برز في ملك الله من العدم إلى الوجود فهو مخلوق مقدور لله وحده على وفق ما أراده تعالى أزلا ، فما شاء الله كان وما لم يشأ الله لم يكن وهو ولي التوفيق.

صفة العلم

والعلم : فهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالشيء على وجه الإحاطة به على ما هو به دون سبق خفاء . والمراد بالشيء ما يشمل الواجبات والمستحيلات و الجائزات كلياتها وجزئياتها إجمالا وتفصيلا. فيعلم تعالى بعلمه القديم ذاته وصفاته ويعلم (عدم) المستحيل -أي أن المستحيل عليه تعالى هو بمثابة (عدم)- كحدوثه تعالى وعجزه ووجود شريك له تعالى ، ويعلم الأشياء أزلا على ما هي عليه وكونها وجدت في الماضي أو موجودة في الحال أو توجد في الاستقبال .

وضد العلم: الجهل وما في معناه بمعلوم ما كالظن والشك والوهم والذهول والغفلة والنسيان والسهو .

دليل صفة العلم

والدليل على وجوب اتصافه تعالى بالعلم واستحالة الجهل عليه :

عقلا : أن الجهل صفة نقص في حقه تعالى والنقص في حقه تعالى محال يجب تنزيهه عنه فلزم اتصافه تعالى بصفات الكمال ومنها العلم. وأيضا فإنا نشاهد العالم على نمط بديع ونظام محكم مع ما يشتمل عليه من الأفعال المتقنة والأشكال المستحسنة وما في ذلك من دقائق الصنع والحكم والمنافع والمحاسن التي تعجز العقول عن الإحاطة بأسرارها و كل ما هو كذلك لا يكون إلا من صانع عالم حكيم بحكم الضرورة.

واعلم أن العلم عام التعلق لجميع المعلومات وليس مختصا ببعض دون بعض وإلا لزم الجهل والترجيح بلا مرجح وكلاهما باطل .

ونقلا : فإن شواهد وجوب اتصافه تعالى به في الكتاب والسنة لا تحصى كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (المجادلة/ ٧) وقوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك/ ١٤) وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ (التغابن/ ٤) .

صفة الحياة

والحياة: الواجبة له تعالى فهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته جل وعلا تصح لمن قامت به أن يتصف بالقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وهي لا تتعلق بشيء

وضدها : الموت .

دليل صفة الحياة

والدليل عليها:

عقلا: أن الحياة صفة كمال والموت صفة نقص وهو سبحانه وتعالى منزه عن جميع النقائص وواجب له الكمال فلزم اتصافه تعالى بالحياة ، وأيضا لو لم يتصف بالحياة لما صح اتصافه تعالى بالقدرة وغيرهما من باقي الصفات وقد ثبت وجوب اتصافه تعالى بها

ونقلا: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (غافر/ ٦٥) و قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان/ ٥٨) ونحو ذلك .

وكذا إجماع الأنبياء بل جميع العقلاء على وجوب اتصافه تعالى بالحياة .

صفة السمع ودليلها

والسمع : فهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بكل موجود على ما هو به على وجه الإحاطة .

وضده : الصمم .

والدليل على وجوب اتصافه تعالى بالسمع واستحالة ضده عليه:

عقلا: أن كل حي لا بد أن يكون قابلا لا تصافه بأحدهما السمع وضده، واتصافه بضده نقص في حقه تعالى فيلزم اتصافه بالسمع لأنه كمال في حقه تعالى .

ونقلا: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ (الشورى/ ١١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ (طه/ ٤٦) وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾ (مريم/ ٤٢) ونحو ذلك وقوله صلى الله عليه وسلم في ((الصحيح)) : (إربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا و إنما تدعون سميعا بصيرا) رواه البخاري .

وقد انعقد إجماع العقلاء على وجوب اتصافه تعالى بالسمع والبصر .

صفة البصر ودليلها

والبصر: فهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بكل موجود على ما هو به تعلقا غير تعلق العلم والسمع فهو تعالى يبصر جميع الموجودات قديمة كانت أو حادثة ذواتاً أو صفات.

وضده : العمى.

ودليلها -أي صفة البصر- عقلا ونقلا : ما تقدم في السمع.

صفة الكلام

والكلام : فهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق دلالة ، وقد سبق أنه تعالى مخالف للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله فليس كلامه تعالى بحرف ولا صوت ولا يوصف بتقديم ولا تأخير ولا يطرأ عليه سكوت ولا آفة تمنع منه كما في حال الطفولة والخرس ولا غير ذلك من صفات الحوادث وإلا كان حادثا كصفاتنا وقد سبق وجوب قدم ذاته وصفاته تعالى.

واعلم : أن كلامه تعالى صفة واحدة كسائر صفاته تعالى كما تقدم بيانه في الوحدانية إلا أنها تتنوع باعتبار تعلقاتها إلى أنواع لأنها:

إن تعلقت بطلب فعل الصلاة وإيتاء الزكاة مثلا كانت أمرا .

وإن تعلقت بطلب ترك الزنا وقتل النفس بغير حق والغيبة مثلا كانت نهيا .

وإن تعلقت بنحو أن موسى عليه السلام فعل كذا كانت خبرا .

وإن تعلقت بأن الطائع له الجنة كان وعدا .

وان تعلقت بأن العاصي له النار مثلا كانت وعيدا .

إلى غير ذلك من الأنواع .

وضده : البكم.

دليل صفة الكلام

ودليله :

عقلا: أن البكم نقص يستحيل عليه تعالى اتصافه به فلزم اتصافه بالكلام الذي هو صفة كمال له تعالى .

ونقلا: قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ ﴾ (النساء/ ١٦٤)

وقد تواتر النقل عن الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد انعقد إجماعهم وإجماع المسلمين جميعهم على أنه تعالى متكلم .

*** تنبيهات :**

التنبيه الأول : صفات المعاني : هذه الصفات السبع التي هي : القدرة ، والإرادة ، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام . تسمى صفات معان : لأنها موجودة في نفسها بحيث لو أزيل عنا الحجاب لرأيناها وقد تقدم أن صفة المعنى هي كل صفة موجودة في نفسها .

التنبيه الثاني: قد علمت مما سبق أن الصفات المذكورة ليست في التعلق سواء.

فالقدرة والإرادة إنما تتعلقان بالممكن . القدرة : على جهة التأثير . والإرادة على جهة التخصص . والعلم والكلام يتعلقان بالواجبات والمستحيلات والجائزات .

العلم : على وجه الإحاطة والانكشاف.

والكلام : على وجه الدلالة.

والسمع والبصر : يتعلقان بجميع الموجودات من الواجبات والجائزات على وجه الانكشاف .

والحياة : لا تتعلق بشي ، فإنها لا تطلب أمراً زائداً على القيام بالذات .

الصفات المعنوية : وأما كونه تعالى: قادرا ومريدا وعالما وحيا وسميعا وبصيرا ومتكلما ، فهي صفات معنوية: أي منسوبة إلى المعاني من حيث كون الاتصاف بها فرع الاتصاف بالمعاني في العقل لا في نفس الأمر فإن اتصاف الذات بكونه عالما لا يصح إلا إذا قام به العلم وهكذا.

الصفة الجائزة ودليلها

وأما الصفة الجائزة في حقه تعالى: ففعل كل ممكن أو تركه كخلق الذوات والصفات والأفعال الاضطرارية والاختيارية والرزق والإحياء والإماتة والهداية والإضلال والعقاب والإثابة وغير ذلك فالعقاب بمحض عدله والثواب بمحض فضله تعالى وترتيب الإثابة على الإيمان والطاعة والعقاب على الكفر والعصيان بمحض اختياره تعالى ولو عكس ذلك لكان صوابا وحسنا منه تعالى فلا يجب عليه سبحانه وتعالى فعل شيء من الممكنات ولا يستحيل عليه تعالى شيء منها.

والدليل على ذلك :

عقلا : أنه لو وجب عليه تعالى فعل شيء من الممكنات لصار الممكن واجبا ولو استحال عليه شيء منها لصار الممكن مستحيلا وهذا باطل كما لا يخفى .

ونقلا : قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص/٦٨) ونحو ذلك .

لقد اتضح لنا : أن الله سبحانه وتعالى واجب له الوجود أزلا وأبدا وأنه غني من كل ما سواه مفتقر إليه كل ماعداه ولا شريك له ولا تأثير لغيره من الإنس والجن والملائكة وغيرهم في شيء ما منزه عن كل ما أشعر بنقص من مرض أو سقم أوعي أو ذهول أو نعاس أو فتور أو احتياج لمعين أو مدبر أو صاحبة أو ولد أو عرش أو كرسي أو قلم أو دفتر أو جند أو كاتب أو حاسب بل كل المخلوقات قهر عظمته ممسكة بقدرته يدبر كل شيء ويعلم كل شيء ولا يشغله شيء عن شيء كان الله ولا شيء معه ولا يزال على ما هو عليه لا يتحول ولا يتبدل ولا يتغير بحال ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يس/ ٨٢/ ٨٣)

انتهى من ((التنوير)) بتصرف (صفحة١٠ – ٢٦).

* عرض وتحليل :

- صفات الذات الإلهية : صفات قديمة أزلية لم يزل موصوفا بها ولا يزال وليس حادثة بعد عدم ولا معدومة بعد حدوث .
- لا تشبه صفات المخلوقين
- لا يقال : إنها هو ولا يقال : إنها غيره .
- صفاته تعالى ليست متغايرة في نفسها .
- صفات أفعاله تعالى : هي التي سبقها وكان تعالى موجودا في الأزل قبلها ، كالخلق والرزق والإماتة والإحياء .

- مشيئته تعالى ومحبته ورضاه ورحمته وكراهيته وغضبه وسخطه وولايته وعداوته كلها راجعة إلى إرادته ، والإرادة صفة لذاته غير مخلوقة .

- المتصف بالشيء هو من قام به الشيء لا من أوجده ألا ترى أنه خالق للبياض والسواد وغيرهما ومع ذلك لا يتصف بأنه أبيض ولا أسود .

- اتفاق الأسماء في اللفظ بين الخالق والمخلوق تكون دائما مقرونة باختلاف المعنى :

فيقال : الله قديم .

ويقال أيضا : الشيء الفلاني قديم .

هنا اتفاق في اللفظ ولكن مع اختلاف في المعنى :

فالله تعالى : قديم لم يزل ، أي : من غير بدء ولا أول لوجوده .

والشيء الفلاني : قديم من حيث عدد السنين التي قضاها في الوجود بعد خلقه ، أو من حيث مقارنته بمُماثل مخلوق من جنسه ، ولا يقال له : قديم لم يزل .

والله تعالى : عالم لم يزل ، علمه ذاتي قديم .

والإنسان : عالم بعد جهل علمه محدث مكتسب ولا يزال جاهلا بالكثير من الأشياء مهما بلغ من العلم ، ولا يقال له : عالم لم يزل .

وهكذا في بقية الصفات .

لقد كان ولا يزال بحمد الله من نتائج هذا الإدراك الواضح في التمييز بين الاتفاق في الأسماء والاختلاف في معانيها بالنسبة للخالق جل شأنه ومخلوقاته عند الأشاعرة والماتريدية خاصة وكل القائلين بتنزيه الله عن مشابهة خلقه بوجه عام ، أن ظل المعتقدون بالتنزيه من أبعد الناس عن الشرك بالله المتمثل في مساواة الخالق بخلقه من خلال تشبيهه بهم كما هو الحال عند السلفيين وأسلافهم الحشوية.

فالفارق بين من ليس شبيه ولا مثل وبين المتشابهات من مخلوقاته قضية واضحة ومحسومة في ذهن الأشعري عقيدة بحيث لا يمكن معها تسلل الخلط والضبابية في هذا الجانب إلى عقله وسلوكه ، والأمر على العكس من ذلك عند السلفيين وأسلافهم الحشوية الذين يوزعون الاتهام بالشرك بالله على عباد الله ذات اليمين وذات الشمال

وهم من أقل الناس مناعة منه بسبب من تشبيههم الخالق بخلقه والعياذ بالله ذاتا وصفاتا وإن غمغموا بألفاظ غامضة، ليرضوا بها العوام ، مثل : (ليس كما يعقل) أو (كما يليق بذاته) وهي لا تنفي عنهم صفة التجسيم والتشبيه ومساواة الخالق بخلقه .

فالذي يعتقد لربه صورة ووجها زائدا على الذات وعينين وفما ولهوات وأضراس ويدين وأصابع وكفا وخنصرا وإبهاما وصدرا وفخذين وساقين ورجلين ويعتقد أنه يمُس ويُمَس ويتحرك ويسكن ويصعد وينزل ويتعب ويستلقي ويكشف عن ساقه. ويعتبر الأعضاء التي زعمها لله جوارح حقيقية كأعضاء المخلوق ولا يسمح بالمجاز أو التأويل أو التفويض فيها على الإطلاق ، ما الذي أبقاه بعد ذلك كله من تشبيه ربه بخلقه غير التحرج في مسألة العورة كما نقل عن بعض علماء الحشوية والعياذ بالله ، - حرجا وليس استحالة- وغير القول بعد كل صفة -كما تليق بذاته- أي ربما من حيث الضخامة والصغر ، وما الذي يحجزه من ثم عن الوقوع في مستنقع الشرك بالله وهو قد أعد لنفسه بهذه المعتقدات الفاسدة كل وسائل الشرك وأدواته ؟

والمفارقة المضحكة أنهم مع كل ذلك من أشد الناس تحذيرا من الشرك واتهاما لغيرهم به ولعل ذلك ناتج عن كون الفارق بين الخالق وخلقه لم يحسم عندهم من خلال هذا التشبيه الذي وصل إلى حد المماثلة والمساواة المطلقة بين الخالق والمخلوق والعياذ بالله.

ومن اعتقد لربه جهة تحصره ، وحدا يحجزه، وجسما يقله ، ومكانا يضمه ، ورجلا تنقله، وجوارح يتحرك بها ، ما الذي أبقاه لمشرك من خصوصية يتميز بها عن هذا النوع من الشرك الواضح .

الإيمان

يقول إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رضي الله عنه في كتاب ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) :

[إن قال قائل : ما الإيمان عندكم بالله تعالى ؟ قيل له : هو التصديق بالله . وعلى ذلك اجتماع أهل اللغة التي نزل بها القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ (إبراهيم/ ٤) . وقال تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء/ ٩٥) . فلما كان الإيمان في اللغة التي أنزل الله بها القرآن هو التصديق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (يوسف/ ١٧) . أي بمصدق لنا . وقالوا جميعا : (فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة) يريدون بصدق بذلك . فوجب أن يكون الإيمان هو ما كان عند أهل اللغة إيمانا : هو التصديق] انتهى من ((اللمع)) (صفحة١٢٢) .

ويقول العلامة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الأشعري عقيدةً المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله :

[والثاني من فرائض الله عز وجل على جميع العباد : الإيمان به والإقرار بكتبه ورسله وما جاء من عنده ، والتصديق بجميع ذلك بالقلب والإقرار به باللسان . وأن نعلم أن الإيمان بالله عز وجل هو : التصديق بالقلب ، بأن الله الواحد الفرد الصمد القديم الخالق العليم الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى/ ١١) . والدليل على أن الإيمان هو الإقرار بالقلب والتصديق : قوله عز وجل ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ (غافر/ ١٢) . أي تصدقوا . ويقال : فلان يؤمن بالله وبالبعث : أي يصدق بذلك ، وكذلك قولهم : فلان يؤمن بالشفاعة والقدر، وفلان لا يؤمن بذلك ، يعنى به : التصديق ، ونفي الإيمان به : التكذيب . وقد اتفق أهل اللغة قبل نزول القرآن وبعث الرسول عليه السلام : أن الإيمان في اللغة هو التصديق

دون سائر أفعال الجوارح والقلوب . والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه ، والوصف له بصفاته ، ونفي النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه] انتهى من ((الإنصاف)) (صفحة٢١ و٢٢) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥هـ رحمه الله تعالى :

[فإن قلت : قد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص –يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية– فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟ .

فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول ، فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه ، وفي دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده ، بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه ، بل يقال : يزيد بلحيته وسِمَنه. ولا يجوز أن يقال: الصلاة تزيد بالركوع والسجود ، بل تزيد بالآداب والسنن ، فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان.

فإن قلت : فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟.

فأقول : إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب ، وكشفنا الغطاء ، ارتفع الإشكال فنقول :

الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة وجوه :

الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر ، وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة في القلب ، تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي ، كالعقدة على الخيط مثلا .

ولا نستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان ، وكذلك النصراني والمبتدعة . وفيهم –أي اليهود والنصارى والمبتدعة– من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقدة –عقيدته–

كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم . وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضا ، والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ (التوبة/ ١٢٤) . وقال تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ (الفتح/ ٤) . وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى في بعض الأخبار : (الإيمان يزيد وينقص) أخرجه ابن عدي في «الكامل» وقال : باطل لأن فيه محمد بن أحمد بن حرب الملتحي ، يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجة موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء .

وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال ، حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك ، بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل ، كذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغيره أحس من قلبه بالتواضع عن إقدامه على الخدمة ، وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال فيؤكدها ويزيدها .

الإطلاق الثاني : أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وصححه .

وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر . وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه .

والإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة ، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكني أقول الأمر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه ، فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر

من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث ، وإن كان لا شك في واحد منها، فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها] ((الإحياء)) (الجزء الأول/ ١٤٣و١٤٤) .

وأردف حجة الإسلام قائلا : [وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق . وكيف ؟ وفي الأخبار : (أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان) وفي بعض المواضع في خبر آخر : (مثقال دينار) متفق عليه . فأي معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت ؟] ((الإحياء)) (جزء ١ صفحة١٤٤).

ويقول الإمام الحافظ : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الأشعري عقيدةً المتوفى سنة ٧٧١ هـ رحمه الله تعالى : [لفظ الإيمان باتفاق المسلمين لا يخرج عن أعمال القلب والجوارح وما تركب منهما ثم اختلفوا على مذاهب :

إنه تصديق بالقلب بما عُلِمَ مجيء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم به، ودعاؤه الخلق إليه، وحثه الأمة عليه، أي أن الإيمان هو (التصديق بالقلب) ولكن لقبوله شرط : وهو التلفظ بالشهادتين وعدم الإتيان بما هو مكفر] ((الطبقات)) (صفحة٨٧/ ١) .

وقال السبكي أيضا بعد أن ذكر الخلاف حول مسألة الإيمان : هل هو التصديق فقط؟ ، ومن ثم فإنه لا يزيد ولا ينقص أو هو التصديق والقول والعمل ؟ ومن ثم فإنه يزيد وينقص :

[أمر هذه المسالة مع عظم موقعها سهل راجع إلى التسمية ، فإن من يقول : الإيمان التصديق ، لا يعتبره ما لم يكن معه نطق إن أمكن ، ومتى حصل معه نطق فالسلف يسمونه إيمانا ، ويسمون المتصف به مؤمنا ، وإن ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ومسلما أيضا ، ويجعلون إيمانه صحيحا معتبرا ، وإن كان عاصيا بما فعل ، وبعض الأئمة منهم وإن قال : بتكفير من ترك بعض هذه الأربعة كالصلاة –فإن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يكفِّر بتركها ، وهو وجه لبعض أصحابنا– فلم يقل : بتكفير تارك الزكاة والصوم والحج .

والسلف لا يسلكون مسلك المعتزلة القائلين : بالمنزلة بين المنزلتين ، وأنه يخرج عن حد الإيمان ، ولا يدخل في حيز الكفران ، ولكنه عندهم عاصٍ ، أمره تحت المشيئة ، إن شاء الله عاقبه ، وإن شاء عفا عنه.

والقائلون بأن الإيمان التصديق موافقون على هذا ، فلم يكن بينهم من الاختلاف إلا ما لا عظيم تحته ، نعم الخلاف بينهم وبين المعتزلة والموافقين للسلف أمره خطر ، لأن المعتزلة وافقوا السلف في أن الإيمان : قول وعمل ونية ، ولكن أخرجوا العاصي من الإيمان والسلف لا يخرجونه] ((طبقات الشافعية)) (١/ ١٢٩) .

ثم قال تاج الدين السبكي بعد شرح طويل :

[وإلى مذهب السلف ذهب الإمام الشافعي ، ومالك ، وأحمد ، والبخاري ، وطوائف من أئمة المتقدمين والمتأخرين ، ومن الأشاعرة الشيخ أبو العباس القلانسي ، ومن محققيهم الأستاذ أبو منصور البغدادي ، والأستاذ أبو القاسم القشيري . وهؤلاء يصرحون بزيادة الإيمان ونقصانه إلا الشافعي ومالكا . أما الشافعي فلم يتحرر عنه فيهما نص ، ونقل جماعة ممن صنّف في مناقبه عنه أنه يقول : بأنه يزيد وينقص ، ولكن لم يثبت ذلك عندنا كثبوت بقية منصوصاته الموجودة في مذهبه .

وأما مالك فعنه القول بالزيادة والنقصان ، وعنه أنه لا يزيد ولا ينقص ، وهو عجيب ! واعتذر عنه بعضهم فقال : إنما توقف مالك عن القول بنقصان الإيمان خشية أن يتأول عليه موافقة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب .

وأقول قد يقال على مساق هذا : وإنما قال بالزيادة لأنه قد يتأول عليه من لا علم عنده أنه يقول : إيمان الصدِّيق رضي الله عنه مثل إيمان آحاد الناس ، فلا يكون في ذلك منه دليل على مذهب هؤلاء ، بل يكون قائلا بعدم التجزيء كما هو المنقول عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

وممن نُقِل عنه التصريح بالزيادة والنقصان ، وهما المعنّى بالتجزيء : السفيانان ، والأوزاعي ، ومعمر بن راشد ، وابن جريج ، والحسن –أي البصري– والنخعي ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وابن المبارك ، وعُزِيَ إلى ابن مسعود .

وأما من يقول : الإيمان التصديق ، كما هو رأي أبى حنيفة والأشعري رضي الله عنهما ، ويقول مع ذلك : إنه غير الإسلام ، فالمشهور من مذهبه أنه لا يقبل الزيادة والنقص .

وحاول قوم من أئمتنا القول بقبوله للزيادة والنقص مع قولهم بأنه التصديق . ليجمعوا بين كلام السلف والشيخ أبى الحسن –الأشعري– ، وليجمعوا بين مدلوله في اللغة والمشهور عن السلف ، فقالوا : قال السلف : إنه يتجزأ ، وما أنكروا أن يكون تصديقا ، وقال الشيخ أبو الحسن : إنه التصديق ، وما أنكر أن يصح تجزئة . فنحن نجمع بين الأمرين ، وعلى هذا من متكلمي الأشاعرة الآمدي ، فإنه صرّح في ((الأبكار)) في آخر المسألة بعدما قرر مذهب الشيخ أبي الحسن ، فقال : إن جميع ما عداه باطل . وهذا نصه :

(ومن فسّره –يعني الأيمان– بخصلة واحدة فانه يكون أيضا قابلا للزيادة والنقص على ما حققناه من قبل) .

وعليه أيضا من محدثي الأشاعرة وفقهائهم النووي رحمه الله ، سيد المتأخرين ، فانه قال في ((شرح مسلم)) ما نصه : (قال المحققون من أصحابنا –المتكلمين– : نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص ، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته ، وهي الأعمال ، ونقصانها.

وقالوا : وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة ، وأقاويل السلف ، وبين أصل وضعه في اللغة ، وما عليه المتكلمون . وهذا الذي قاله هؤلاء ، وإن كان ظاهرا حسنا ، فالأظهر –والله اعلم– أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم ، بحيث لا تعتريهم الشُبَه ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض ، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وان اختلفت عليهم الأحوال ، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك ، فهذا مما لا يمكن إنكاره ، ولا يشك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، لا يساويه تصديق آحاد الناس ، ولهذا قال البخاري في ((صحيحه)) : قال ابن أبي مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما فيهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل) انتهى كلام النووي .

وعليه أيضا من متكلمي الأشاعرة المتأخرين الشيخ صفي الدين الهندي ، فقد صرح في كتاب ((الزبدة)) بأن الحق أنه قابل للزيادة والنقصان مطلقا ، يعني سواء قلنا : إنه الطاعات كلها ، أم قلنا : إنه التصديق ، بل القول بقبوله للزيادة والنقص منصوص الشيخ أبى الحسن رضي الله عنه في كتاب ((الإبانة)) في الفصل الثابت منها عنه . الذي نقله الحافظ الكبير الثقة الثبت أبو القاسم ابن عساكر في كتاب ((تبيين كذب المفتري)) ، وهو الكتاب الذي يعتمد على نقلهِ الأشاعرة. ونصه : (وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) انتهى نص الشيخ أبى الحسن الثابت بنقل ابن عساكر .

فبان بهذا ووضح أن القائل بالتصديق لا ينكر التجزيء ، وأن من نسب النووي إلى خرق الإجماع ، حيث جمع بين القول بالتصديق والتجزيء فقد أخطأ ، وأن ما قاله النووي هو قول الأشعري نفسه :

وأقول : قد صرَّح بالزيادة والنقص من أصحاب الأشعري الذين يرون تبديع من خالفه ثلاثة: محدِّث ، ومتكلم ، وصوفي ، وهم : البيهقي ، والأستاذ أبو منصور البغدادي ، وأبو القاسم القشيري ، وهؤلاء من عُمَد الأشاعرة ، وهؤلاء وإن لم يصرحوا بأن الإيمان مع قبوله التجزيء هو التصديق ، فهو ظاهر كلامهم ، واتّباعهم لشيخهم . وقد صرّح به من جماعتهم : الآمدي ، والنووي ، والهندي ، وأشار إليه الغزالي ، وصرّح باختياره الشيخ الإمام الوالد . (أي تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي) رحمهم الله .

فإن قلت : لا ريب في أنه متى أمكن القول بالتجزيء ، مع القول بأنه التصديق، فهو الأظهر لاجتماع مدلول اللغة وقول السلف وقول الخلف عليه ، ولكن الشأن في إمكان ذلك ،وقول قائله : لا يشك عاقل في أن إيمان الصديق ليس كأيمان آحاد الناس حق ، ففرق بين إيمان ثبت ورسخ وصار لا يقبل تزلزلا ، وإيمان بخلافه ، لكن ذلك القدر الزائد على الاعتقاد الجازم ، من انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، والرسوخ الذي لا يعتريه شك إن كان داخلا في مسمى الإيمان لزمكم تكفير من لم يصل إليه . وإراقة دمه ، وهذا لا يقول به عاقل ، ولا كفّر أحد من لم ينته إلى درجة الصديق في الإيمان . بل اكتفى بالاعتقاد الجازم من الخلق ، وإن لم يصلوا إلى هذا الحد ، وإن لم يكن داخلا فهو خارج ،

وذلك القدر الذي حصل به الإيمان ، وعصمة الدم لم يقبل تجزئا ، فلاح بهذا أنه لا يشك عاقل في أن كثيرا من المؤمنين وصلوا إلى حقيقة الأيمان ، وما وصلوا إلى درجة الصديق رضي الله عنه .

قلت : هذا تشكيك قوي جدا ، وعنده يقف الذهن الصحيح ، ولعل الله يكشف لنا غطائه ، ويبين لنا وجه الصواب بجميل فضله ، وجزيل عطائه .

والذي كان منتهى قصدنا تبيين أن من قال بأنه –أي الأيمان– التصديق ، لا نجزم عليه القول بإنكار التجزيء ، ومخالفة السلف .

وما جزم بالقول بأن التصديق لا يقبل التجزيء ، وباح به ، ولم يكتمه إلا ابن حزم في كتابه ((الملل والنحل)) فقال : التصديق بالتوحيد والنبوَّة لا يمكن فيه زيادة ولا نقص البتة ، وأطال في ذلك ، ثم شنَّع بعد ذلك وقبله على الشيخ أبي الحسن الذي نزَّل كلام السلف أحسن تنزيل ، وردَّه إلى التحقيق بأدق سبيل ، وبيَّنا أنه –أي أبا الحسن الأشعري– مع قوله بأنه –أي الأيمان– التصديق ، يقول بالتجزيء الذي دل عليه قوله تعالى ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ (الفتح/ ٤) . وقوله تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ (المدثر : ٣١) وكثير من الآيات والأحاديث ، واعترفنا بعد ذلك كلِّه بصعوبة السؤال .

فإن قلت : صعوبة هذا السؤال معارضة بصعوبة قول السائل : لو لم يقبل التجزيء لساوى إيمان الصديق آحاد البشر ، وهذا في النفس منه حسيكة لا يغسل دَرَنَها إلا صافي الأذهان .

قلت : لا شك في أن هذا تهويلا عظيما ، ومعاذ الله أن يجسر مسلم على القول باستواء الإيمانين ، غير إنّا نقول لمن زعم أن الأيمان يزيد وينقص ، وأنه خصال كثيرة : أليس أن التصديق مقدَّم هذه الخصال ؟ إذا لم يختلف أهل الحل والعقد من المسلمين في أن الاعتقاد الجازم المقرون بالتلفظ بالشهادتين لا بد منه ، وإنما اختلفوا في انضمام قدر زائد إليه من بقية الطاعات ، فهذا التصديق الذي هو بعض الإيمان عندك ، وكله عند الآخرين هل

يزيد وينقص أو لا ؟ إن قلتم : لا ، وهو ما صرح به ابن حزم ، فالسؤال علينا وعليكم واحد ، إذ يقال : كيف يكون تصديق آحاد الناس مثل تصديق الصدِّيق ؟.

وإن قلتم : يزيد وينقص ، فقد اعترفتم بأن التصديق قابل للتجزئ ، وهو ما قاله الآمدي ، والنووي ، والهندي ، ومن ذكرناه ، فتعين القول به ، وأن يفوَّض أمر هذا الإشكال الذي اعُترِض به في طريقه إلى الباري سبحانه وتعالى ، ونضرع إليه في حلّه ، فبإرشاده وهديه تتضح المشكلات ، وهو المسؤول أن يوفقنا لجميع الطاعات . وما كان المقصود إلا تبيين تقارب مذهب الشيخ -أي أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه- والسلف ، مع رجوع الخلاف في الحقيقة لفظيا كما بيّناه ، وسهولة أمره في نفسه.

فإن قلت : هل زعم السلف أن كل طاعة إيمان ؟ .

قلت : هو ظاهر كلامهم ، ومن قالوا الإيمان يزيد وينقص ، وقال البخاري : باب أداء الخُمُس من الإيمان ، وذكر حديث وفد عبد القيس وكذلك اقتضاء كلامهم عند الكلام على حديث : (الإيمان بضع وسبعون شعبة)] انتهى من ((طبقات الشافعية)) (الجزء الأول : ١٣٠-١٣٥) .

وقال اللقاني في ((الجوهرة)) :

وفُسِرَ الإيمان بالتصديقِ والنطق فيه الخلف بالتحقيقِ
فقيل : شرطٌ كالعمل وقيل : بلْ شطرٌ والإسلام اشرحنَّ بالعملْ

* عرض وتحليل :

الإيمان : هو التصديق بالقلب ، وهو كما ورد في الحديث النبوي الشريف الذي رواه مسلم عن عمر رضي الله عنه : (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خير وشره) .

- والنطق باللسان : هو إقرار بالإيمان وإعلان عنه ، وكونه شرط في الإيمان فيه خلاف ، والأشاعرة يرونه شرطا إلا إذا منع من النطق به مانع شرعي .

- والعمل ثمرته وليس أصلا فيه

- والإيمان يزيد وينقص بأمرين :

١ - بزيادة الثمرة وهي العمل .

٢ - وبمداومة البحث والنظر والمتابعة في أدلة الإيمان من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وبحوث أهل العلم والمعرفة .

ومن واقع المشاهدة اليومية نجد أن المسلم مع تصديقه بقلبه وإقراره بلسانه يكون بالمثابرة على الأعمالَ الصالحة بمختلف صورها وأشكالها منور القلب والقالب بنور الإيمان، ويترقى العمل الصالح بإيمانه إلى مقامات اليقين التي تزيده نورا على نور ، حتى يصير من أهل الإحسان الذين يعبدون الله وكأنهم يرونه .

والمداومة في البحث والنظر في أدلة الإيمان المقرونة بالحرص على الأعمال الصالحة وسيلة من وسائل زيادة الإيمان .

والذي يداوم على الاستماع إلى علماء أعلام وهم يتحدثون في أدلة الإيمان ويفسرون معاني القرآن ويقدمون الدليل تلو الدليل على عظمة إعجازه وكنوزه المعرفية ، كالمرحوم الشيخ محمد متولي شعراوي ، وكأعلام العلماء المعاصرين مثل الدكتور أحمد الكبيسي ، والدكتور زغلول النجار ، والدكتور فائق صالح السامرائي أطال الله في أعمارهم ، وغيرهم من أهل العلْم المقرون بالتواضع والصدق والعمق والموضوعية ، يجد في قلبه دون ريب مزيدا من حلاوة الإيمان وقوة اليقين وفي عقله أجوبة مقنعة على ما يثار لديه أو من حوله من أسئلة وتساؤلات منطقية ومشروعة.

وعلى العكس من ذلك يكون حال من يستمع إلى المشبهة والمجسمة من أهل الوجوه المظلمة بالتطاول على الله ورسوله وصالحي عباده، حيث إما يقفل عائدا بالتمزق والحيرة والشك أو يبتليه الله بالتشبه بمن استمع إليهم حالا ومقالا، وفي ذلك من الشقاء والعياذ بالله ما لا مزيد عليه .

الرؤية

يقول إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ رضي الله عنه، في كتاب ((اللمع في الرد على الزيغ أهل والبدع)) :

[والدليل على أن الله تعالى يُرى بالأبصار قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ، ولا يجوز أن يكون معنى قوله ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ معتبرة -أي يمكن تفسيرها واعتبارها- كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار . ولا يجوز أن يعني -أي معنى كلمة ناظرَة- : متعطفة راحمة كما قال تعالى -في آيات أخرى- ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ (آل عمران/ ٧٧) أي لا يرحمهم ولا يتعطف عليهم ، لأن الباري لا يجوز أن يُتَعَطّفُ عليه . ولا يجوز أن يعني منتظرة ،لأن النظر إذا قرن بذكر الوجوه لم يكن معناه نظر القلب الذي هو انتظار .

كما إذا قرن النظر بذكر القلب لم يكن معناه نظر العين ، لأن القائل إذا قال : انظر بقلبك في هذا الأمر كان معناه نظر القلب ، وكذلك إذا قرن النظر بالوجه لم يكن معناه إلا نظر الوجه .

النظر بالوجه هو نظر الرؤية التي تكون بالعين التي في الوجه، فصح أن معنى قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة/ ٢٣) : رائية ، إذ لم يجز أن يعني شيئا من وجوه النظر الأخرى . وإذا كان النظر لا يخلو من وجوه أربع ، أي : نظر العين ونظر القلب ونظر الرحمة والعطف والنظر بمعنى الانتظار -وفسد منها ثلاثة أوجه وصح الوجه الرابع- وهو نظر العين التي في الوجه.

فإن قال قائل : أليس قد قال الله تعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ والظن لا يكون بالوجه فكذلك قوله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أراد نظر القلب ؟ قيل له : لأن الظن لا يكون بالوجه ولا يكون إلا بالقلب ، فلما قرن الظن بذكر الوجه كان معناه ظن القلب ، إذ لم يكن الظن إلا به ، فلو كان النظر لا يكون إلا بالقلب

لوجب إذا ذكره مع ذكر الوجه أن يرجع به إلى القلب ، فلما كان النظر قد يكون بالوجه وبغيره وجب إذا قرنه بذكر الوجه أن يريد به نظر الوجه ، كما أنه إذا قرنه بذكر القلب أن يريد به نظر القلب .

فإن قالوا : فما معنى قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾؟ قيل لهم: في الدنيا دون الآخرة ، لأن القرآن لا يتناقض ، فلما قال في آية أخرى : إنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ علمنا أن الوقت الذي قال فيه أنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فيه غير الوقت الذي أخبرنا أنها تنظر إليه فيه .

فإن قال قائل : ما أنكرتم أن يكون قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي إلى ثواب ربها ناظرة ؟ قيل له : ثواب الله تعالى غيره ، **ولا يجوز أن يعدل بالكلام عن الحقيقة إلى المجاز بغير حجة ولا دلالة .**

ألا ترى أن الله تعالى لما قال : (صلّوا لي واعبدوني) ، لم يجز أن يقول قائل : إنه –أي الله تعالى– عني بذلك غيره . ولو جاز هذا لجاز لزاعم أن يزعم أن قوله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أراد به أنها لا تدرك غيره الأبصار .

فإن قال : فإذا كان قوله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ يعنى في وقت دون وقت ، فما أنكرت أن يكون قولـه : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة/ ٢٥٥) . يعنى في وقت دون وقت ؟ قيل له : الفرق بينهما أنه قال لنا في آية أنه ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، وقال في آية أخرى : أن الوجوه تنظر إليه في وقت ولا تدركه في وقت ، ولم يقل لنا في آية : إن السِّنة والنوم تأخذانه وفي آية أخرى لا تأخذانه ، فيستعمل في وقتين ، وأيضا فإن النوم آفة تقوم بالنائم تزيل عنه العلم ، وليس الرؤية آفة تحل في المرئي ، فيجب منع الرؤية بمثل ما به وجب منع النوم .

فإن قالوا : لو جاز أن يُرى القديم سبحانه وليس كالمرئيات ، لجاز أن يُلمس ويُذاق ويُشم وليس كالمذوقات ولا كالملموسات ولا كالمشموات ، قيل له : ما الفرق بينكم

وبين من قال : لو جاز أن يكون القديم رائيا عالما قادرا حيا لا كالرائين العلماء القادرين الأحياء لجاز أن يكون لامسا ذائقا شامّا لا كاللامسين الذائقين الشامين ؟ فإن لم يجب هذا فما أنكرتم من أن لا يجب ما قلتموه ؟ .

فإن قال قائل : فهل شاهدتم مرئيا إلا جوهراً أو عرضا محدودا أو حالاً في محدود ؟

قيل له : لا ، ولم يكن المرئي مرئيا لأنه محدودٌ ولا لأنه حالّ في محدود ، ولا لأنه جوهر ، ولا لأنه عرض ، فلما لم يكن ذلك كذلك لم يجب القضاء بذلك على الغائب . كما يجب إذا لم نجد فاعلا إلا جسما ، ولا شيئا إلا جوهرا أو عرضا ، ولا عالما قادرا حيا إلا بعلم وحياة وقدرة محدثة ، أن يُقضىَ بذلك على الغائب ، إذ لم يكن الفاعلُ فاعلا لأنه جسم ، ولا الشي شيئا لأنه جوهر أو عرض] انتهى من ((اللمع)) (صفحة٦٣-٦٨) .

وقال القاضي أبو بكر بن محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدةً ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى :

[وأنه سبحانه يتجلى لعباده المؤمنين في المعاد ، فيرونه بالأبصار ، على ما نطق به القرآن في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ (القيامة/ ٢٢/ ٢٣). وتأكيده كذلك بقوله في الكافرين : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ (المطففين/ ١٥) . تخصيصا منه برؤيته للمؤمنين ، والتفرقة فيما بينهم وبين الكافرين ، وعلى ما وردت به السنن الصحيحة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أخبر به عن موسى عليه السلام في قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف/ ١٤٣) . ولولا علمه بجواز الرؤية بالأبصار لما أقدم على هذا السؤال] الإنصاف (صفحة٢٤) .

قال العلامة اللقاني في ((الجوهرة)) :

ومنه أن يُنْظَرَ بالأبصارِ لكن بلا كيف ولا انحصارِ
للمؤمنين إذ بجائزٍ عُلِقتْ هذا وللمختار دنيا ثبتتْ

* عرض وتحليل :

- رؤية الباري سبحانه تعالى جائزة للمسلم الموحد في عقيدة الأشاعرة في الآخرة وليس في الدنيا ، بلا كيف ، كما قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ وهذا القيد -أي نفي الكيف- لازم عند الأشاعرة المتمسكين بتنزيه الباري تعالى عن الشبه والجسمية والحد والجهة.

وفي قول أبي الحسن الأشعري رضي الله عن :

[ولا يجوز أن يعني منتظرة ،لأن النظر إذا قرن بذكر الوجوه لم يكن معناه نظر القلب الذي هو انتظار . كما إذا قرن النظر بذكر القلب لم يكن معناه نظر العين ، لأن القائل إذا قال : انظر بقلبك في هذا الأمر كان معناه نظر القلب ، وكذلك إذا قرن النظر بالوجه لم يكن معناه إلا نظر الوجه ، النظر بالوجه هو نظر الرؤية التي تكون بالعين التي في الوجه، فصح أن معنى قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ : رائية ، إذ لم يجز أن يعني شيئا من وجوه النظر الأخرى] ردٌّ على المعتزلة والأباضية في تفسيرهم النظر في الآية الكريمة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ بالانتظار والله اعلم .

القدر

يقول إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله :

[إن قال قائل : لِمَ زعمتم أن أكساب العباد مخلوقة لله تعالى ؟.

قيل له : قلنا ذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الصافات/ ٩٦) وقال ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة/ ١٧). فلما كان الجزاء واقعا على أعمالهم كان الخالق لأعمالهم .

فإن قال: أفليس الله تعالى قال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (الصافات/ ٩٥). وعني الأصنام التي نحتوها ، فما أنكرتم أن يكون قوله: ﴿ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أراد الأصنام التي عملوها ؟.

قيل له: خطأ ما ظننته ، لأن الأصنام منحوتة لهم في الحقيقة -أي نحتها غيرهم لهم من صناع الخشب وليس هم- فرجع الله تعالى بقوله : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ إليها.]

((اللمع)) (صفحة٦٩) .

وقلت : وإن اعتقد معتقد بنفي الجزاء على الفعل من الأساس ، فقد اعتقد العبثية وسلب الحكمة .

ثم قال إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، بعد حوار طويل مع المحاور المُفتَرض في هذه المسألة :

[ودليل آخر من القياس على خلق أفعال الناس : أن الدليل على خلق الله تعالى لحركة الاضطرار قائم -أي نفس الدليل- في حركة الاكتساب . وذلك أن حركة الاضطرار (مثل المرتعش من الفالج -الشلل- والمرتعد من الحمى على سبيل المثال : إن كان يدل على أن الله -هو الذي- خلقها وأحدثها -أي بعد عدم- فكذلك القصة في حركة الاكتساب (مثل الذهاب والمجيء والقيام والقعود الاختياري) -أي أن حركة الاكتساب أيضا حادثة بعد عدم- .

وإن كان الذي يدل على خلق –حركة الاضطرار– حاجتها إلى مكان وزمان –أي إلى مُخصِّص– فكذلك القصة في حركة الاكتساب . فلما كان كل دليل يستدل به على حركة الاضطرار –يؤكد أنها– مخلوقة لله تعالى ، يجب به –أي بنفس الدليل– القضاء على أن حركة الاكتساب مخلوقة لله تعالى ، وجب –التسليم– بخلق حركة الاكتساب ، بمثل ما وجب به خلق حركة الاضطرار] المصدر السابق (صفحة٧٤ ، ٧٥) .

فالعجز عن منع حركة الاضطرار هنا حادث مخلوق لله كما أن القدرة على حركة الاكتساب –أو الاختيار– حادثة ومخلوقة لله أيضا . والعلم من جهتنا بهذه الحقيقة الذي لا شك فيه هو علم اضطرار –أي وليس اختيار بين بدائل– وإذا كان الافتراق في حركة الضرورة وحركة الكسب لا يوجب افتراقهما في الحدث والكون بعد أن لم تكونا ، فكذلك لا يوجب الافتراق بين حركة الضرورة وحركة الكسب في الخلق –أي في كونهما مخلوقتين– .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه في موضع آخر من كتابه ((اللمع)) :

[إن قال قائل : حدثونا عن توأمين كانافي بريَّة فوقع بقلب أحدهما أن الله واحد : من ألقى ذلك في قلبه –أي من خلق ذلك في قلبه– .

قلنا له : الله تعالى .

فإن قال : أفحقٌ ما ألقاه بقلبه ؟

قيل له : نعم .

فإن قال : أفصَدَقَه –أي الله تعالى– فيما ألقاه بقلبه ؟

قيل له : صِدْقُ الله تعالى لا يكون إلا كلامه ، وما وقع بقلب الإنسان ليس بكلام الله تعالى فيقال : إن الله تعالى صَدَقَهُ فيه .

فإن قال : فإن الآخر وقع في قلبه إن الله ثالث ثلاثة ، من ألقى –أي من خلق– ذلك في قلبه ؟

قيل له : الله .

فإن قال : أفباطل ما ألقاه بقلبه ؟

قيل له : نعم .

فإن قال : أفصَدَقَهُ فيما ألقاه بقلبه أم كَذَبَهُ ؟

قيل له : خطأ أن يقال له : صَدَقَهُ فيه ، لأن صدْق الباري من صفات نفسه وهو كلامه ، وخطأ أن يقال : كَذَبَهُ فيه ، لأن الكذب لا يجوز على الباري تعالى ، لأنه مستحيل أن يكذب ، وليس يجب إذا خَلَقَ كذبا لغيره أو في قلب غيره أن يكون كاذبا ، كما لا يجب إذا خلق قدرة في غيره وإرادة في غيره وحركة في غيره أن يكون بذلك قادرا ومريدا ومتحركا –أي بما ينتج عن تلك القدرة والإرادة والحركة الحادثة– من الإنسان .

فإن قالوا –أي القدرية– لما سميتمونا قَدَرية ؟

قيل لهم : لأنكم تزعمون في أكسابكم أنكم تقدّرونها وتفعلونها مُقَدَّرَة لكم دون خالقكم ، والقَدَري هو من ينسب ذلك لنفسه ، كما أن الصائغ هو من يعترف بأنه يصوغ من دون أن يزعم أنه يصاغ له ، والنجار هو من يدعي أنه ينجر دون من يعترف أنه يُنجَر له ولا ينجر شيئا ، وكذلك القدَري من يدعي أنه يفعل أفعاله مقدرة له دون ربه ، ويزعم أن ربه لا يفعل من اكتسابه شيئا .

فإن قال : يلزمكم أن تكونوا قدَرية لأنكم تثبتون القدَر .

قيل لهم : نحن نثبت أن الله تعالى قدَّر أعمالنا وخلقها مقدّرة لنا ولا نثبت ذلك لأنفسنا فمن أثبت القدر لله تعالى وزعم أن الأفعال مقدّرة لربه لا يكون قدَريا ، كما أن من أثبت الصياغة والنجارة لغيره لا يكون صائغا ولا نجارا .] انتهى من ((اللمع)) (صفحة٩٠و٩١).

وقال إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه في **مسألة الاستطاعة** :

[إن قال قائل : لم قلتم إن الإنسان يستطيع باستطاعة هي غيره ؟.

قيل له: لأنه يكون تارة مستطيعا وتارة عاجزا ، كما يكون تارة عالما وتارة غير عالم ، وتارة متحركا ، وتارة غير متحرك ، فوجب أن يكون مستطيعا بمعنى هو غيره –أي بمعنى استطاعة هي غيره– ، وكما وجب أن يكون متحركا بمعنى هو غيره ، لأنه لو كان

مستطيعا بنفسه أو بمعنى يستحيل مفارقته له ، لم يوجد إلا وهو مستطيع ، فلما وجد مرة مستطيعا ومرة غير مستطيع صح وثبت أن استطاعته هي غيره .] ((اللمع)) (صفحة٩٢) .

قلت : وهذه القاعدة تسري على كل صفات المخلوق من قدرة وعلم وحياة وسمع وبصر كما فصَّل ذلك الأشعري رضي الله عنه ، وقد أطال الأشعري في ((اللمع)) الحوار وتقديم الدليل تلو الدليل حول مسألة (القدر) لأنها من المسائل التي أثيرت في عصره بشكل مؤثر على صفاء العقيدة بوجه عام من المعتزلة (القدرية) من جهة ومن الجبرية بشكل معاكس من جهة ثانية وكلا الطرفين كان بعيدا عن جادة الحق والصواب ،والحق ما هدى الله إليه إمام أهل السنة رضي الله عنه وأرضاه.

وقال الإمام الأشعري أيضا في ما صح وثبت من ((الإبانة)) :

[وأنه لا خالق إلا الله ، وأن أعمال العباد مخلوقة لله بقدرته ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ (الصافات : ٩٦) . وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئا ، وهم يُخلَقون ، كما قال : ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر/ ٣). وكما قال : ﴿ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ (الفرقان/ ٣). وكما قال سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ (النحل/ ١٧) وكما قال : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ ﴾ (الطور/ ٣٥) . وهذا كثير في كتاب الله] ((الإبانة)) (صفحة٣٦و٣٧) .

وقال القاضي أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني الأشعري عقيدةً المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى:

[ويجب أن نعلم أن العبد له كسب وليس مجبورا بل يكتسب لأفعاله من طاعة ومعصية ، لأنه تعالى قال ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ ﴾ (البقرة/ ٢٨٦) يعنى من ثواب وطاعة ﴿ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ (البقرة/ ٢٨٦) ، يعنى من عقاب معصية . وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم/ ٤١) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ (الشورى/ ٣٠). وقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا

مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾ (فاطر/ ٤٥) .

ويدل على صحة هذا أيضا : أن العاقل منا يفرِّق بين تحرك يده جبرا وسائر بدنه عند وقوع الحمى به أو الارتعاش ، وبين أن يحرك هو عضو من أعضائه قاصدا إلى ذلك باختياره ، فأفعال العباد هي لهم -كسبا- وهي خلق لله تعالى . فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق ، و ما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق ، وكما لا يقال الله تعالى إنه مكتسب ، كذلك لا يقال للعبد إنه خالق .

ويجب أن نعلم أن الاستطاعة للعبد تكون مع الفعل لا يجوّز تقديمها عليه ولا تأخيرها عنه ، كعلم الخلق وإدراكهم لا يجوز تقديم العلم على المعلوم ولا الإدراك على المدرك .

والدليل على ذلك: قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (الكهف/ ١٠١) . يعني قبولا عند الدعوة. يعنى : أنه لم يكن لهم استطاعة عند مقارنة الدعوة ، فيحصل معها القبول ، وأيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الكهف/ ٦٧) . وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (إبراهيم/ ٤٠) . فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكان يقول : قد جعلتك مقيما ، ولم يكن لسؤاله معنى . لأنه سأل في شيء قد أعطيه وهو قادر عليه . وأيضا قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة/ ٥) فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لم يكن للسؤال فيها معنى ، ولأن القدرة الحادثة لو تقدمت على الفعل لوجد الفعل بغير قدرة ، لأنها عَرَض ، والعَرَض لا يبقى ، ولا يصح أن يوجد بعد الفعل ، وأيضا لأنه يكون فاعلا من غير قدرة ، فلم يبق إلا أنها مع الفعل] ((الإنصاف)) (صفحة٤٣-٤٥).

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥ رحمه الله تعالى :

[إن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق الرب سبحانه وليست بكسب له ، وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه ، وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر من التعليق يعبر عنه بالاكتساب ، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ، إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ، ولم يكن الاختراع حاصلا بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها .

إن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه . فلا يجري في المُلك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته ، ومن الخيرّ والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد ، والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ (الأنبياء/ ٢٣) .

ويدل من النقل قول الأمة قاطبة : (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) وقول الله عز وجل : ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ (الرعد/ ٣١). وقوله تعالى : ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ (السجدة/ ١٣) .

ويدل عليه من جهة العقل : أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها ، وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجاري

على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري إرادته تعالى ، فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد مُلك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ، إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته. والمعصية هي الغالبة على الخلق، وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى ، وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة لله] انتهى من ((الإحياء)) (صفحة١٣٢) .

* عرض وتحليل :

- الله سبحانه وتعالى هو وحده مقدِّر الأعمال وخالقها ولا خالق أو مقدِّر غيره ، كما تثبت ذلك أدلة النقل والعقل ، فالأعمال للباري جلت قدرته تقديرا وخلقا وللعبد عملا واكتسابا إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

- وهو مريد بقدرته لكل حادث في سمائه وأرضه مما يتفرد سبحانه بالقدرة على إيجاده ، وما يجعله منه كسبا لعباده ، من خير وشر ، ونفع وضر ، وهدى وضلال ، وطاعة وعصيان ، لا يخرج حادث عن مشيئته . ولا يكون إلا بقضائه وإرادته

- والله وحده جلت قدرته هو الذي يوقع الجزاء على أعمال العباد قال تعالى ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة/ ١٧) .

إن وقوع الجزاء من الله جلت قدرته على أعمال العباد هو أكبر دليل على خلقه لهذه الأعمال .

لأنه إما أن يكون : هو خالق الأعمال والعبد هو الذي يعملها ويكون العبد بذلك كاسبا جزاء عمله ثوابا أو عقابا وهو الصحيح .

أو أن يكـون خالقهـا غـير الله فـلا معنـى لوقـوع الجـزاء منـه جلـت قدرتـه، لأن مـن يستطيع الخلق فقد استوى مع الخالق في القدرة ، وهو أمر فاسـد عقـلا ونقـلا ، تعـالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وإما أن يكون خالق الأعمال هو فاعلها نفسه في أي وقت يشاء وبغير إرادة الله جلت قدرته ، ومن يستطيع الخلق مستقلا عن الله لا بـد أن تكـون لـه قـدرة مسـاوية لقـدرة الله على الخلق والجزاء ، ولا معنى للجزاء من الله لمن يخلق فعلا بغير إرادته ، وهو أمر فاسـد أيضا عقلا ونقلا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وأما تجريد العمل من الجزاء فهو أمر يدل عـلى عبثيـة الخلـق وفقـد الـوازع وهـو أمـر مستحيل بكل أدلة العقل والنقل .

وحركة الفعل في المخلوقات على نوعين :

حركة إضطرار وحركة اكتساب .

وكـلا الحـركتين متماثلتـين في المقـدمات والنتـائج ، فحركـة الاكتسـاب كحركـة الاضطرار: حادثة بعد عدم ومحتاجة لمخصِّص من الزمان والمكان وكل حادث بعد عـدم مفتقر إلى محدث كما أن كل حادث بعد عدم يجوز فيه العدم بعد الحدوث.

إن التمييز بين خلق العمل ومباشرة العمل ضروري لفهم الأمر هنا ، فخلـق العمـل وتقديره لله جلت قدرّته ومباشرة العمل واكتسابه للمخلوق .

العدل

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رضي الله عنه :

[إن قال قائل : هل يقدر الله على لطف لو فعله بالكفار لآمنوا ؟

قيل له : نعم ، والدليل على أنه يقدر أن يفعل بالمؤمنين من عباده ما لو فعله بهم لبغوا في الأرض ، قال الله تعالى ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى/ ٢٧) . وقال : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يعني على الكفر ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزخرف/ ٣٢) . فلما كان تعالى قادرا على أن يفعل بالخلق ما لو فعله بهم كفروا ، كان قادرا أن يفعل بهم ما لو فعله بهم لآمنوا وأيضا فقد دللنا على أن في كون الاستطاعة كون الفعل ، فإذا كان قادرا على إقدارهم على الإيمان فهو قادر على أن يفعل ما لو فعله بهم لأمنوا.

فإن قال : فإذا لم يفعل بالكفار ما يؤمنون عنده فقد بخل عليهم ؟

قيل له : البخل أن لا يفعل الفاعل ما يجب عليه فعله ، فأما ما كان تفضلا فللمتفضل أن يتفضل به وله أن لا يتفضل به ، وما كان تفضلا لم يلحق البخل في أن لا يفعله الفاعل .

فإن قالوا : فإذا لم يفعل بهم ما يؤمنون عنده فهل أراد سفههم وكفرهم ؟

قيل له : نعم . وقد أوضحنا ذلك فيما أسلفنا من كلامنا .

ثم يقال لهم : إن كان الله تعالى إذا لم يفعل بهم ما يؤمنون عنده يجب أن يريد فسادهم فما أنكرتم من أنه إذا خلقهم هو يعلم أنهم يكفرون فقد أراد كفرهم ؟

فإن قالوا : مريد السفه سفيه .

قيل لهم : أليس خالق من يعلم أنه يكفر لا يكون سفيها بخلقه ولا يكون خلقه إياه سفها ؟ فما أنكرتم أن يكون الخالق إذا أراد سفههم لم يكن سفيها .

فإن قال قائل : هل لله تعالى أن يؤلم الأطفال في الآخرة ؟

قيل له : لله تعالى ذلك ، وهو عادل إن فعله . وكذلك -له أن يعاقب- على جرم متناهٍ بعقاب لا يتناهى ، -وله- تسخير الحيوان بعضهم لبعض ، والأنعام على بعضهم دون بعض ، وخلقه إياهم -أي الكفار- مع علمه بأنهم يكفرون كل ذلك عدل منه لا يقبح من الله لو ابتدأهم بالعذاب الأليم وأدامه ، ولا يقبح منه أن يعذب المؤمنين ويدخل الكافرين الجنان ، وإنما نقول أنه لا يفعل ذلك لأنه أخبرنا أنه يعاقب الكافرين ، وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره .

والدليل على أن كل ما فعله فله فعله : أنه المالك القاهر الذي ليس بمملوك لا فوقه مبيح ولا آمر ولا زاجر و لا حاضر ، ولا من رسم له الرسوم وحد له الحدود ، فإذا كان هذا هكذا لم يقبح منه شيء ، إذ كان الشيء إنما يقبح منا لأنا تجازونا ما حد -أي الله تعالى- ورسم لنا ، وأتينا ما لم نملك إتيانه ، فلما لم يكن الباري مملكا ولا تحت آمر لم يقبح منه شيء .

فإن قال : فإنما يقبح الكذب لأنه قبّحه .

قيل له : أجل، ولو حسّنه لكان حسنا ، ولو أمر به لم يكن عليه اعتراض .

فإن قالوا فجوزوا عليه أن يكذب كما جوزتم أن يأمر بالكذب .

قيل لهم : ليس كل ما جاز أن يأمر به جاز أن يوصف به ، ألا ترون أنه أمرنا أن نصلي ونخضع ونتحرك ، ولا يجوز عليه أن يصلي ويخضع ويتحرك ، لأن ذلك يستحيل عليه ، وكذلك لا يجوز عليه الكذب ليس لقبحه ، ولكن لأنه يستحيل عليه الكذب . ولا يجوز أن يوصف بالقدرة على أن يكذب كما لا يجوز أن يوصف بالقدرة على أن يتحرك ويجهل] انتهى من ((اللمع)) (صفحة١١٤-١١٧) .

وقال العلامة القاضي أبو بكر بن محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى :

[فإن قيل : أليس الله تعالى قد نهى عن الكفر والمعصية ؟.

قلنا : بلى قد نهى عن ذلك .

فإن قالوا : فلا يحسن أن يريد شيئا ويريد وجوده ثم ينهى عنه .

قلنا : الجواب من وجهين :

أحدهما : أن يقال لهم : أليس الله تعالى قد علم أن الكافر يكفر وأنه يوجد منه الكفر لا محالة ، فلا بد لهم من يقولوا : نعم ، فيقال لهم : فكيف نهاه عن أمر قد علم أنه يكون منه ولابد من وجوده ، فلما جاز أن ينهى مع علمه أنه لابد منه جاز أن ينهى عنه وأنه أراده . فاعلم ذلك .

وجواب آخر : وهو أن يقال لهم : أليس الله تعالى نهى عن إيلام الرسل والمؤمنين ، فلابد أن يقولوا : نعم ، فيقال لهم : -ومع ذلك- يوجد فيهم الألم من الأمراض والموت أم لا؟ فلا بد أن يقولوا : نعم . فيقال لهم : فإذا جاز أن ينهى عن إيلامهم ثم يريد ذلك ويحسن منه ، فكذلك في مسألتنا يريد وينهى حتى يثبت لنفسه كمال القدرة ونفاذ المشيئة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء/ ٢٣) . والجملة أن الأمر منا والنهي منا والفعل منا والإرادة منا إنما توصف تارة بكونها حسنة وتارة بكونها قبيحة إنما ذلك لمعنى وهو أن كل ما كان مخالفا لأمر الرب تعالى فهو قبيح ، وإن كانت صورته حسنة من حيث الحس والنظر والسمع ، وأن كل ما كان منا حسنا إنما كان ذلك لأنه موافق لأمر الرب تعالى ، لا من الصورة والحس ، فإذا صح هذا جئنا إلى أفعاله تعالى وإرادته وأمره ونهيه ، فوجدناه تعالى ليس فوقه آمر يأمره ولا ناهٍ ينهاه ، فصح أن جميع أفعاله وأمره ونهيه حسن على كل حال لا يتصف بغير ذلك] ((الإنصاف)) (صفحة١٦١و١٦٢) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رحمه الله تعالى :

[إن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق، خلافا للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، وهو محال على الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، ويدل على جواز ذلك وجوده ، فإن ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة .

فإن قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟.

فنقول لك: من زعم انه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ، إذ يقال : وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال وإن أُريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ يخرج عن المعاني المذكورة للواجب .

وأنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء ، بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء/ ٢٣) . وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله : (إن الأصلح واجب عليه – أي على الله –) في مسألة نعرضها عليه : وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين ، فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك –عند المعتزلي– .

فلو قال الصبي : يا ربِّ لمَ رفعت منزلته علي ؟.

فيقول : لأنه بلغ واجتهد في الطاعات .

ويقول الصبي : أنت امتّني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى ابلغ فاجتهد ، فقد عدلتَ عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلمَ فضّلته ؟.

فيقول الله تعالى : لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا –هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجل– وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون : يا رب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا امتّنا في الصبا فإنا رضينا بها دون منزلة الصبي المسلم ؟ فبماذا يجاب عن ذلك –أي في عقيدة المعتزلة– ؟ ، وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟.

فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليه أسباب العذاب كان ذلك قبيحا لا يليق بالحكمة ؟

قلنا : القبح ما لا يوافق الغرض حتى أنه يكون الشيء قبيحا عند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر ، حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ، ويستحسنه أعداؤه . فإن أُريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال ، إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبح ، كما لا يتصور منه التصرف في ملك الغير . وإن أُريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلِمَ قلتم : إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد شيء يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟.

ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته ، وهذا من أين يوجب عليه رعاية الأصلح ؟ وأما الحكيم منا يراعي الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى] ((إحياء علوم الدين)) (جزء١ صفحة١٣٣و١٣٤).

* عرض وتحليل :

- إن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه

- أن كل ما فعله الله فله فعله : إنه المالك القاهر الذي ليس بمملوك لا فوقه مبيح ولا آمر ولا زاجر و لا حاضر ، ولا من رسم له الرسوم وحد له الحدود ، فإذا كان هذا هكذا لم يقبح منه شيء .

- إن الشي إنما يقبح منا لأنا تجازونا ما حد -أي الله تعالى- ورسم لنا ، وأتينا ما لم نملك إتيانه ، فلما لم يكن الباري مملكا ولا تحت آمر لم يقبح منه شئ .

- يوصف الأمر والنهي والفعل والإرادة التي تصدر عنا بأنها تارة حسنة وتارة قبيحة لتعليل واحد فقط وهو أن ما وافق أمر الله ورضاه الله من ذلك فهو حسن، وما

نهى عنه جلت قدرته وكان سببا في سخطه فهو قبيح ، وليس لحسن في ذات الأمر والنهي والفعل والإرادة التي أو لقبح فيها ، وكل هذا ينطلق من القاعدة العقدية عند الأشاعرة أن ما رآه الشرع حسن فهو حسن وما رآه الشرع قبيح فهو قبيح .

- أنه تعالى ليس فوقه آمر يأمره ولا نهاه ينهاه فصح أن جميع أفعاله وأمره ونهيه حسن على كل حال ولا يتصف بغير ذلك .

والمسألة هنا في قضية العدل أن الأشاعرة رفضوا المقابلة في فعل الله تعالى بين العدل ونقيضه الظلم فكل ما يصدر عنه جل شأنه عدل .

ومن يخالفهم من بعض فرق الخوارج المعتزلة والزيدية : نقلوا مسألة العدل ونقيضه الظلم من فعل المخلوقين إلى أفعال الخالق جل شأنه فقالوا : إنه لا يظلم .

وعرفوا الظلم بأنه : [إنزال ضرر بأي مخلوق ، وليس لذلك الضرر أي نفع في الدنيا ولا في الآخرة ، وليس عقوبة على معصية سابقة] ((الزيدية)) : للسيد عبد الله بن محمد بن إسماعيل (صفحة٨) .

واعتبروا أن الظلم حسب تعريفهم هذا يستحيل على الله جلت قدرته ، حين عرَّفوا العدل بأنه : [الإيمان بأن الله تعالى لا يظلم ، ولا يكذب ، ولا يعبث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا] المصدر السابق (صفحة٨) .

ومسألة كون الله جلت قدرته لا يكذب ولا يعبث فهو أمر يتفق الأشاعرة معهم فيه ، لكن الأشاعرة هنا جمعوا في نفي الكذب والعبث عن الله تعالى بين أدلة النقل والعقل ولم يقتصروا على أدلة العقل فقط.

أما بالنسبة للظلم فإن الخلاف بيننا نحن الأشاعرة وبين بقية الفرق المشار إليها يتمحور حول التعريف ؛ لأن قيد المانع من وجود النفع في الدنيا وفي الآخرة مما سموه ظلما حسب تعريفهم : ينسف تعريفهم هذا من الأساس ، ويجعله تعريفا لا ينطبق على المُعرَّف ؛ لأنه من هو الذي يستطيع الجزم بأن الضرر الواقع من الخالق على المخلوق غير نافع لهذا المخلوق في مستقبل الأيام من الدنيا؟ فالمستقبل بالنسبة للمخلوق يعد في حكم

العدم بضره ونفعه ، وتفسير أمر بما يحدث في العدم أو تعريفه، يعد تفسيرا وتعريفا فاسدا من كل الوجوه .

أما بالنسبة لقيد مانع النفع في الآخرة، فمن هو الذي ذهب أو يمكن أن يذهب إلى الآخرة قبل موعدها أو من هو الذي انكشف له حجابها قبل موعدها حتى يجزم بأن هذا الضرر غير نافع في الآخرة لمن وقع عليه الضرر من الله تعالى .

وقيد آخر ذكروه الزيدية في شرحهم للعدل فقالوا:

[لذلك لا نعد الأمراض والآلام ظلما ، لأن الله يعوض عليها] ((الزيدية)) (صفحة٨).

والسؤال هنا : لماذا حصر العوض الأخروي من الله في الأمراض والآلام الحسية ونزع صفة الظلم عنها والاعتقاد بامتناع العوض عن بقية الأضرار والأوصاب الأخرى التي تقع من الخالق على المخلوق ، والذين سموها ظلما واعتبروه مستحيلا على الله جلت قدرته ، فهل هناك دليل من نقل أو عقل يحصر العوض الأخروي في الأمراض والآلام الحسية فقط؟

وقول الزيدية هنا قد يستدعي قائلا أن يقول : قدموا لنا الدليل على أن العوض يكون مساويا لحجم الضرر بكل دقة لنسميه عدلا . وهذا يستوجب أن يكون تحديد الضرر من طرفي القضية ، الضار والذي وقع عليه الضرر ، وبهذا يصبح المخلوق شريكا للخالق في التقدير وتحديد العوض .

لأن ربط انتفاء الظلم من الضرر بالعوض عليه وتسميته عدلا يلزم منه أن يكون العوض على قدر الضرر ، فالعوض الذي يقل عن الضرر يسمى بخسا وهو فروع من فروع الظلم ، والعوض بما يزيد عن الضرر إن تم اختيارا يسمى إسرافا وهو نوع من العبث وإن تم إجبارا سمي ظلما وهذه المرة مصدره الذي وقع عليه الضرر .

والأمر الثاني هنا : من الذي يملك تسمية فعلا من الأفعال ظلماً : الشرع أم العقل ؟

وإذا قلنا : بأن العقل وحده هو الذي يملك هذا الحق كما يعتقد الزيدية والمعتزلة، وقعنا في تناقض خطير قد لا نستطيع الخروج منه ، وذلك لأننا كنا باستخدام العقل

نسمي بعض أفعال المخلوقين عدلا وحرية شخصية ثم اعتبرناها ظلم يطاله العقاب بحكم الشرع ، وليس بحكم العقل .

ونذكر من ذلك على سبيل المثال :

قبل نزول آيات المواريث في القرآن الكريم كان صاحب التركة يستطيع أن يخص بتركته كلها وارثا واحدا ، زوجة محضية من زوجاته ، أو ابنا أو حفيدا أكثر قربا إلى قلبه من أبنائه وأحفاده على سبيل المثال أو ربما حرمهم جميعا وتصدق بذلك كله على عمل من الأعمال الخيرية ، وكان الناس لا يرون ذلك ظلما من واقع أن صاحب التركة تصرف فيما يملك بمطلق حريته ولم يتعد على غير حقه .

ثم بعد نزول آيات المواريث وتحديد الحصص لزوما حسب أحكام المواريث في الإسلام ، صار تخصيص أي وارث بأكثر من حصته ومن دون رضاء بقية الورثة ظلما بحكم الشرع وليس العقل ، يعاقب عليه الشرع ويبطله .

من كل هذا يتضح في اعتقادنا وجاهة موقف الأشاعرة من قضية العدل والظلم والله أعلم .

الوعد والوعيد

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري :

[إن قال قائل : خبرونا عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ (الأنفطار/ ١٤).

وعن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ (النساء/ ٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ (النساء/ ١٠) .

فالجواب عن ذلك : أن قوله تعالى ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا ... ﴾ يحتمل على أن يقع على جميع من يفعل ذلك ، ويحتمل أن يقع على بعض ، لأن لفظ (من) يقع في اللغة مرة على الكل ومرة على البعض ، فلما كانت صورة اللفظة ترد مرة ويراد بها البعض وترد

أخرى ويراد بها الكل ، لم يجز أن يقطَع على الكل بصورتها كما لا يُقطَع على البعض بصورتها ، وكذلك لا يُقضَى بقوله ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ... ﴾ على بعض ولا على كل ، إذا كان يقع تارة على الكل وتارة على البعض ، ولا جاز لزاعم أن يزعم أن الصورة إنما هي للكل حتى تأتي دلالة البعض –لأنه– لم يكن هذا الزاعم بزعمه هذا أولى ممن قال : صورة هذا القول توجب القضاء على البعض ، حتى تقوم دلالة الكل ، فلما تكافأ القائلان في قولها وجب أن يكون القولان جميعا ملغيين .

وقد قال زهير –بن أبي سلم– :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضَرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

وليس كل من لا يصانع كذلك .

وقال –أي زهير بن أبي سلمى– : ومن لا يظلم الناس يُظلَمِ ، أي وليس كل من لا يظلم الناس يُظلَم .

ويقول القائل : جاءني من أحببت ، وإنما يعني واحدا ، ويقول : جاءني التجار ، وإن لم يكن الكل –أي كل التجار– جاءه . وجاءني جيراني ، وإن لم يأت جميعهم . ويقول القائل : لقيني الفجار بما كرهت ، ولا يعني جميعهم ،فلما كانت هذه الألفاظ ترد مرة ويراد بها الكل ، وترد أخرى ويراد بها البعض ، لم يجز أن يقضي على الكل دون البعض وعلى البعض دون الكل إلا بدلالة . وأيضا فلو وجب القضاء بصورة هذه الآيات أن يقضى على عذاب كل فاجر، وآكل أموال اليتامى ظلما، وآكل أموال الناس بالباطل ، لوجب أن يقضى على أن كل الموحدين من أهل الصلاة في الجنة بظاهر قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النمل/ ٨٩). وبظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (آل عمران/ ١٦٩) . على أن كل مقتول في سبيل الله في الجنان يرزق فيها ، وبظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ (الزمر/ ٥٣) . على كل ذنب أذنبه حتى على الذنب الذي وقف عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأجمع المسلمون أنه لا يُغفَر وهو الشرك والكفر .

وليس قول من قال : إن الآيات في الوعيد عامة والآيات الأخرى –أي الخاصة بالوعد والتبشير– خاصة أولى –من شخص– قالب قلب القصة وجعل آيات الوعيد خاصة والآيات الأخرى –آيات الوعد– عامة .

وأيضا فلو وجب أن يُقضى بظواهر الآيات على أن يكون كل فاجر، وكل آكل أموال اليتامى ظلما في جهنم، لجاز أن يقضى بقول الله تعال : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الملك/٨/ ٩) . أن النار لا يدخلها إلا كافر ، وبظاهر قوله تعالى ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (الليل/ ١٤/ ١٥/ ١٦) . أن كل من يصلى النار كذلك . وبظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة/ ٤٤). أنه لا يترك الحكم بما أنزل الله إلا كافر ، فلما لم يلزم أن يدخل النار إلا كافر بهذه الآيات ، لم يلزم أن يكون كل فاجر في جهنم، وكل آكل أموال اليتامى ظلما، وكل من يأكل أموال الناس بالباطل، في النار –بمفهوم– للآيات التي تلوناها. والجواب : أن كل آية يعتلون بها في الوعيد كالجواب عن هذه الآيات . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا ﴾ يحتمل من يفعل ذلك مستحلا ويحتمل الجميع . وقوله ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ يحتمل البعض منهم وهم الكفار ، ويحتمل الجميع ، وكذلك الجواب عن كل آية في الوعيد] انتهى من ((اللمع)) (صفحة١٢٥–١٢٨) .

وقال العلامة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى :

[ويجب أن يُعلَم : أن الطاعة ليست بعلة الثواب ، ولا المعصية علة للعقاب ، ولا يجب شيء لأحد على الله تعالى ، بل الثواب وما أنعم به على العبد فضل منه ، والعقاب عدل منه ، ويجب على العبد ما أوجبه الله عليه ، ولا موجب ولا واجب على الله .

والحسن ما وافق الأمر من الفعل ، والقبيح ما وافق النهي من الفعل ، وليس الحسن حسنا من قبل الصورة ، ولا القبيح قبيحا من قبل الصورة .

والدليل على الفصل الأول : أنه لا واجب عليه لأحد من الخليقة ، وأن حقيقة الواجب ما استوجب، من وجب عليه الذم بتركه والرد ، تعالى الله عن الذم علوا كبيرا.

ويدل على صحة ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ (الروم/ ٤٥) . فاعلم أن ذلك بفضله لا بالعمل . وأيضا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ (النور/ ١٠)] ((الإنصاف)) (صفحة٤٦) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رحمه الله تعالى :

إن الله تعالى متفضل بالخلق و الاختراع و متطول بتكليف العباد و لم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه . و قالت المعتزلة : وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة للعباد و هو محال ، إذ هو الموجب و الآمر و الناهي . و كيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ و المراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل ، كما يقال : يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل : كما يقال : يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال : وجود المعلوم واجب إذ يؤدي عدمه إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا ، فان أراد الخصم -أي المعتزلي- بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرَّضه للضرر ، وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلّم ، إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم ، وإن أراد به معنى ثالثا فهو غيره مفهوم ، وقوله : (يجب لمصلحة العباد) كلام فاسد ، فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد ، لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فإما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرّضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهو العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب ، وأنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه -خلافا للمعتزلة- ولو لم يجز ذلك ،

لاستحال سؤال دفعه ، وقد سألوا ذلك فقالوا: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (البقرة/٢٨٦). ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بأن أبا جهل لا يصدّقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدّقه في جميع أقواله ، وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدّقه في أنه لا يصدّقه وهل هذا إلا محال وجوده] انتهى من ((الإحياء)) (جزء١ صفحة١٣٣) .

وقال الإمام الحافظ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٧٧١ هـ رحمه الله تعالى :

لله تعذيب المطيع ولو جرى ... ما كان من ظلم ولا عدوانِ
متصرفٌ في ملكهِ فله الذي ... يختار لكن جاد بالإحسانِ
فنفى العقابَ وقال : سوف أثيبهم ... فلهُ بذاك عليهم فضلانِ
هذا مقال الأشعري إمامنا ... وسواه مأثورٌ عن النعمانِ

ثم قال السبكي بعد ذلك : إن الرب تعالى له عندنا –أي عند الأشاعرة– أن يعذّب الطائعين ، ويثيب العاصين ، كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، لا حجر عليه في ملكه ، ولا داعي له إلى فعله ، وعندهم –أي المعتزلة– يجب تعذيب العاصي وإثابة المطيع وعلى العكس] ((الطبقات)) ، الجزء الثالث (صفحة٣٨٦) .

أي أن إنجاز الوعد للطائع بالثواب والوعيد للعاصي بالعقاب أمر واجب على الله في عقيدة المعتزلة ، تعالى الله عن أن يجب عليه شيء أو يجب منه شيء .

وقال الشيخ العلامة إبراهيم بن محمد الباجوري ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ١٢٧٧ هـ رحمه الله تعالى في ((شرحه على جوهرة التوحيد)) عند قول الناظم :

وخاذلٌ لمن أراد بُعدَهُ ... ومُنجزٌ لمن أراد وعدَهُ

[قوله : (وخاذل) من الخذلان ، ومعناه لغة : ترك النصرة والإعانة، وشرعا : خلق المعصية في العبد والداعي إليها ، أو خلق قدرة المعصية على الرأيين في التفريق –أي الرأي القائل بخلق المعصية أو خلق القدرة على المعصية– .

وقوله -أي الناظم- : (لمن أراد بعده) أي : الذي أراد بعده عن رضاه ومحبته كما تقدم نظيره .

قوله -أي الناظم- : (ومنجز لمن أراد وعده) أي : معطي للذي أراد به خيرا ما وعدَه به على لسان نبيه أو في كتابه ، فمفعول (أراد) محذوف ، و(وعده) مفعول (منجز) والمراد الموعود به ، وأشار المصنّف بذلك إلى أن وعد الله المؤمنين الجنة لا يتخلف شرعا قطعا ، لقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ (الروم/ ٦) ، (إن الله لا يخلف الميعاد) (الزمر/ ٢٠) . أي الوعد كما قاله بعض المفسرين ، فلو تخلف إعطاء الموعود به لزم الكذب والسفه والخُلف ، واللازم باطل فكذلك الملزوم ، فالخُلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه ، وهذا متفق عليه عند الأشاعرة والماتريدية ، وأما الوعيد فيجوز الخُلف فيه عند الأشاعرة -أي ويمتنع عند الماتريدية- . لأن الخُلف في الوعيد لا يعدُ نقصا بل يعد كرما يمتدح به ، كما يشير له قول الشاعر :

وإني وإن أوعدتُهُ أو وعدتُهُ لمخلفُ إيعادي ومنجز موعدي

وقد اعترض جواز تخلف الوعيد بلزوم مفاسد كثيرة :

منها الكذب في خبره تعالى ، وقد قام الإجماع على تنزه خبره تعالى عن الكذب .

ومنها : تبدُّل القول ، وقد قال تعال : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ .

ومنها : تجويز عدم خلود الكفار في النار ، وهو خلاف ما قامت عليه الأدلة القطعية من خلودهم فيها .

وقد أجيب عن الأول -أي دعوى الكذب- : بأن الكريم إذا أخبر بالوعيد فاللائق بكرمه أن يبني إخباره له به على المشيئة وإن لم يصرّح بها ، فإذا قال الكريم : لأعذبنَّ زيدا، فنيته إن شئت ، بخلاف الوعد فإن اللائق بكرمه أن يُبنى إخباره على الجزم . قال صلى الله عليه وآله وسلم : (من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجز له ، ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) .

وعن الثاني –أي عن القول الثاني وهو دعوى تبدُّل القول– : بأن الممنوع إنما هو تبدُّل القول في وعيد الكفار ، أو من لم يرد الله عنه عفوا ، فالآية أعني قوله ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ محمولة على ذلك .

وعن الثالث –أي عن القول الثالث وهو دعوى عدم خلود الكفار في النار– : بأن جواز تخلف الوعيد فيما إذا كان واردا فيما يجوز العفو عنه لا ينافي خلود الكفار في النار .

فإنه لا يجوز العفو عن الكفر . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهذه الآية مقيدة لقوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾

وذهبت الماتريدية إلى أنه يمتنع تخلف الوعيد كما يمتنع تخلف الوعد ، ولا يرد على ذلك أن الوعيد يتخلف في المؤمن المغفور له ، لأن الآيات الواردة بعموم الوعيد ، مخرج منها المؤمن المغفور له ، وأما غير المغفور له . فلا بد من نفوذ الوعيد فيه] انتهى من ((تحفة المريد)) (صفحة١٠١ – ١٠٢) .

* عرض وتحليل :

- لا واجب على الله تعالى لأحد من خلقه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ .

- يجوز له تعالى أن يكلف خلقه ما لا يطيقونه ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ .

- عقابه جل شأنه عدل ، وثوابه ونعمه فضل . ومن ثم فإن الطاعة ليست بعلة الثواب ولا المعصية علة العقاب . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ و (لا يدخل أحد الجنة بعمله) .

- لا يجوز الخلف في وعده تعالى لأنه منع جواز ذلك في قوله تعالى ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ (الروم/٦). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾ (آل عمران/ ٢٠).

- يجوز الخلف في الوعيد : لأن الكريم إذا أخبر بالوعيد فاللائق بكرمه أن يبني إخباره له به على المشيئة وإن لم يصرّح بها . أي كالقائل : لأعذبنَّ زيداً إن شئتُ .

يتمحور الخلاف بين الأشعرية من جهة والمعتزلة والأباضية والزيدية والشيعة الإمامية في مسألة الوعد والوعيد حول الوجوب ، حيث يعتقد المعتزلة والأباضية والزيدية والشيعة الإمامية بأنه يجب على الله إنجاز وعده بالثواب للمحسن ووعيده بالعقاب للعاصي واعتبروا ذلك من مقتضيات العدل ونفي الظلم عن الله تعالى . بينما يعتقد الأشاعرة أنه لا يجب على الله شي لعبده وأن إنجاز الوعد منه تعالى لعبده بمحض الفضل وليس بدافع الواجب ، وأن إنجاز وعيده يمكن أن يتم ويمكن الخلف فيه كرما وفضلا لأن الوعيد متعلق بالمشيئة .

ومنشأ هذا الخلاف يأتي في المقام الأول من الخلاف في مسألة جهة الاختصاص بتحديد الحسن والقبيح ، فبينما يرى المعتزلة والأباضية والزيدية والشيعة الإمامية أن جهة الاختصاص هي العقل يعتقد الأشاعرة بأن جهة الاختصاص هي الشرع. فالواجب هو ما أوجبه الشرع على من يقع عليه وليس العقل، وأحكام الشرع مصدرها الخالق جل شأنه وهي واقعة على عباده وليس هو محل وقوعها.

إن المُلكية المطلقة لله تعالى تؤدي إلى حق التصرف المطلق دون قيد ، والله هو المالك المطلق الذي لا قيد على تصرفه في ملكه بما تقتضيه إرادته وحكمته ، وأي قيد على التصرف المطلق يحد من المُلكية المطلقة .

يُفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ ، التي يمكن أن نقرأها أيضا ﴿ مَلِكِ يومِ الدين ﴾ وهاتين القراءتين تبين أن الله تعالى هو الملك المطلق يوم الدين -أي يوم الجزاء والحساب- وهو المالك المطلق ليوم الجزاء والحساب ولمن يقع

عليهم الجزاء والحساب . والصيغتان تؤكدان المُلكية المطلقة لأن الملك فقط -أي الحاكم- ليس بالضرورة أن يكون مالكا والمالك فقط ليس بالضرورة أن يكون ملكا ، ومن هنا انتفى الوجوب على الله في إنجاز الوعد والوعيد .

ثم أن الوجوب يتكون من : واجب ومتوجب عليه ، ومتوجب له ، وعقد إلزامي بين الطرفين وحَكَم يقرر صحة العقد وتنفيذه ، ومن هنا أيضا فإن الوجوب كما يعتقد الأشاعرة منتفيا في حق الله تعالى جملة وتفصيلا .

الحشر والمعاد

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الاشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رحمه الله تعالى ، مِن ضمنٍ ما صح عنه وثبت من كتاب ((الإبانة عن أصول الديانة)) :

قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها :

التمسك بكتاب ربنا -عز وجل- ، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقوله الإمام أحمد بن حنبل -نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون .

وجملة قولنا :

أنا نقرُّ بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، ورواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئا .

وأن الله -عز وجل- إله واحد ، لا إله إلا هو ، فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق .

وأن الجنة والنار حق .

وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور...] ((الإبانة)) (صفحة٣٤).

وقال أيضا رضي الله عنه : [ونؤمن بعذاب القبر ، والحوض ، وأن الميزان حق والصراط حق ، والبعث بعد الموت حق ، وأن الله يوقف العباد في الموقف ، ويحاسب المؤمنين ، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، ونسلم بالروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم] ((المصدر السابق)) (صفحة٣٩).

وقال العلامة القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدة ، والمتوفى سنة ٤٠٣ رحمه الله تعالى :

[ويجب أن يُعلم : أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر وسؤال مُنكر ونكير ، ورد الروح إلى الميت عند السؤال ، ونصب الصراط ، والميزان ، والحوضّ ، والشفاعة للعصاة من المؤمنين ، كل ذلك حق وصدق ويجب الإيمان والقطع به ، لأن جميع ذلك غير مستحيل في العقل] ((الإنصاف)) (صفحة٤٨) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رضي الله عنه :

[الحشر والنشر : وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب ، لأنه في العقل ممكن ، ومعناه : الإعادة بعد الإفناء ، وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء . قال الله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس/٧٨/ ٧٩). فاستدل بالابتداء على الإعادة . وقال عز وجل ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان/ ٢٨) . والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول .

سؤال منكر ونكير : وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن ، إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به يفهم الخطاب ، وذلك ممكن في نفسه ، ولا يدفع ما يشاهد من سكون أجزاء الميت ، وعدم سماعنا للسؤال له ، فإن النائم ساكن بظاهره ، ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ،

ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه .

عذاب القبر : ورد الشرع به ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (غافر/ ٤٦) . واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والسلف الصالح ، الاستعاذة من عذاب القبر ، وهو ممكن فيجب التصديق به ، ولا يمنع التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطير ، فإن المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها .

الميزان : وهو حق . قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (الأنبياء/ ٤٧) . وقال تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ (الأعراف/ ٨/ ٩) و(المؤمنون/ ١٠٢) الآية ، ووجهها أن الله يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب .

الصراط : وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أدقُّ من الشعرة ، وأحَدُّ من السيف . قال الله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الصافات/ ٢٣) . وهذا ممكن فيجب التصديق به ، فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط .

* عرض وتحليل :

- الإيمان بعذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ورد الروح إلى الميت عند السؤال . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، والحوض ، والميزان ، والصراط ، والبعث بعد الموت ، ووقوف العباد في الموقف ، وحساب المؤمن ، والشفاعة للعصاة من المؤمنين ، وخلود الكفار في النار ، وأن الجنة والنار حق وهما مخلوقتان لله لا تفنيان .

- ما يتعلق بأمور الآخرة تسمى السمعيات لأن الدليل فيها سمعيا من القرآن الكريم وما صح قطعا وليس ظنا من السنة المطهرة ، لأن الأشاعرة لا يجيزون قبول خبر الواحد في مسألة العقائد وليس كما هو الحال عند الحشوية .

وبينما ينكر المعتزلة عذاب القبر ويفسرونه والكثير من السمعيات الواردة في القرآن والسنة بتفسيرات عقلية .

وبينما يدخل الحشوية في تفصيلات معتمدة على أحاديث ضعيفة حول هذه السمعيات يسلّم الأشاعرة بالسمعيات كما وردت في كتاب الله وما صح قطعا من سنة رسول الله دون الدخول في تفاصيل معتمدة على الإسرائيليات أوعلى الأحاديث الواهية.

النبوة

قال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى :

[ويجب أن يُعلم : أنه يجوز لله تعالى إرسال الرسل وبعث الأنبياء ، خلافا لما تدعيه البراهمة .

ويجب أن يُعلم أن صدق مدعي النبوة لم يثبت بمجرد دعواه ، وإنما ثبت بالمعجزات ، وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء وتحديهم للأمم بالإتيان بمثل ذلك.

يبين لك ذلك : أن موسى عليه السلام جاء في زمن سحرة وسحر ، فتحداهم بقلب العصا حية ، فعلم المحققون منهم في السحر ، أن ذلك خارج عن قبيل السحر ، لعجزهم عن ذلك ، وخرقه لعادة السحر ، فسارعوا إلى الأيمان ، **وهذا يدل على فضل العلم من أي نوع كان** ، فإنه أول من سارع إلى الإيمان السحرة ، لعلمهم بالسحر ، فكان في علمهم ذلك –وإن كان باطلا– فضل كبير على غيرهم من قومهم ممن لا يعلم السحر .

وكذلك عيسى عليه السلام : جاء في زمان قوم طب ومداواة ، فأحيا الموتى ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، فأتى بما هو خارج عن قبيل الطب ، خارقا للعادة فيه ، لا يقدر عليه مخلوق .

وكذلك نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، جاء في وقت فصاحة وشعر وخطب ونظم ونثر ، فأتاهم بما هو خارج عن عاداتهم في النظم والنثر ، وهو أفصح وأجزل وأوجز ، وتحداهم بالإتيان بمثله ، فوجدوا ذلك خارجا عن نظمهم ونثرهم ، وخارقا لعادتهم ، فعجزوا عنه فسارع من هداه الله إلى الإيمان به ولله الحمد والمنة ، على الهداية والتوفيق .

ويجب أن يُعلم : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، مبعوث إلى كافة الخلق وأن شرعه لا يُنسخ ، بل هو ناسخ لجميع من خالفه من الملل .

والدليل على ذلك : ثبوت ، وصدق مقاله ، وقد أخبر بجميع ذلك .

واعلم أن أكبر معجزاته القرآن العربي ، وفيه وجوه إعجاز :

أحدهما : ما اختص به من الجزالة ، والنظم والفصاحة الخارجة عن أساليب الكلام ، وتحدى به فصحاء العرب بان يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن الإتيان بمثله ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة ، ولم يتأت لهم ذلك ثلاث وعشرين سنة .

ومن وجوه الإعجاز في القرآن : اشتماله على قصص الأولين ، وما كان من أخبار الماضيين ، مع القطع بأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان أمِّيّاً لا يكتب ولا يقرأ ، ولم يعهد منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم في جميع زمانه تعاطٍ لدراسة كتب ولا تعلّمها وقد نفى عنه سبحانه وتعالى ذلك بقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت/ ٤٨).

ومن وجوه الإعجاز أن اشتمال القرآن على ما لا يحصى من علم غيوب متعلقة بالمستقبل، ظاهر جلي ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الأعراف/ ١٢٨) . وقوله تعالى ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ (الفتح/ ٢٧) . ومثل قوله : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ (المجادلة/ ٢١) إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز في القرآن –وهي– كثيرا جدا .

وله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، آيات ومعجزات سوى القرآن : كانشقاق القمر ، واستنزال المطر ، وإزالة الضرر من الأمراض ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتسبيح الحصى في يده ، ونطق البهائم ، إلى غير ذلك من المعجزات والآيات الخارقة للعادة –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– ورزقنا شفاعته ، وحشرنا في زمرته .

ويجب أن يُعلم : أن نبوات الأنبياء صلوات الله عليهم لا تبطل ، ولا تنخرم ، بخروجهم عن الدنيا وانتقالهم إلى دار الآخرة ، بل حكمهم في حال خروجهم من الدنيا كحكمهم في حالة نومهم ، وحالة اشتغالهم ، إما بأكل أو شرب أو قضاء وطر .

والدليل عليه : أن حقيقة النبوة : لو كانت ثابتة لهم في حالة اشتغالهم بأداء الرسالة دون غيرها من الحالات ، لكانوا في غيرها من الأحوال غير موصوفين بذلك ، وقد غلط من نسب إلى مذهب المحققين من الموحدين إبطال نبوة الأنبياء عليهم السلام بخروجهم من دار الدنيا ، وليس ذلك بصحيح ، لأن مذهب المحققين ، أن الرسول ما استحق شرف الرسالة بتأدية الرسالة ، وإنما صار رسولا واستحق شرف الرسالة والنبوة بقول مرسله ، وهو الله تعالى : أنت رسولي ونبيي ، وقول الله تعالى قديم لا يزول ولا يتغير .

والدليل على صحة هذا أيضا : أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، سئل ، فقيل له : متى كنت نبيا ؟ فقال : (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين) فحاصل الجواب على هذا : أن شرف النبوة وكمال المنصب ثابت للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين الآن ، حسب ما كان ثابتا لهم في حال الحياة ، ولم ينثلم ولم ينتقص ، سواء نسخت شرائعهم أو لم تنسخ ، ومن راجع نفسه ولم يغالط حسه ، عرف وتحقق أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآن لم يخاطب –أي المعاصرين– شفاها ، ولا يأمرهم ولا يكلمهم من غير واسطة ، لكن حكم شريعته وصحة نبوته ثابت لم ينتقص ، لأجل خروجه من الدنيا ، ولم تزل مرتبته ، ولا انخرمت رسالته ، ولا بطلت معجزته ، فاعلم ذلك وتحققه] ((الإنصاف)) (صفحة٥٨–٦١).

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رحمه الله تعالى :

[الشهادة للرسل بالرسالة ، وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والأنس ، فنسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، وفضّله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول (لا إله إلا الله) ما لم تقترن بها شهادة الرسول ، وهو قولك (محمد رسول الله) ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ، وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سويا ذا روح وجسد، فيسألانه عن

التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ وهم فتانا القبر ، وسؤالهما أول فتنة بعد الموت .

وأن يؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء - الله- .

وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان ، وصفته في العِظَمِ أنه مثل طبقات السموات والأرض، توزن الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقا لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات في صّورة قبيحة في كفة الظلمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله .

وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأرق من الشعرة ، تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه ، فتهوي بهم إلى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار .

وأن يؤمن بالحوض المورود ، حوض محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، عرضه مسيرة شهر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء . فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر : وهو نهر في الجنة ، ويمكن الجمع بين تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾ بأنه نهر في الجنة كما قال بعض المفسرين وبأنه الذرية الكثيرة من ولد فاطمة رضي الله عنها لأن هذا المعنى هو سبب نزول الآيات الكريمة وبين من قال : إن معنى الكوثر هو الخير الكثير ، والعترة الطاهرة هم خير كثير دون شك أو جدال .

وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب ، وإلى مسامح فيه ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ، وهم المقربون، فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء

عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدعة عن السنة، ويسأل المسلمين عن الأعمال .

وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام ، حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى ، فلا يخلد في النار موحد .

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ، على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع، أُخرِج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن ، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الأيمان .

وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم ، وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم .

وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار ، فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة ، وفارق رهط الضلال وحزب البدعة . فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله على كل عبد مصطفى]
((الإحياء)) (ج ١ صفحة ١١٠-١١٢).

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أيضا :

[إنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام -خلافا للبراهمة- حيث قالوا : لا فائدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم ، لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة ، كما لا يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ، ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة .

إن الله سبحانه قد أرسل محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، خاتما للنبيين، وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ، وأيده بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، كانشقاق القمر ، وتسبيح الحصى ، وإنطاق العجماء ، وما تفجر بين أصابعه من الماء ، ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها -مع كافة العرب- القرآن العظيم ،

فإنهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهبه وقتله وإخراجه -كما أخبر الله عز وجل- عنهم ، ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين، مع كونه أمّيا غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح/ ٢٧) .

وكقوله ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ (الروم/ ١/ ٤) .

ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل : أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى ، فمهما كان مقرونا بتحدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينزل منزلة قوله : (صدقت) وذلك مثل القائل بين يدي الملك المدعي على رعيته : إنه رسول الملك إليهم ، فإنه مهما قال لذلك : إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله : (صدقت)] ((الإحياء)) (جزء ١ صفحة ١٣٥) .

وقال العلامة إبراهيم بن محمد الباجوري الأشعري عقيدة المتوفى سنة ١٢٧٧ هـ في شرح ((الجوهرة)) :

[وعرّفوا النبي بأنه إنسان ذكر حر من بني آدم سليم من منفر طبعا ، أُوحي إليه بشرع يعمل به وإن لم يؤمر بتبليغه ، وأما الرسول فيعرف بما ذكر لكن مع التقييد بقولنا (وأُمِر بتبليغه) فبينهما العموم والخصوص المطلق لأن كل رسول نبي ولا عكس ، وجعل بعضهم الرسول أعم] انتهى من ((تحفة المريد)) (صفحة٨) .

وقال العلامة الشيخ محمد أمين كردي الإربلي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ رحمه الله تعالى :

[هذا -أي النبوات- الجزء الثاني من جزأي الإيمان ، لأن الإيمان مركب من جزأين :

أحدهما : الإيمان بالله تعالى : وهو حديث النفس التابع للمعرفة بما يجب له تعالى وما يستحيل وما يجوز ، وقد تقدم بيان ذلك ، -أي التوحيد والصفات وغيرها- .

والثاني : الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام : وهو أيضا حديث نفس التابع للمعرفة بما يجب لهم وما يستحيل وما يجوز .

وحديث النفس : المراد به قبولها -أي النفس- وانقيادها لما عرفته ، بحيث لا يمنعها الكِبْرُ عن الإقرار به .

والرسول : هو إنسان ذكر حر بعثه الله سبحانه وتعالى إلى عبيده ليبلغهم عنه أحكامه التكليفية والوضعية .

والأحكام الوضعية : هي كون الشيء سببا أو شرطا أو مانعا أو صحيحا أو فاسد أو ما يتبعها من وعد ووعيد ونحو ذلك .

والنبي : هو من أُوحي إليه بشرع يعمل به سواء أمر بتبليغه أو لم يؤمر .

ورسالة الرسل : وهي لطف ورحمة من الله يخص بها من يشاء من عباده ، والنبوة ليست مكتسبة برياضات ولا مجاهدات ولا غير ذلك ، بل هي فضل منه -تعالى- وهبة تتضمن حكما ومصالح .

وطريق ثبوت -النبوة- هي المعجزة : وهي أمر خارق للعادة قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة على وفق الداعي ، كانفجار الماء من بين الأصابع وعدم إحراق النار ، وذلك أنها بمنزلة صريح التصديق القولي من الله تعالى لما جرت به العادة من أن الله تعالى يخلق عقبها -لدى الناس- العلم الضروري بصدق المدعي.

وإذا علمت أن إيماننا لا يتم إلا بمعرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم أي الأنبياء -عليهم السلام- فنقول :

يجب لهم عليهم السلام :

١ - **الصدق** : في كل ما يبلغونه عن المولى تبارك وتعالى ويستحيل عليهم ضده وهو (الكذب) في شيء من ذلك . والصدق : هو مطابقة الخبر لما في الواقع ونفس الأمر . والكذب : هو أن لا يكون الخبر مطابقا لما في نفس الأمر .

٢- **الأمانة** : وهي حفظ جميع الجوارح الظاهرة والباطنة من التلبس بمنهي عنه، نهي تحريم أو كراهة ولو خفيفة ، ويستحيل عليهم ضدها وهي (الخيانة) : وهي عكس الأمانة.

٣- **تبليغ ما أمروا بتبليغه للناس** : وأنهم لم يخفوا على الناس شيئا من ذلك لا عمدا ولا نسيانا ، على الوجه الذي أمروا به من كونه لعموم الناس أو لبعضهم ، ويستحيل عليهم ضد التبليغ وهو (الكتمان) .

٤- **الفطانة** : وهي التيقظ . ويستحيل عليهم ضدها وهي (الغفلة) والبلادة .

أذن : فالواجب لهم عليهم الصلاة والسلام أربعة :

الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

والمستحيل عليهم : أضدادها وهي أربعة :

الكذب والخيانة والكتمان والبلادة .

والجائز في حقهم عليهم الصلاة والسلام :

الأعراض البشرية : التي لا تنافي علو رتبتهم العلية مع الغنى عنها بالله تعالى : كالمرض والجوع والفقر والأكل والشرب والنوم إلا أنهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

*** الواجب علينا معرفته :**

ومما يجب علينا -معاشر المكلفين- معرفته :

أن نعرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفصيلا فيمن علم منهم تفصيلا ، وإجمالا في غيرهم .

فأما إجمالا فيجب علينا أن نعتقد أن لله تعالى رسلا وأنبياء ولا يجب التعرض لمعرفة أسمائهم وعددهم لقوله تعالى : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

وأما ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : كم الأنبياء ؟ فقال : (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا) فقلت : وكم الرسل ؟ فقال : (ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيرا) .

فلا يكفي في الاستدلال هنا لأن : **خبر الواحد على تقدير اتصافه بالصحة لا يفيد إلا الظن وهو لا يعتبر في الاعتقاديات بل في العمليات –أي : في الأعمال–.**

أما الواجب علينا معرفتهم تفصيلا فهم خمسة وعشرين :

آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، اسحق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، ذو الكفل ، داود ، سليمان ، الياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحي ، عيسى ، وسيد الكائنات محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

أما أولو العزم : فهم خمسة :

محمد ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، نوح ، (عليهم الصلاة والسلام) .

والعزم :هو زيادة الصبر في تحمل المشاق عن غيرهم ، وقد جمعهم بعضهم أولي العزم فقال :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العز فاعلمِ

ثبوت رسالة سيد الأنبياء والمرسلين وحبيب رب العالمين:

اعلم أنه قد علمّ بالضرورة ،أنه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ادّعى أن الله تعالى أرسله للعالمين بشيرا ونذيرا ، واستدل على صدقه في دعواه بمعجزات كثيرة ظهرت على يديه موافقة لدعواه ، ولم يقدر أحد على معارضته ، وكل من كان كذلك فهو رسول الله ، فلزم بالضرورة أن سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول الله قطعا –للناس كافة– .

واعلم أن معجزاته صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيرة جدا وأعظمها القرآن الشريف ، وذلك لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحدى العرب بأقصر سورة فعجزوا جميعا ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ . وما يجب علينا أن نعتقده أن الله تبارك وتعالى أرسل نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم رحمة للعالمين .

والعالَمين : هو كل ما سوى الله تعالى وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأن الله نسخ بشريعته كل الشرائع والأديان وأن من يبتغي دنيا غير دين الإسلام الذي جاء به سيدنا الأنام غير مقبول عند الله جملة وتفصيلا .

وأنه أفضل الخلق أجمعين ، إنسا وجنا وملكا وهذا مما اجمع عليه المسلمون ، وأن الشفاعة العظمى والكلام له في الموقف الأعظم دون جميع ما سوى الله ، وكذا ما اشتهر في سبق نبوته على الكل وأخذ الميثاق عليهم أن يتبعوه إن أدركوه ، وقد أجرى الله جميع المنافع الدينية الدنيوية لعباده على يديه صلى الله عليه وعلى آله وسلم] انتهى من ((تنوير القلوب)) (صفحة٢٦-٣٦) بتصرف .

* عرض وتحليل :

- يجوز لله تعالى إرسال الرسل وبعث الأنبياء .
- الشهادة للأنبياء بالبعث وللرسل منهم بالرسالة .
- أنهم جميعاً معصومون ومؤيدون بالمعجزات الباهرة .
- أن نبوات الأنبياء صلوات الله عليهم لا تبطل ، ولا تنخرم ، بخروجهم عن الدنيا وانتقالهم إلى دار الآخرة .
- أن الله سبحانه وتعالى بعث سيدنا محمداً النبي الأمي القرشي الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والأنس ، فنسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، وفضّله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول : (لا إله إلا الله) ما لم تقترن بها شهادة الرسول ،

وهو قولك : (محمد رسول الله) . وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ، وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت.

- وأن الله أيده بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ولا نبي بعده .

يتفق أهل القبلة جميعا في عقيدتهم حول النبوة وحول نبوة سيد الأولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله خاصة .

الشفاعة

الشفاعة : من السمعيات .

والسمعيات : هي الأمور التي لا يستقل العقل بمعرفتها بل لا تعرف إلا بالسمع من الكتاب والسنة.

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ في ما صح عنه من كتاب ((الإبانة)) :

[ويقال لهم –أي المعتزلة والخوارج بمختلف فرقهم الذين ينكرون الشفاعة بمفهومها الصحيح– : قد أجمع المسلمون ، أن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شفاعة .

فلمن الشفاعة ؟

هل هي عن المذنب المرتكب للكبائر ؟ أم للمؤمنين المخلصين ؟

فإن قالوا : للمذنبين ، المرتكبين للكبائر ، وافقوا ، أي : وافقوا بذلك المقصود ، والمفهوم الصحيح.

وإن قالوا : للمؤمنين المبشرين بالجنة الموعودين بها .

قيل لهم : فإذا كانوا موعودين بالجنة ، وبها مبشرين ، والله تعالى لا يخلف وعده . فما معنى الشفاعة؟

فإن قالوا : يشفع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الله تعالى في أن يزيدهم من فضله لا في أن يدخلهم الجنة .

قيل لهم : أوليس الله قد وعدهم ذلك ، فقال ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ (فاطر : ٣٠). والله تعالى لا يخلف وعده . فهل عندكم إن الله يخلف وعده ؛ تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

فالشفاعة المعقولة : هي في من استحق على خطاياه عقابا .

فإن سألوا : عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء/ ٢٨).

فالجواب عن ذلك : إلا لمن ارتضى أن يشفعوا له .

وقد روي : أن شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الكبائر ((سنن الترمذي)) (جزء٧صفحة١٥٧).

وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : أن المذنبين يخرجون من النار ((مسند أحمد)) (جزء ٣ صفحة ٢٠)] انتهى من ((الإبانة)) (صفحة١٥٩و١٦٠) بتصرف .

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٤٠٣هـ رحمه الله تعالى :

[واعلم أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على صحة الشفاعة منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأهل الكبائر من هذه الأمة .

واعلم أن المعتزلة انقسمت إلى فريقين :

١ – فقوم منهم أنكروا الشفاعة أصلا ورأسا ، وردوا الأخبار الصحيحة الواردة فيها، وما دل عليه القرآن من ذلك .

٢ –وقال الفريق الثاني –من المعتزلة– : إن للأنبياء شفاعة ، وللملائكة ، ولكن لثلاثة أقسام من المسلمين :

القسم الأول : أصحاب الصغائر الذين ليست لهم كبيرة من الذنوب .

والقسم الثاني : قوم عملوا الكبائر وتابوا منها وندموا عليها .

والقسم الثالث : قوم من المؤمنين لم يعملوا ذنبا أصلا .

فأما صاحب الكبيرة الذي مات من غير توبة فلا شفاعة له عندهم .

وكلا القولين باطل ، أي : قولي الفريقين من المعتزلة .

أما الفريق الأول من المعتزلة : فجحد صحة الأخبار الصحاح .

وأما الفريق الثاني : فذهب إلى محال من القول ، لأن الشفاعة عندهم فيمن لم يعمل كبيرة ، أو عمل وتاب ، ولا معنى لها ، لأنها تكون بمعنى أن الشافع يقول : يا رب لا تظلم عبادك ، فإنك قد وعدت أنك تغفر الصغائر مع اجتناب الكبائر ، وكذلك التائب من الكبيرة لا تظلمه ، فإنك قد وعدت بقبول التوبة ، والله أجل وأعلى من أن يُسأل ويُشفع إليه ألا يظلم ، فبطل قولهم .

وأما من لم يذنب أصلا ، فعلى خبث عقدهم -عقيدتهم- أنه قد وجب له على الله الثواب ، والجنة، والنعيم المقيم ، فما معنى هذه الشفاعة له ؟. فلم يبق إلا أنهم عاندوا الحق ، وضلوا السبيل ، واستحوذت عليهم وسوسة المردة والشياطين ، حتى ردوا القرآن والسنة وإجماع الأمة ، فنعوذ بالله منهم ومن خبث عقدهم .

فإن قال هذا الفريق الأخير منهم : تكون الشفاعة لمن ذكرنا من الثلاث الأقسام ، شفاعة في الثواب .

قلنا : وهذا ضلالٌ أيضا ، لأن القرآن إنما نطق بشفاعة الملائكة في وقاية المؤمنين شر ذنوبهم يوم القيامة ، ولم يذكر فيها زيادة الثواب ، وإنما أخبر عنهم يقولون ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (غافر/ ٩٠) . فصح أن الشفاعة في الذنوب والسيئات ، أن يغفر لها ويتجاوز عنها لا ما ذكرتم .

فأما الأدلة على صحة الشفاعة ، فقد ذكرناها من الكتاب والسنة لكن نجدد هاهنا طرفا منها :

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ (الإسراء/ ٧٩).

روي عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وجماعة من الصحابة لا يحصون عددا : أن

ذلك في الشفاعة ، ثم ذكروا ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخبار يطول شرحها . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) وهذا فيه الحجة على الفريقين ، أي : من فريقي المعتزلة ممن أنكر الشفاعة]

((الإنصاف)) (صفحة١٦٢-١٦٤) .

وذكر الإمام الباقلاني حديث : (لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي) الذي يحتج به الخوارج والمعتزلة والذي نسبوه إلى الحسن البصري وأنه لا تصح نسبته إليه ، ثم قال بعد كلام مسهب :

[فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (غافر/ ١٨) ؟ .

قلنا : معنى الظلم هنا الشرك والكفر الذي لا ينفع معه طاعة . كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (لقمان/ ١٣) . ولهذا لما نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (الأنعام/ ٨٢) حزن الصحابة رضي الله عنهم كذلك . حتى قال الصديق رضي الله عنه وأرضاه : يا رسول الله : وأينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (ليس هذا يا أبا بكر ، إنما الظلم الشرك هاهنا ، ألا ترى إلى قول لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ فدل أن لا شفاعة تنفع الكافر ، ولا حميم يدفع عنه ، والمؤمن بخلاف ذلك بحمد الله وإن كانت له سيئات فاعلم ذلك .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (الزخرف/ ٧٥) وقوله : ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ (فاطر/ ٣٦) . وقوله ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (النساء/ ٥٦). وقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المدثر/ ٤٨) ؟.

فالجواب أن نقول : أنتم -أي المعتزلة- وإخوانكم من الخوارج دأبكم أبدا أن تجعلوا آيات العذاب في أهل الأيمان والتوحيد ، وهي لأهل الكفر والضلال دون المؤمنين بحمد الله تعالى ، وهذه الآيات كلها في أهل الكفر ، والذي يدل على صحة هذا ما قدمناه من الأخبار الصحاح : (من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة) وغير ذلك من الأخبار الصحاح .

وأيضا فإن القرآن نطق بذلك : فإنه تعالى قال في أول هذه الآية : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المدثر/ ٤٢/ ٤٨).

فصح أن لا شفاعة لهم لأجل كفرهم ، وصاروا إلى النار ، وجدالهم لأجل كفرهم ، وصارت الآيات إلى آخرها حجة عليهم ، إلا أن الله تعالى أخبر أن ثم شفاعة ، وأنتم تقولون : أن لا شفاعة ، غير أنه تعالى أخبر أنها لا تنفع الكافرين ، فدل على أنها تنفع المؤمنين] ((الإنصاف)) (صفحة١٦٧و١٦٨) .

وقال العلامة إبراهيم بن محمد الباجوري ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ١٢٧٧ هـ رحمه الله تعالى في ((شرح الجوهرة)) عند شرحه لقول الناظم :

وواجبٌ شفاعةُ الْمُشَفَّعِ   محمدٍ مقدّما لا تمنعِ
وغيرهُ من مرتضى الأخيارِ   يشفعْ كما قد جاء في الأخبارِ

[قوله : (وواجب شفاعة المشفع) : أي وواجب سمعا عند أهل الحق شفاعة المشفَّع -بفتح الفاء- : وهو الذي تُقبل شفاعته . وأما بكسرها فهو الذي يقبل شفاعة غيره .

والشفاعة لغة : الوسيلة والطلب . وعرفا: سؤال الخير من الغير للغير . وشفاعة المولى : عبارة عن عفوه ، فإنه تعالى يشفع فيمن قال : لا إله إلا الله واثبت الرسالة للرسول الذي أُرسِل إليه ولم يعمل خيرا قط ، ليتفضل الله تعالى بعدم دخوله النار بلا شفاعة أحد .

وقوله : (محمد) بدل المشفَّع ، دَفعَ به إيهامه .

وقوله : (مقدما) أي حال كونه مقدما على غيره من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فهو الذي يفتح باب الشفاعة لغيره ، كما قال ابن العربي ، وفي الصحيحين : (أنا أول شافع وأول مُشفَّع) وفي كلام المصنف -أي ناظم «الجوهرة»- إشارة إلى واجبات ثلاث :

الأول : كونه صلى الله عليه وعلى آله وسلم شافعا .

والثاني : كونه مشفعا أي مقبول الشفاعة

والثالث : كونه مقدما على غيره .

فإنه حين يشتد الهول، ويتمنى الناس الانصراف ولو للنار ، يلهمون أن الأنبياء هم الواسطة بين الله وخلقه ، فيذهبون إلى آدم فيقولون له : أنت أبو البشر اشفع لنا . فيقول : لست لها لست لها ، نفسي نفسي ، لا أسال اليوم لغيرها ، ويعتذر بالأكل من الشجرة ، فيذهبون إلى نوح ويسألونه الشفاعة فيعتذر لهم ، وهكذا، وبين كل نبي ونبي ألف سنة . فلما يذهبون إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويسألونه الشفاعة فيقول : أنا لها أنا لها ، أمتي أمتي ، فيسجد تحت العرش ، فيُنادىَ من قِبَل الله : يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفَّع .

فيرفع رأسه ويشفع في فصل القضاء ، وحينئذ يفتح باب الشفاعة لغيره ، وهذه هي الشفاعة العظمى ، وهي مختصة به صلى الله عليه وآله وسلم قطعا ، وهي أول المقام المحمود المذكور في قوله تعالى ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ أي يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وآخر استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

وله صلى الله عليه آله وسلم شفاعات أخرى منها :

شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب

وشفاعته في عدم دخول النار لقوم استحقوا دخولها .

شفاعته في إخراج الموحدين من النار .

شفاعته في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها .

ومنها غير ذلك كما ذكره السيوطي وغيره.

قوله –أي الناظم– : (لا تمنع) : أي لا تعتقد امتناع شفاعته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في أهل الكبائر وغيرهم ، لا قبل دخولهم النار ولا بعده ، وقصد المصنِّف بذلك الرد على المعتزلة ومن وافقهم من الفرق الأخرى في إنكارهم شفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم في من استحق النار أن لا يدخلها وفي من دخلها أن يخرج منها –أي من الموحدين– .

وأما الشفاعة العظمى فلا ينكرونها ، أي المعتزلة، وغيرهم من بعض الفرق الأخرى كالأباضية، وكذا الشفاعة في زيادة الدرجات .

وحديث : (لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي) موضوع باتفاق .

وقوله –أي الناظم– : (وغيره من مرتضى الأخيار يشفع) بسكون العين للوزن : أي وغيره صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ممن ارتضاه الله من الأخيار كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين والأولياء يشفع في أرباب الكبائر على قدر مقامه عند الله تعالى.

وشفاعة الملائكة على الترتيب : فأولهم جبريل ، وآخرهم فيها التسعة عشر الذين على النار .

وقوله : (كما قدْ جاء في الأخبار) أي : للنص الذي قد جاء في الأخبار الدالة على ذلك كما اجمع عليه أهل السنة ، ولا يشفع أحد ممن ذكر إلا بعد انتهاء مدة المؤاخذة]
((تحفة المريد)) (صفحة١٨٦و١٨٧)

وقال العلامة الشيخ محمد أمين كردي الإربلي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ رحمه الله تعالى :

[ومما يجب اعتقاده : أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، يشفع للعباد يوم القيامة وانه تقبل شفاعته، وانه مقدم فيها على غيره من جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين . قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (أنا أول شافع وأول مشفع يوم

القيامة ولا فخر) أخرجه الترمذي وغيره ، وحديث الشفاعة متواتر بالمعنى] ((تنوير القلوب)) (صفحة٧٦) .

وأضاف العلامة محمد أمين كردي الأربلي رحمه الله قائلا :

[واعلم أن الشفاعة أنواع :

أولها : وأعظمها الشفاعة في فصل القضاء والإراحة من طول الموقف وهي مختصة به صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهي الشفاعة العظمى .

والثانية : الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب . قال النووي : وهي –أيضا– مختصة به صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

والثالثة : الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها .

والرابعة : فيمن دخل النار من الموحدين أن يخرج منها . ويشترك فيها صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله مع الأنبياء والملائكة والمؤمنين .

والخامسة : في زيادة الدرجات لأهل الجنة] . المصدر السابق . (صفحة٧٨ و ٧٩) .

* عرض وتحليل :

- الشفاعة لغة : الوسيلة والطلب . وعرفا: سؤال الخير من الغير للغير .

- أهل السنة والجماعة أجمعوا على صحة الشفاعة منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأهل الكبائر الموحدين من أمته .

- الشفاعة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي : شفاعته في فصل القضاء ، وفتح باب الشفاعة بعد ذلك لغيره ، وهي مختصة به صلى الله عليه وآله وسلم قطعا ، وهي أول المقام المحمود المذكور في قوله تعالى ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (٧٩) أي يحمدك فيه الأولون والآخرون .

- وله صلى الله عليه آله وسلم شفاعات أخر منها :

- شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب

- وشفاعته في عدم دخول النار لقوم استحقوا دخولها .

- وشفاعته في إخراج الموحدين من النار .
- وشفاعته في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها .
- ومنها غير ذلك .
- فهو صلى الله عليه وآله وسلم ، أول شافع ، وأول مشفع (أي : مقبول الشفاعة) ، وهو الذي يفتح باب الشفاعة لغيره .

وتنكر فرق الخوارج كافة ومنهم الأباضية وكذا المعتزلة والزيدية الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى طلب المغفرة لأهل الكبائر من أمته سواء من مات منهم بعد التوبة أو قبله ، لأن الخوارج يقولون : بكفر فاعل الكبيرة .

والأباضية يقولون بكفر من فعل كبيرة ولم يتب منها قبل موته .

والمعتزلة والزيدية يقولون : بأن فاعل الكبيرة في منزلة بين منزلتين ، وينفون الشفاعة في عدم دخول النار لقوم استحقوا دخولها والشفاعة في إخراج الموحدين من النار لقولهم: بوجوب إنجاز الوعد والوعيد.

وبعضهم مثل الأباضية وفريق من المعتزلة يقولون : بالشفاعة في فصل القضاء وفي زيادة الدرجات في الجنة لأهلها .

القرآن الكريم كلام الله القديم

قال إمام أهل السنة على بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رحمه الله تعالى [إن قال قائل : لم قلتم : إن الله تعالى لم يزل متكلما ؟ وأن كلام الله تعالى غير مخلوق ؟

قيل له : قلنا ذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل/ ٤٠) .

فلو كان القرآن مخلوقاً لكان الله تعالى قائلا له ﴿ كُن ﴾ والقرآن قوله ، ويستحيل أن يكون قوله مقولا له – أي يستحيل أن يكون القول مخلوقا بقول آخر –لأن هذا– أي

القول الثاني – يستوجب قولا ثانيا ، والقول الثاني يستوجب قولا ثانيا ، وهذا يقتضي ما لا نهاية له من الأقوال ، وهذا فاسد .

إذن فقد فسد الاعتقاد أن يكون القرآن مخلوقا : ولو جاز أن يقول الله تعالى لقوله : ﴿ كُن ﴾ لجاز أن يريد إرادته ، أي أن تسبق الإرادة إرادة وهكذا تسلسلا ودورا ، وذلك فاسد عندنا وعندهم ، أي : المعتزلة ، وإذا بطل هذا استحال أن يكون ، أي : القرآن مخلوقا] ((اللمع)) (صفحة٣٣ و٣٤) بتصرف .

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (شيخ الأشاعرة في عصره) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ رحمه الله تعالى :

[اعلم : أن الله تعالى متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم وليس بمخلوق، ولا مجعول، ولا محدث، بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات ، ولا يجوز أن يقال : كلام الله عبارة ولا حكاية، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق ولا يجوز أن يقول أحد لفظي بالقرآن مخلوق، ولا غير مخلوق، ولا أني أتكلم بكلام الله ، وهذه جملة أنا أفصلها واحداً واحداً إن شاء الله.

فأما الدليل على كون كلام الله قديماً غير مخلوق :

فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف/ ٥٤) . فصل بين الخلق والأمر ، فدل على أن الأمر غير مخلوق لأن كلامه أمر ونهي وخبر . وأيضا قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ (الأحزاب/ ٤) . ويدل عليه أيضا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل/ ٤٠) . ولو أن كلامه مخلوق لاحتاج في خلقه إلى قول يقول به ﴿ كُن ﴾ واحتاج القول إلى قول ثالث، والثالث إلى رابع ، إلى ما لا نهاية له، وهذا محال باطل، فثبت أن القول الذي تكون به الأشياء مخلوقة غير مخلوق، وهو كلامه القديم .

ويدل عليه من السنة : قوله صلى الله عليه وسلم : (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه) . فلما كان فضل الله على خلقه بقدمه ودوامه ، لأنه غير مخلوق وهم مخلوقون ، فكذلك القول في كلامه، فوجب أن يكون غير مخلوق، وكلامهم مخلوقا .

ويدل عليه أيضاً : أن أبا الدرداء لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القرآن فقال : (كلام الله غير مخلوق) :

ويدل عليه أيضاً : إجماع الصحابة، وهو أن علياً عليه السلام لما أنكر عليه الخوارج التحكيم وكفروه -أي بسبب التحكيم- قال بحضرة الصحابة : والله ما حكّمت مخلوقا، وإنما حكّمت القرآن ، ولم ينكر ذلك منكر، فدل على أنه إجماع .

ولأنه لو كان -أي القرآن- مخلوقا : لم يخلُ أن يكون خلقه في نفسه، أو في غيره ، أو في غير شيء.

ولا يجوز أن يكون مخلوقا في نفسه لأن ذاته لا تقوم بها المخلوقات والحوادث يتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ولا يجوز أن يكون خلَقَه في غيره، لأنه لو كان خلقه في غيره لكان ذلك الغير إلهاً، آمراً ، ناهياً قائلاً: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾ (النمل/٩) . وهذا محال باطل.

ولا يجوز أن يكونَ خلَقَه في غير شيء، لأنه يؤدى إلى وجود كلام من غير متكلم ، وهذا محال .

فإذا ثبت بطلان هذه الأقسام الثلاثة ، لم يبق إلا أنه :

(غير) مخلوق ، بل هو صفة من صفات ذاته، قديم بقدمه، موجود بوجوده، موصوف به، فيما لم يزل وفيما لا يزال ، ولا يجوز أن يباينه، ولا يزايله، ولا يحل في مخلوق، ولا يتصف بالحلول رأساً، فاعلم ذلك وتحققه.

فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الرعد/١٦) . وربما قرر عليك هذا السؤال والدليل، كما قرره بشر المريسى على عبد العزيز المكي وهو أنه قال له : أتقول إن

القرآن شيء أو ليس بشيء ؟ فقال : بل هو شيء . فقال -أي بشر- : يا أمير المؤمنين سلّم أن القرآن مخلوق، لأن الله تعالى قال : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الرعد/ ١٦) .

والجواب أن يقال في أول الأمر : أي شيء أردت بقولك إنه شيء ؟

[فإن أردت] أنه موجود ثابت فنعم ، وإن أردت بقولك إنه شيء كالأشياء من حيث خروجه من العدم إلى الوجود كالأشياء الموجودة بعد العدم فلا نقول ذلك .

والموجود الثابت لا يدل على أنه مخلوق مُحْدث ، فإن الله موجود ثابت دائم الوجود ليس بملخوق ، وأما الجواب على جملة ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الرعد/ ١٦) فالمراد به الخصوص دون العموم ، فإنه -أي فإن المراد بعض الشيء- قطعا ، وإنه -أي كلام الله القديم- غير داخل في ذلك . كما سمى نفسه تعالى فقال : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام/ ١٢) . ثم قال ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأنبياء/ ٣٥) ولا تدخل نفسه في ذلك . وإنما المراد به كل نفس منفوسة مخلوقة ، كذلك قوله : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الرعد/ ١٦). يعني مما يصح فيه الخلق والحدث ، وصفات ذاته قديمة وموجودة بوجوده ، فلم تدخل في ذلك ، ومثل هذا في القرآن كثير.

فإن الله تعالى قال فيما أخبر به داود وسليمان عليهما السلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمل/ ١٦) . ولم يؤتيا سماء ولا أرضا ولا شمسا ولا قمرا و لا جنة ولا نار ولا ملائكة ولا عرشا ولا غير ذلك ، وإنما أراد أوتينا من كل شي ينبغي لمثلنا ، وكذلك قوله في قصة بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمل/ ٢٢) . ومعلوم أنها لم تؤتَ النبوة ، ولا تسخير طير ، إلى غير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأحقاف) : إنما أراد به الخصوص دون العموم، لأنها ما دمرت هودا ، ولا السماء ، ولا الملائكة ولا الجبال إلى غير ذلك.] ((الإنصاف)) (صفحة٦٧-٧٠) .

وقال القاضي البلاقلاني أيضا :

[فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (الأنبياء/ ٢) . فوصفه بالحدث والحدث هو الخلق .

والجواب من ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن الآية حجة عليهم ، لأنها تدل على أن من الذكر ما ليس بمحدث ، لأنه لم يقل : ما يأتيهم من ذكر إلا كان محدثا ، فثبت أن من الذكر ما هو قديم ليس بمحدث ، فيجب أن يكون القرآن ، لأن الإجماع قد وقع على أن كل ذكر غيره مخلوق ، فلم يبق ذكر غير مخلوق غير كلامه سبحانه وتعالى .

الجواب الثاني : أن الذكر هاهنا يراد به وعظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم ، وتوعده لهم وتخويفه ، لأن وعظ الرسول يسمى ذكرا ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الغاشية/ ٢١) . ويقال : فلان في مجلس الذكر ، يعني في مجلس الوعظ .

والذي يحقق ذلك : أن قريشا لم تلعب عند سماع القرآن ، ولكنها كانت تفحم عند سماعه ، حتى قال عتبة : والله لقد سمعت كلاما ما هو بالشعر ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن عليه لطلاوة ، وإن له لحلاوة ، وفزعوا أيضا أن تفتتن عند سماعه نساؤهم وأولادهم ، حين كان يقرأ أبو بكر رضي الله عنه .

الجواب الثالث : أنه أراد ما يأتيهم من نهي محدث مجدد بعد نبي إلا استمعوه وهم يلعبون ، -قائلين- هل هذا إلا بشر .

فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (النساء/ ٤٧) . ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأحزاب/ ٣٨) . فالجواب : أنه تعالى أراد -بأمره- عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين ، وما حكم به وقدَّره من أفعاله ، وهذا بمنزلة قوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ (هود/ ٤٠) . يعني ما أمرنا به من زيادة الماء وإغراق الكافرين من

قوم نوح عليه السلام ، ولم يعنِ (قولنا) وكذلك أيضا قال : ﴿ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ ﴾ (هود/ ٩٧) يعني شأنه وأفعاله وطرائقه ولم يرد (قوله) .

فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ (الزخرف/ ٣) . والمجعول مخلوق، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ ﴾ (الأنبياء/ ٣٠) . أي خلقنا ، فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدهما : أن معنى ذلك : إنما سميناه قرآنا عربيا ، والجعل يكون بمعنى التسمية بدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ ﴾ (الحجر/ ٩١) . يعني سموه ، فبعضهم سماه شعرا ، وبعضهم سحرا ، وبعضهم كهانة ، إلى غير ذلك . ولم يرد أنهم خلقوه . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩ ﴾ (الزخرف/ ١٩) . يعني سموهم وحكموا عليهم بذلك . وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ (إبراهيم/ ٣٠) . يعني سموا . وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ ﴾ (المائدة/ ١٠٣) . وفي القرآن مثل ذلك كثير .

الجواب الثاني : أنه أراد : إنا جعلنا قراءته وتلاوته بلسان العرب ، وأفهمنا أحكامه . والمراد به باللسان العربي ، وتكون الفائدة في ذلك : الفرق بينه وبين التوراة والإنجيل ، لأنه جعل تلاوة الكتابين المذكورين وإفهام أحكامهما باللسان العبراني أو السرياني ، وجعل تلاوة هذا الكتاب وإفهام أحكامه والمراد به بلسان العرب ، ولو عرفوا -أي المعتزلة ومن سبقهم في القول بخلق القرآن أو من حذا حذوهم- الفرق بين التلاوة والمتلو لم يموهوا هذا التمويه .

الجواب الثالث : أن الجعل إذا عُدّي إلى مفعول واحد كان ظاهره الخلق ، وإذا عُدّي إلى مفعولين كان ظاهره الحكم والتسمية ، في أكثر الاستعمال . ولذلك لا يجوز أن يقول القائل : جعلت النجم والرجل ويسكت حتى يصله بقوله : جعلت النجم هاديا ودليلا ،

وجعلت الرجل صديقا وصاحبا . فلما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (الزخرف/ ٣) . تعدى إلى مفعولين ، فيكون بمعنى الحكم والتسمية .

فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل/ ١٠١) . وقالوا : ما يغير ويبدل فهو مخلوق لا محالة .

قلنا : هذا جهل منكم أيضا . وذلك أن التبديل والنسخ إنما يكون ويتصور في الرسم من خط أو تلاوة أو في الحكم . فيكون تقدير الكلام : وإذا بدلنا حكم آية أو تلاوة آية ، دون المتلو القديم ، الذي لا يتصور عليه تبديل ولا تغيير ، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى ، وأخبر أن كلامه القديم لا يغير ولا يبدل .

دليل الأول : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل/ ١٠١). يعنى حكم آية وتلاوتها .

ودليل الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام/ ٣٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام/ ١١٥) . فأخبر تعالى أن التبديل يتصور في أحكام كلامه وتلاوة كلامه ، دون كلامه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته ، ولو حققوا الفرق بين التلاوة والمتلو سلّموا وجميع من وافقهم .

فإن احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء/ ٨٦) . وقالوا : ما جاز عليه الذهاب والعدم فإنه مخلوق .

فالجواب عن هذا السؤال مثل الجواب المتقدم ؛ لأن الذهاب والعدم إنما يكون في الحفظ والرسم ، دون المحفوظ الذي هو كلام الله تعالى . ويدل على هذا : أن ابن مسعود رضي الله عنه لما قال : استكثروا من قراءة القرآن قبل أن يرفع ، فقيل له : كيف يرفع وقد حفظناه في صدورنا وأثبتناه في مصاحفنا ؟ . فقال : يُسرى عليه فيذهب حفظه من الصدور ، ورسمه من المصاحف ، وهذا صحيح ، لأن حفظ المخلوق مخلوق مثله ،

وحفظه مخلوق مثله ، فيتصور عليه الذهاب والعدم بالنسيان والمحو ، وأما المحفوظ والمكتوب الذي هو كلامه القديم ، فلا يتصور عليه ذلك ، فاعلم ذلك وتحققه .

فإن احتجوا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم) وقالوا : وما جاز أن ينتقل ويتحول ويسافر به فهو مخلوق؟

قلنا : كم هذا التمويه الذي تشبهون به على العوام وجهال الناس ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أراد بهذا الكلام حمل المصحف الذي فيه كلام الله مكتوب ، ولم يرد بذلك نفس كلامه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته ، وقد قرَنهُ صلى الله عليه وآله وسلم بما يدل على أن المراد به المصحف دون غيره ؛ ألا تراه قال : (مخافة أن تناله أيديهم) ومعلوم أن الذي تناله أيديهم إنما هو المصحف دون غيره ، وقد بين عليه السلام ذلك في حديث آخر ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض أصحابه : (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر) يريد بذلك الصحف التي يكتب فيها القرآن ، دون نفس القرآن الذي هو كلام الله تعالى ، لأنه صفة من صفات ذاته ، ولا يتصور على صفات ذاته اللمس ونيل الأذى.

فإن قالوا : أجمعنا على أن القرآن سور ، والسور آيات ، والآيات كلمات ، والكلمات حروف وأصوات ، وجميع ذلك يدل على كونه محدثا مخلوقا ؛ لأن السور معدودة محسوبة لها أول وآخِر ، وكذلك الآيات والحروف ، وما دخله الحصر والعد وكان له أول وآخِر فهو مخلوق ، وهذه الشبهة التي سخمت وجوه من وافقهم في مقالتهم هذه من أهل السنة الجهال بطرق التحقيق ، -يقصد بهم الحشوية- ومن لحق بهم حيث سلّموا لهم (أي للمعتزلة) مع زعمهم -أي الحشوية- أن كلامه ليس بمخلوق ، ما قرروه من هذه الشبهة ، وقالوا مثل قولهم : إن كلامه حروف وأصوات ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

والجواب عن هذه الشبهة : أن يقال لهم : أما ما ذكرتم من الحصر ، والتحديد والتبعيض ، والحروف والأصوات ، فجميع ذلك راجع إلى تلاوة المخلوقين دون كلام الله تعالى الذي هو صفة من صفات ذاته ، لأن جميع ما ذكرتم يحتاج إلى مخارج من لسان ، وشفتين ، وحلق ، والله يتعالى ويتنزه عن جميع ذلك . بل نقول : إن كلامه صفة له قديمة

لا يحتاج فيه إلى أداة من صوت ، أو حرف ، أو مخرج . يتعالى عن ذلك علوا كبيرا.] ((المصدر السابق)) (صفحة٧٠-٧٥) .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رضى الله عنه :

[الكلام : وأنه تعالى متكلم آمر ، ناهٍ ، متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزّلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرَض] ((الإحياء)) (جزء ١ صفحة١٠٩) .

وقال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٦٠٦ هـ رحمه الله تعالى :

[وكيف يُظن بأحمد بن حنبل وغيره من العلماء أن لا يعتقدوا أن وصف الله القديم القائم بذاته هو غير لفظ اللافظين ، ومداد الكاتبين ، مع أن وصف الله قديم ، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل ، وقد أخبر الله تعالى عن حدوثها في ثلاثة مواضع من كتابة :

أحدها : قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (الأنبياء/ ٢). جعل الآتي محدثا ، فمن زعم أنه قديم فقد رد على الله سبحانه وتعالى ، وإنما هذا الحادث دليل على القديم ، كما أنا إذا كتبنا اسم الله تعالى في ورقة لم يكن الرب القديم حالا في تلك الورقة ، فكذلك إذا كُتِب الوصف القديم في شيء لم يحل الوصف المكتوب حيث حلت الكتابة .

الموضع الثاني : قوله : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ ﴾ (الحاقة/ ٣٨/ ٤٠) . وقول الرسول صفة للرسول ، ووصف الحادث حادث يدل على الكلام القديم ، فمن زعم أن قول الرسول قديم فقد رد على رب العالمين ، ولم يقتصر سبحانه وتعالى على الإخبار بذلك حتى أقسم على ذلك بأتم الأقسام ، فقال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ ﴾ أي تشاهدون . ﴿ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ ﴾ أي ما لم تروه ، فاندرج في هذا القسم ذاته وصفاته ، وغير ذلك من مخلوقاته.

الموضع الثالث : قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ﴾ (التكوير/ ١٥/ ١٩) .

والعجب ممن يقول : القرآن مركب من حرف وصوت، ثم يزعم أنه في المصحف ، وليس في المصحف إلا حرف مجرد لا صوت معه ، إذ ليس فيه حرف مكتوب عن صوت ، فإن الحرف اللفظي ليس هو الشكل الكتابي ، ولذلك يدرك الحرف اللفظي بالآذان ولا يشاهد بالعيان ، ويشاهد الشكل الكتابي بالعيان ولا يسمع بالآذان ، ومن توقف في ذلك فلا يعد من العقلاء فضلا عن العلماء ، فلا أكثر الله في المسلمين من أهل البدع والأهواء ، والإضلال والإغواء .

ومن قال : بأن الوصف القديم حال في المصحف ، لزمه إذا احترق المصحف أن يقول بأن وصف الله القديم احترق ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، ومن شأن القديم أن لا يلحقه تغير ولا عدم ، فإن ذلك مناف للقدم .

فإن زعموا أن القرآن مكتوب في المصحف غير حال فيه ، كما يقوله الأشعري ، فلم يلعنون الأشعري رحمه الله ؟ وإن قالوا بخلاف ذلك ، ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠ ﴾ (النساء/ ٥٠) ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ ﴾ (الزمر/ ٦٠) .

و أما قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ ﴾ (الواقعة/ ٧٧/ ٧٨).

فلا خلاف بين أئمة العربية أنه لا بد من كلمة محذوفة يتعلق بها قوله ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ ﴾ ويجب القطع بأن ذلك المحذوف تقديره : (مكتوب في كتاب مكنون) لما ذكرناه ، وما دل عليه العقل الشاهد بالوحدانية و بصحة الرسالة ، وهو مناط التكليف بإجماع المسلمين ، وإنما لم يستدل بالعقل على القدم وكفى به شاهداً، لأنهم لا يسمعون شهادته، مع أن الشرع قد عدَّل العقل و قبل شهادته ، واستدل به –الباري جل شأنه– في مواضع من كتابه ، كالاستدلال بالإنشاء على الإعادة ، وكقوله تعالى : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ (الأنبياء : ٢٢) و قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ (المؤمنون : ٩١) و قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ (الأعراف : ١٨٥) .

فيا خيبة من رد شاهداً قبله الله ، و أسقط دليلاً نصبه الله . فهم يرجعون إلى المنقول ، فلذلك استدللنا بالمنقول و تركنا المعقول ، كميناً إن احتجنا إليه أبرزناه ، و إن لم نحتج إليه أخرناه ، وقد جاء في الحديث الصحيح : (من قرأ القرآن وأعربه كان له بكل حرف عشر حسنات ، ومن قرأه ولم يعربه فله بكل حرف منه حسنة) والقديم لا يكون معيبا باللحن وكاملا بالإعراب . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩ ﴾ (الصافات/ ٣٩) فإذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بأنا نُجزى على قراءة القرآن ، دل على أنه من أعمالنا ، وليست أعمالنا قديمة ، وإنما أُتيَ القوم من قِبَلِ جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وسخافة العقل وبلادة الذهن، فإن لفظ القرآن يطلق في الشرع واللسان على الوصف القديم، ويطلق على القراءة الحادثة، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ ﴾ (القيامة/ ١٧) أراد بقرآنه : قراءته ، إذ ليس للقرآن قرآن آخر ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾ (القيامة/ ١٨) . أي قراءته، فالقراءة غير المقروء، والقراءة

حادثة والمقروء قديم، كما أنا إذا ذكرنا الله عز وجل كان الذكر حادثا والمذكور قديماً، فهذه نبذة من مذهب الأشعري رحمه الله.

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذامِ

والكلام في مثل هذا يطول، ولولا ما وجب على العلماء من إعزاز الدين وإخمال المبتدعين، وما طولت به الحشوية ألسنهم في هذا الزمان، من الطعن في أعراض الموحدين، والإزراء على كلام المنزهين، لما أطلت النفس في مثل هذا مع إيضاحه.]انتهى من ((طبقات الشافعية)) (ج ٨ صفحة ٢٢٣ - ٢٢٧).

وقال العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري المصري، الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٦٦٠ هـ رحمه الله تعالى في ((شرحه على الجوهرة))، عند قولِ الناظم.

ونزِّهْ القرآنَ أي كلامهُ عن الحدوثِ واحذرِ انتقامهُ

[قوله: (ونزِّهْ القرآنِ ...) أي اعتقد أيها المُكلّف تنزه القرآن -بمعنى كلامه تعالى- عن الحدوث، خلافا للمعتزلة القائلين بحدوث الكلام، زعما منهم أن من لوازمه الحروف والأصوات، وذلك مستحيل عليه تعالى، فكلام الله تعالى عندهم مخلوق، لأن الله خلقه في بعض الأجرام، ومذهب أهل السنة: أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق، لكن يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق، ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم. لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق، ولذلك امتنعت الأئمة من القول بخلق القرآن، وقد وقع في ذلك امتحان كبير لخلق كثير من أهل السنة] ((تحفة المريد)) (صفحة ٩٣ و ٩٤)

ثم قال الشيخ الباجوري:

[قوله -أي ناظم الجوهرة-: (أي كلامه) تفسير للقرآن، فالمراد هنا كلامه تعالى، ولما كان الأكثر إطلاق القرآن على اللفظ المقروء، دفع توهم ذلك بتفسيره بكلامه تعالى، فالقرآن على كل من النفسي و اللفظي، و الأكثر إطلاقه على اللفظي، و أما كلام الله فيطلق أيضا على كل من النفسي و اللفظي، و الأكثر إطلاقه على النفسي.

قوله : (عن الحدوث) : أي الوجود بعد العدم ، فليس مخلوقاً بل هو صفة ذاته العلية ، خلافاً للمعتزلة، في قولهم بأنه مخلوق و ليس صفة ذاته العلية ، و إنما عبر بالحدوث مع أن المشهور بين القوم التعبير بالخلق لضرورة النظم ، أو للرد على محمد البلخي من المعتزلة القائل بأن كلام الله تعالى محدث و ليس بمخلوق ، زعما منه أن قولنا : مخلوق يوهم أنه كذب يتعالى الله عنه ، ورد بأن الحدوث مثل الخلق ، فهو -أي البلخي- كمن هرب من المطر ووقف تحت الميزاب.

قوله : (واحذر انتقامه) : أي خفِ انتقام الله منك إن قلت بحدوثه] انتهى من ((تحفة المريد)) (صفحة٩٤و٩٥) .

وقال العلامة محمد زاهد الكوثري المتوفى سنة ١٣٧١ هـ ، في تعليقاته على ((الإنصاف)) للباقلاني : [قال السعد -أي التفتازاني- في ((شرح المقاصد)) : انتظم من المقدمات القطعية والمشهورة قياسان :

ينتج أحدهما قدم كلام الله تعالى، وهو أنه من صفات الله وهي قديمة.

و -ينتج- الآخر حدوثه، وهو أنه من جنس الأصوات ، وهي حادثة.

فاضطر القوم إلى القدح في أحد القياسين .

ومنع بعض المقدمات ضرورة لامتناع حقِّية النقيضين .

فمنعت المعتزلة: كونه -أي القرآن- من صفات لله تعالى .

و-منعت- الكرامية : كون كل صفة قديمة، -أي قالت : بأن صفات الله حادثة تعالى عن ذلك- و-منعت- الأشاعرة : كونه -أي كلام الله القديم الذي هو صفة من صفات ذاته من جنس الأصوات والحروف.

و-منعت- الحشوية : كون المنتظم من الحروف -التي يكتب بها القرآن- حادثا.

ولا عبرة بكلام الكرامية والحشوية .

فتبقى النزاع بيننا -أي الأشاعرة- وبين المعتزلة.

وهو في التحقيق عائد إلى إثبات الكلام النفسي ونفيه، وأن القرآن هو –أي الكلام النفسي القديم الذي هو صفة من صفات الذات– أو هذا المؤلف من الحروف الذي هو كلام حسي أولا .

فلا نزاع لنا –أي الأشاعرة– في حدوث الكلام الحسي .

ولا –نزاع– لهم –أي المعتزلة– في قِدم –الكلام– النفسي لو ثبت . وعلى البحث والمناظرة في ثبوت الكلام النفسي وكونه هو القرآن ينبغي أن يحمل ما نقل من مناظرة أبي حنيفة و أبي يوسف ستة أشهر ثم استقر رأيهما على أن من قال بخلق القرآن فهو كافر. وهذا التحقيق هو مفتاح هذا البحث الطويل العريض. وقد أثبّت المصنف – أي الباقلاني – الكلام النفسي بكل ما جلاه في موضعه، وحدوث ما سواه مما في الأذهان والألسنة والخطوط جلي واضح عند أرباب العقول فوقع الحق وبطل ما كانوا يعلمون]

((الإنصاف)) (صفحة٧٥) .

❊ عرض وتحليل :

- الله تعالى متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم وليس بمخلوق، ولا مجعول، ولا محدث، بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات.

- القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى (غير) مخلوق، بل هو صفة من صفات ذاته، قديم بقدمه، موجود بوجوده، موصوف به، فيما لم يزل وفيما لا يزال . ولا يجوز أن يباينه، ولا يزايله، ولا يحل في مخلوق، ولا يتصف بالحلول رأساً، فاعلم ذلك وتحققه.

- ومن هذه الحقيقة يقول الأشاعرة : إن القرآن مكتوب في المصحف غير حال فيه.

- فكلام الله جلت قدرته الذي هو صفة ذات ، قديم قائم بذاته تعالى وهو غير لفظ اللافظين ، ومداد الكاتبين ، لأن وصف الله قديم ، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل .

- الحصر ، والتحديد والتبعيض ، والحروف والأصوات ، راجعة كلها إلى تلاوة المخلوقين الحادثة دون كلام الله تعالى الذي هو صفة من صفات ذاته ، لأن الحصر والتحديد والتبعيض والحروف والأصوات تحتاج إلي مخارج من لسان ، وشفتين ، وحلق ، والله يتعالى يتنزه عن جميع ذلك . بل نقول : إن كلامه صفة له قديمة لا يحتاج فيه إلى أداة من صوت ، أو حرف ، أو مخرج ، يتعالى عن ذلك علوا كبيرا

- والدليل على سبيل المثال :قوله صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه : (لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر) يريد بذلك الصحف التي يكتب فيها القرآن ، دون نفس القرآن الذي هو كلام الله تعالى ، لأنه كلام الله صفة من صفات ذاته ، ولا يتصور على صفات ذاته اللمس ونيل الأذى.

- ومن قال : بأن الوصف القديم حال في المصحف ، لزمه إذا احترق المصحف أن يقول : بأن وصف الله القديم احترق ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، ومن شأن القديم أن لا يلحقه تغير ولا عدم ، فإن ذلك مناف للقدم .

لقد أوتي الحشوية والفرقة السلفية المعاصرة من الجهل أضعاف ما أوتي المعتزلة من العقل ، فكم جنى الجمود والجهل والغرور والحرفية الساذجة المطابقة لحرفية اليهود على عقيدة الحشوية ومن اغتر بدعاواهم في قضية القرآن خاصة وكافة الأصول العقدية بوجه عام .

إن خشية المعتزلة من أن يحتج النصارى عليهم بصحة تثليثهم لو اعترفوا بقديم لم يزل غير الله تعالى جعلهم يقولون : بأن القرآن الكريم الذي هو كلام الله وهو صفة ذات له تعالى مخلوقا وليس قديما لأنهم نفوا الصفات لله تعالى خشية من الاعتراف بقديم غيره يحتج به من قالوا بالتثليث عليهم ، ولم يتبينوا الدقيقة المعرفية التي تبينها أبو الحسن الأشعري رحمه الله عندما أوضح بأدلة العقل والنقل أن كلام الله صفة ذات لله تعالى قديمة كغيرها من صفات الذات ، لكن الصفات ليست هي ذاته فليس الله تعالى علما ، أو كلاما ، أو سمعا أو بصرا أو غير ذلك من الصفات ، ولا هي منفصلة عنه أي ليست مستقلة عنه. فصفاته تعالى قديمة قائمة به .

لكن الحشوية والسلفيين الذين نبشوا ونشروا انحرافات الحشوية العقدية بعد أفول دفعهم الجهل والعجز عن تقديم الدليل المنطقي من العقل والنقل على نفي القول بخلق القرآن إلى القول بأن اللغة والحروف والأصوات التي يُقرأ بها القرآن والأحبار والأقلام التي يُكتب بها ، والأوراق التي يُكتب فيها قديمة لم تزل كقِدَم الله تعالى وصفات ذاته تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

فاعل الكبيرة

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رحمه الله تعالى: في ما صحّت نسبته إليه من كتاب ((الإبانة)) :

[وندين بأن لا نكفّر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه ، ما لم يستحلّه ، كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، كما دانت بذلك الخوارج –أي بتكفير فاعلي الكبائر– وزعمت بأنهم كافرون .

ونقول : إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر ، كمثل الزنا والسرقة وما أشبهها ، مُستحِلًّا لها غير معتقد تحريمها كان كافرا] ((الإبانة)) (صفحة٣٨).

ويشير أبو الحسن بذلك إلى أن من فعل كبيرة من الكبائر التي ذكرها وما شابهها وهو غير معتقد بتحريمها وغير مُستحِلٍّ لها (فهو عاصٍ) وليس بكافر وحسابه على الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، ومن ثم فإنه ليس من أهل الخلود في النار، وليس ممن لا يشفع لهم سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، كحال الكفار والمشركين الممتنعة عنهم شفاعة الشافعين وفي جهنم خالدين .

وقال العلامة إبراهيم بن محمد الباجوري الأشعري عقيدة المتوفى سنة ١٢٧٧ هـ رحمه الله تعالى في شرحه على ((الجوهرة)) ، عند قول الناظم :

إذ جائزٌ غفرانُ غيرِ الكفرِ   فلا نكفِّر مؤمناً بالوِزرِ
ومن يمتْ ولم يتب عن ذنبهِ   فأمرهُ مُفوضٌ لربهِ

قوله : (فلا نكفِّر مؤمنا بالوزرِ) : أي فلا نكفّر -بالنون- : أي معاشر أهل السنة ، أو -بالتاء- أي أيها المُخَاطَب أحدا من المؤمنين بارتكاب الذنب صغيرا كان الذنب أو كبيرا عالما كان مرتكبه أو جاهلا ، بشرط أن لا يكون ذلك الذنب من المكفّرات : كإنكار علمه تعالى بالجزئيات ، وإلا كفر مرتكبه قطعا . وبشرط أن لا يكون مُستحِلاً -أي للذنب الذي يرتكبه وهو معلوم من الدين بالضرورة ، كالزنا- ، وإلا كفر باستحلاله لذلك.

وخالفت الخوارج فكفّروا مرتكب الذنوب ، وجعلوا جميع الذنوب كبائر ، كما سيأتي ولم يكفروا بتكفير مرتكب الذنوب ، مع أن من كفّر مؤمنا فقد كفر ، لأنهم قالوا ذلك بتأويل واجتهاد.

وأما المعتزلة : فأخرجوا مرتكب الكبيرة من الإيمان ، ولم يدخلوه الكفر إلا باستحلال ، فجعلوه منزلة بين منزلتين ، فمرتكب الكبيرة مخلّد عند الفريقين -أي الخوارج والمعتزلة- في النار ، ويُعذَّب عند الخوارج عذاب الكفار ، وعند المعتزلة عذاب الفُسّاق .

ثم قال الباجوري في شرح البيت الثاني : (ومن يمت) بعد أن ارتكب ذنبا من الكبائر غير المكفِّرة -أي غير الكبائر المُكفِّرة- بلا استحلال -أي : غير مستحل للكبيرة التي ارتكبها- والحال -أي : وكان حاله- أنه لم يتب إلى الله تعالى ، (فأمره) وشأنه (مفوض) وموكول (إلى ربه) ، فلا نقطع بالعفو عنه لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة -كما قطع المرجئة والجبرية بذلك- ولا بالعقوبة -كما قطع الخوارج والمعتزلة وغيرهم من طوائف القَدَرية بذلك- لأنه تعالى يجوز عليه أن يغفر ما عدا الكفر ، وعلى تقدير وقوع العقاب نقطع له -أي لمرتكب الكبيرة غير المُكفَّرة وهو غير مُستحِل لها- بعدم الخلود في النار . وهذا هو مذهب أهل الحق ، واستدلوا عليه بقوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ (الزلزلة/٨) . وقوله عليه وعلى آله الصلاة والسلام : (من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة)] انتهى من ((تحفة المريد)) (صفحة١٤٨و ١٤٩) .

وقال العلامة الشيخ محمد أمين كردي الإربلي ، الأشعري عقيدة ، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ رحمه الله تعالى :

[ومما يجب اعتقاده : أن الله يعفو تفضلا منه عن كبائر السيئات بسبب التوبة عنها ، ويغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، قال تعال : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ (النساء/ ٣١) . ومما يجب اعتقاده : أن من مات ولم يتب من الكبائر غير الكفر -غير الكبائر المكفِّرة كإنكار علم الله تعالى بالجزئيات- فهو تحت مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عاقبه بعدله وإن شاء غفر له بفضله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء/ ١١٦) انتهى من ((التنوير)) (صفحة٧١).

* عرض وتحليل :

- الأشاعرة لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه ما لم يستحلّه .

- من عمل كبيرة من الكبائر ، كمثل الزنا والسرقة وما أشبهها ، مُستحِلاًّ لها غير معتقد تحريمها كان كافرا .

- في الوقت الذي قال الأشاعرة إنهم : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه من الكبائر ما لم يستحله فقد شرطوا أن لا يكون ذلك الذنب من المكفّرات : كإنكار علمه تعالى بالجزئيات .

- مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب منها. أمره وشأنه -عند الأشاعرة- مفوض وموكول إلى ربه ، لا يقطعون بالعفو عنه لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة، ولا يقطعون بالعقوبة لأنه تعالى يجوز عليه أن يغفر ما عدا الكفر .

- الخوارج كفّروا مرتكب الذنوب ، وجعلوا جميع الذنوب كبائر .

- لا يعتقد الأشاعرة كفر الخوارج بسبب تكفيرهم مرتكب الذنوب ، مع أن من كفّر مؤمنا فقد كفر ، لأن الخوارج قالوا ذلك القول بتأويل واجتهاد .

- المعتزلة أخرجوا مرتكب الكبيرة من الإيمان ، ولم يدخلوه الكفر إلا باستحلال ، فجعلوه في منزلة بين منزلتين .

- مرتكب الكبيرة مخلّد عند الفريقين (الخوارج والمعتزلة) في النار .

- المرجئة قالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ، فجعلوا مجرد التصديق هو الشرط الوحيد في دخول الجنة دون التلفظ والعمل . وهو قول وقف خلفه الطغاة من حكام بني أمية لتبرير طغيانهم ونفي أنهم معاقبين عليه في الآخرة أو يجب أن يكونوا محاسبين عليه في الدنيا .

يتضح من عقيدة أهل السنة والجماعة التي أصّل قواعدها الإمام أبو الحسن الأشعري والأعلام من أتباعه أنها قد وضعت حدا للتراشق بتهم التكفير بين أهل القبلة ووضعت للحكم بالتكفير أقوى وأشد الضوابط وفق تعاليم الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

لقد كانت العديد من الفرق الإسلامية قبل ظهور أبي الحسن رحمه الله تتعامل مع قضية التكفير بخفة ورعونة منقطعة النظير ، فكان الأمر عند بروز أبسط خلاف بين فرقة وأخرى ، سرعان ما تبادر كل فرقة برمي الأخرى بالكفر وتتبرأ منها وتهدر دم من انتسب إليها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى أن المتكلم في أي فرقة من الفرق حين يخرج باجتهاد شخصي في مسائل العقيدة يحكم على من خالفه في اجتهاده من أهل فرقته بالكفر وإهدار الدم كما حدث عند الخوارج والباطنية والمعتزلة ، ولذا تعددت الفرق المتفرعة من كل فرقة وتميزت بالنسبة الاسمية لهذا المتكلم أو ذاك حتى بلغ بعضها المئات بين كبيرة وصغيرة .

من هنا جاءت عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمة متزنة وملتزمة بالكتاب والسنة في مسألة التكفير ، بعيدا عن كل دوافع الغرور والهوى وأشكال النزق والخفة :

لا نكفر أحدا من أهل القبلة بغير ذنب مكفّر يمس قاعدة من قواعد توحيد الباري جل شأنه وتنزيهه وبأدلة قاطعة ومحددة مبنية على حكم شرعي يأخذ فيه المتهم حقه الكامل في الدفاع عن نفسه وشرح ما هو عليه .

لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب غير مستحل ، حتى الذين كفرّوا المذنب من الخوارج والمعتزلة لا نكفّرهم طالما جاء حكمهم عن طريق التأويل والاجتهاد ، وفي ذلك قمة احترام الآخر واحترام الحق في الاجتهاد والخلاف .

إنه سعي أشعري مخلص نلمسه هنا لوضع دائرة التكفير في أضيق نطاق ، وبشكل انتقل بالأمة من سعير الأحقاد والبغضاء وسفك الدماء البرّيئة إلى نعيم المحبة والاحترام والحوار الهادف ومحاولة الفهم المتبادل.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يمكن إجمال الاتفاق في شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الأشاعرة وأغلب الفرق الإسلامية على النحو الآتي:

- أن يعرف الآمر والناهي أن ما يأمر به معروفا و ما ينهى عنه منكرا ليأمن الوقوع في الخطأ ، أي : أن يكون عالما بما يأمر به وما ينهى عنه ، وليس للعامي الأمر ، والنهي إلا فيما علم من الدين بالضرورة كالحث على الصلاة والصوم في مجال الأمر . والنهي عن شرب الخمر وعقوق الوالدين في ما يتعلق بالنهي .

- أن لا يأمر وينهى العالم في مجال الاجتهاد ، إذ لا يجوز حمل الناس على الظن ، فما اختلفت فيه آراء المجتهدين لا يجوز النهي عنه ولا تغييره ، ولا يجوز أيضا حمل الناس على غير ما يتبعون من مذاهب أئمتهم . فإذا وجد المنكر المتفق على كونه منكرا وجب النهي عنه سواء كان من الصغائر أو من الكبائر من الذنوب ، فالمنكرات كلها سواء في وجوب النهي .

- أن لا يكون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مضرة أعظم منه على المجتمع . وذلك يتسق مع قاعدة : (درء المفاسد أولى من جلب المصالح) ، وقاعدة : (ارتكاب أخف الضررين) .

- أن يرى الناهي عن المنكر أن المنكر حالاً أو يغلب على ظنه أنه كذلك عند وقوع النهي ، فإن قد أتاه فاعله فليس ثمة نهي وإنما العقوبة إن كان ثمة عقوبة وهي إلى ولي الأمر ، كما لا يكون النهي في حال أن فاعل المنكر لم يأته وإنما يتأهب لإتيانه وإنما الوعظ والنصيحة ، لأن إساءة الظن بالمسلم لا تجوز .

- أن يكون المنكر الذي يتم النهي عنه ظاهرا للناس فلا يجوز للناهي عن المنكر التتبع والتجسس على المسلمين .

وقالت المعتزلة والشيعة الإمامية إضافة إلى ذلك :

- أن يعلم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أو يغلب على ظنه أن أمره ونهيه مؤثر .

وزاد الشيعة الإمامية شرطا آخر وهو :

- إصرار الفاعل على إتيان المنكر وترك المعروف فإن ظهر منه ما يدل على ترك الإصرار سقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والشروط التي يجب توفرها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ثلاثة :

١ - التكليف : والمكلف هو المسلم البالغ العاقل .

٢ - الإيمان : لأنه لا يمكن تصور آمر فيما لا يؤمن بأنه معروف أو ناهٍ فيما لا يعتقد بأنه منكرا.

٣ - القدرة : فالعاجز عن الأمر والنهي لا يلزمه ذلك ، قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وشرط القدرة عند انعدامه يسقط واجب الإنكار باليد واللسان دون واجب الإنكار بالقلب .

والشروط المختلف حولها شرطان .

١- العدالة : اشترطها البعض وقالوا : من لم يكن صالحا في نفسه فكيف يصلح غيره؟. وقال آخرون : بأن أدلة الإيجاب لم تفرق في الوجوب بين الطائع والفاسق . وقال النووي : ولا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به مجتنبا ما ينهى عنه بل عليه الأمر وإن كان مخلا بما يأمر به والنهي وإن كان متلبسا بما ينهى عنه .

٢- إذن الإمام : ويقصد به أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مكلفا بذلك من الحاكم أو الوالي ، وهو ما كان يسمى (بالمحتسب) وقد ذهب بعض الفقهاء إلى اشتراط هذا الشرط ولم يجعلوا للأفراد حقا في الأمر والنهي دون إذنّ الوالي أو الحاكم ، ونفى وجوب هذا الشرط فقهاء آخرون منهم حجة الإسلام الغزالي الذي قال عنه : إنه شرط فاسد، وقد جرت عادة السلف الصالح في الصدر الأول وما تلاه على الإنكار حتى على الحكام والولاة أنفسهم ، فإذا كان الإمام أو الحاكم قد يقع في أمر يجب لأجله الإنكار عليه فكيف يحتاج ذلك إلى إذن منه ؟. وقد نقل إمام الحرمين الجويني قوله بإجماع الأمة على عدم الحاجة إلى إذن الإمام . وقال حجة الإسلام الغزالي في ((الإحياء)) : التخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له .

صفة واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

- جمهور الفقهاء يقولون : بأنه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الآخرين .

وذهب بعض فقهاء الشيعة الإمامية إلى القول : بأنه فرض عيني لا كفائي كما رجح ذلك الحلي في ((شرائع الإسلام)) .

- جمهور الفقهاء يقولون في مسألة النهي عن المنكر كما ورد في الحديث الشريف : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان) أن الترتيب في النهي يكون من الأدنى إلى الأعلى أي : الإنكار بالقلب أولا ثم باللسان ثم باليد ، ونقل بعضهم عن المعتزلة العكس .

- الإنكار بالقلب لا يقف عند مجرد الرفض القلبي وإنما يجب أن يصحبه مقاطعة مجالس المنكر ونبذها وعدم التعامل مع أصحابها

- اختلف الفقهاء في مسألة تغيير المنكر باليد -أي بالقوة- بالنسبة للحاكم . فذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز وإنما يكون النهي بالقلب واللسان فقط . وذهب آخرون إلى جواز التغيير باليد] انتهى من بحث للدكتور محمد سليم العواء بتصرف .

عرض وتحليل:

يحكم هذا الأصل عند الأشاعرة ضوابط خمس يمكن إجمالها على النحو التالي :

١- عدم تكفير أحد من أهل القبلة بذنب غير مستحل .

٢- القبيح والحسن يحدده الشرع وليس العقل ، فما رآه الشرع حسنا فهو حسن وما رآه الشرع قبيحا فهو قبيح .

٣- الأصل في الأشياء الإباحة ولا تحريم أو كراهة إلا بنص شرعي واضح وصريح.

٤- لا يدخل أحد الجنة بعمله .

٥- وسائل تغير المنكر كما وردت في الحديث الشريف : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان) ثلاث وسائل : اليد واللسان والقلب . فكلمة (من) لغويا تفيد البعض وتفيد الكل ، وهي هنا وفق سياق نص الحديث الشريف تفيد تقسيم المنكرين إلى ابعاض حسب قدرات كل بعض وليس إلى كل .

ومن هذه الضوابط يتضح :

أولا : أن الوسط الذي يجري فيه تطبيق هذا الأصل هو وسط إسلامي يتكون من مجموعة من بشر تجمعهم الأخوة في الدين ، والأشاعرة لا يكفّرون أي فريق من هذا الوسط الإسلامي بذنب غير مستحل ، ولا يصفونه بالشرك والضلال والابتداع لاختلافهم معه في مسائل اجتهادية، ومن هنا فإن الصلف والشدة والتطرف والاستعلاء

منزوعة كلها من أسلوب الأشاعرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عكس ما هو عليه الحال عند الخوارج والحشوية في السابق وعند خلف الحشوية في الوقت الحاضر ، الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين مغالطة وتمويها .

ثانيا : إن المعروف عند الأشاعرة هو ما حدد الشرع وصفه بالمعروف ، والمنكر هو ما حدد الشرع وصفه بالمنكر ، ومن ثم فهو أصل مقيد بالشرع وليس مطلقا يتحكم فيه العقل سلبا وإيجابا ، أو تتحكم فيه دعوى الوصاية على الشرع خصوصا وعلى الإسلام عموم عند الحشوية في الماضي وخلفهم الذين يسمون أنفسهم بالسلفيين في الوقت الحاضر حيث جعلت هذه الفرقة : المعروف ما اعتقدوه وليس ما حكم به الشرع ، والمنكر ما أنكروه وليس ما أنكره الشرع .

ثالثا : المنكر -عند الأشاعرة- هو ما خالف نصا صريحا من كتاب أو سنة أو إجماع ، أو ما صادم معلوماً من الدين بالضرورة ، وليس منكرا تقليد عالم مشهود له بالعلم والتقوى فيما اختلف فيه العلماء في مسائل الشرع ، أو فيما اجتهد فيه الفقيه أو المفكر المسلم ولم يخالف به نصا صريحا من كتاب وسنة وإجماع .

رابعا : في الوقت الذي يُطلَب من الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، الأمر بالالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه والتشمير في العمل الصالح يتوجب عليه التنبيه بأنه لا يدخل الجنة أحد بعمله وإنما بفضل الله ومغفرته ورحمته ، فلا ينزع من القلوب خوف الله ولا يقنِّط عباد الله من رحمة الله .

خامسا : يعتقد الأشاعرة بالوسائل الثلاث التي حددها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه ، في مسألة تغيير المنكر :

فالوسيلة الأولى اليد : تكون للوالي العام المسلم : لأنها تستدعي ، مدعيا وبينة وشهود وحكماً شرعياً نهائياً صادراً من قاضٍ معترف به ومعيَّن من قبل الوالي العام ، على من يتوجب تغيير المنكر الذي ارتكبه باليد ، ثم يحتاج إلى سلطة تنفيذية محددة يوكل لها

الوالي العام تغيير المنكر باليد حسب منطوق الحكم الشرعي النهائي وليس بالفوضى في التنفيذ.

فالتغيير باليد لو أُطلِق أمره وانفلت فيه الزمام للجميع لتحول إلى فتنة اجتماعية وحروب أهلية وعنف مدمر وسفك دماء بريئة وتصفية حسابات شخصية تحت لافتة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث تصبح الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي في أي مجتمع مسلم بهذا الخلط والمفهوم المغلوط في التغيير باليد إلى أثَرِ بعد عَيْن .

والتغيير باللسان : هو مهمة العلماء الذين يملكون الدليل الشرعي على أن ما نهوا عنه هو منكر، حتى لا يفتي أحد في المعروف والمنكر بالجهل والهوى والرأي ، فمن جاء إلى مرتكب منكر لينهاه عن المنكر ربما طالبه بدليل كون ما يفعله منكرا .

فإن أفتاه بغير علم ودليل ، كذب على الله ورسوله .

وإن لم يفته ولم يقدم إليه الدليل ربما زاده تمسكا بمنكره واستحسانا له واستمرارا فيه.

والتغيير بالقلب : يكون للعامي الذي لا يملك دليل النهي ، فيرفض هذا المنكر بقلبه ويشهد الله على رفضه وإنكاره ويجتنب الوقوع فيه أو مساعدة مرتكبه بشكل مباشر أو غير مباشر .

والاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أحاطه المتطرفون من أدعياء السلفية في عصرنا الحاضر بالكثير من الضبابية والمغالطة ، محكوم بإشراف وتوجيه السلطة القضائية الشرعية والرجوع إليها عبر الإبلاغ أو الدعوى وليس بإطلاق التصرف بدعوى الاحتساب .

وفي اعتقادنا أن حجة القائلين بشرط العدالة في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أقوى وأوجه من حجة القائلين بعدم اشتراطها والله اعلم .

الإمامة

قال إمام أهل السنة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، المتوفى سنة ٣٢٤ هـ رضي الله عنه:

[إن قال قائل : ما الدليل على إمامة أبي بكر -الصدِّيق- رضي الله عنه ؟

قيل له : الدليل على ثلاثة أصناف :

هناك قائلين يقولون : بإمامة علي -ابن أبي طالب رضي الله عنه- بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقائلين يقولون : بإمامة العباس -بن عبد المطلب- رضي الله عنه .

وقائلين يقولون : بإمامة الصدِّيق -أبي بكر- رضي الله عنه .

ورأينا عليا والعباس قد بايعاه -أي الصدِّيق- وانقادا لأمره وكافة المسلمين ، وإن كان قد توقف عن البيعة متوقفون وقتا ما فقد أطبقوا على البيعة له والانقياد لإمامته والكون تحت رايته واتِّباع أمره ، وقالوا له : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولا يجوز أن تجمع الأمة على خطأ ، ولا يجوز لمدَّعٍ أن يدعي أن باطن علي والعباس بخلاف ما أظهراه ، ولو جاز ذلك لم يجز لنا أن نقضي على صحة إجماع من الأمة على شيء ، لأننا لا نأمن أن يكون باطن بعض الأمة خلاف ظاهرهم ، فلما كان بما يظهر من الأمة من الاتفاق قد يعلم به الإجماع ، ولا يلتفت إلى دعوى من ادعى الباطن وكأن مدعي ذلك يقول من الخوارج : أن باطن علي بخلاف ظاهره .

فلما كان في هذا إبطال الإجماع وجب القضاء بإمامة أبي بكر بعقد من عقدها له من المسلمين ، وبيعة من بايعه من المهاجرين والأنصار ، وإجماع المسلمين عليه في وقته ، لا سيما وعلي والعباس عاقدان له البيعة على نفسيهما ، ومقران له بالإمامة وخلافة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإذا كانت الخلافة لا تخرج عن هؤلاء الثلاثة بإجماع ، وقد بايعاه في كافة المسلمين ، وجب أن يكون إماماً مفترض الطاعة ، وقد نطق القرآن بإمامة الصديق ودل على إمامة الفاروق ، وذلك أن الله تعالى قال في سورة براءة

للقاعدين عن نصرة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، والمتخلفين عن الجهاد معه : ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (التوبة/ ٨٣) وقال في سورة أخرى : ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الفتح/ ١٥) يعني قوله ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (الفتح/ ١٥) ثم قال : ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ﴾ (الفتح/ ١٦) . إن أطعتم الداعي لكم إلى قتالهم آتاكم الله أجراً حسنا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ (الفتح/ ١٦) يعنى تعرضوا عن إجابة الداعي لكم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ (الفتح/ ١٦) .كما أعرضتم من قبل : ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ (الفتح/ ١٦) وقد علمنا أن الداعي لهم غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه قال لنبيه : ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ (التوبة/ ٨٣) وقال في سورة الفتح ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الفتح/ ١٥) . فمنعهم الله تعالى من الخروج مع نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وجعل خروجهم معه تبديلا لكلامه ، فوجب -إذاً- أن يكون الداعي الذي أُمِروا باتباعه داعياً يدعوهم بعد الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقد قال الناس قولين :

قال بعضهم : هم فارس والروم -أي الذين دعا الله لقتالهم- .

وقال آخرون : هم أهل اليمامة .

وأبو بكر قاتل الروم وأهل اليمامة وقوتلت فارس في أيامه وظفر بها من بعده .

فإن كانوا أهل اليمامة أو الروم فقد قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه ، وفي ذلك إيجاب إمامته .

وإن كانوا فارس فقد قوتلوا في أيامه وفرغ عمر منهم من بعده ، فقد وجبت إمامة عمر .

وإذا وجبت إمامة عمر وجبت إمامة أبي بكر رضي الله عنهما لأن أبا بكر عقدها له .

وإذا كان المعنى : من قاتل فارس والروم وفرغ منهم ، فإذا وجبت إمامة عمر وجبت إمامة أبي بكر لأنه هو العاقد لإمامته .

فدل ما قلناه على إمامة الصديق والفاروق .

وإذا وجبت إمامة أبي بكر بالدلالات التي ذكرناها -بظاهر القرآن وبإجماع المسلمين في وقته عليها- فسد قول من قال : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نصَّ على إمامة غيره .

لأنه لا تجوز إمامة من نص الرسول على إمامة غيره .

وهذا يقضي ببطلان قول من قال : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نصب عليا بعده إماما .

ومما يبطل قول من قال : بالنص على إمامة أبي بكر : أن أبا بكر قال لعمر : (ابسط يدك أبايعك) يوم السقيفة . فلو كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نص على إمامته -أي أبي بكر- لم يجز أن يقال:(ابسط يدك أبايعك)] انتهى من ((اللمع)) (صفحة١٣٠-١٣٤).

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، الأشعري عقيدة المتوفى سنة ٥٠٥ هـ رحمه الله تعالى :

[إن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ولا يطّلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقد ورد في الثناء عليهم -أي الأربعة- آيات وأخبار كثيرة] ((الإحياء)) (جزء١صفحة١٣٧) .

إن شرائط الإمام بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة ، والورع ، والعلم ، والكفاية ، ونسبة قريش ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (الأئمة من قريش) أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكمُ .

* عرض وتحليل :

ذكر بعض أعلام الأشاعرة كحجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله شروطا في الإمام من أبرز ما هو محل الاتفاق منها ثلاثة :

الإسلام و الذكورة والورع .

وذكروا أيضا من الشروط : العلم والكفاءة ، لكن تقدير هذين الشرطين نسبي ومحل تفصيل ، لأنه كم من عالم ليس لديه من الحزم وقوة الشخصية ما يؤهله للإمامة وكم من قليل البضاعة في العلم لديه المقدرة على الحكم مع تقريب العلماء في عصره ومصره وضم علمهم إلى حزمه وعدله وقوة شخصيته .

أما الكفاءة فهي أيضا في مسألة الإمامة نسبية وتختلف باختلاف الزمان والمكان ومستويات المحكومين اجتماعيا واقتصاديا وعلميا .

وذكروا شرطا سادسا هو النسبة إلى قريش استنادا إلى الحديث الشريف الذي رواه أنس بن مالك وأخرجه النسائي والحاكم : (الأئمة من قريش) . وفي اعتقادنا أن هذه الشرط المتعلق بإمامة قريش يقصد به الإمامة في العلم من واقع أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش والأحاديث النبوية هي بلغة قريش أيضا ، والقرآن والسنة المطهرة هما مصدرا التشريع الإسلامي وعليهما مداره ، و لا يقصد بها الإمامة في الحكم وفي عصر الخلافة الراشدة فقط جمع الإمام بين العلم والحكم ، والله أعلم .

وقد أورد الإمام تاج الدين السبكي في «الطبقات» هذه المنظومة في الدفاع عن عقيدة أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه :

إن اعتقـــاد الأشـــعري	مثـل عقــود الجـوهري
مـــا ينكـــر اعتقـــاده	غـير جهـول مفـتري
كـــم يــدعي تقصــيره	مــن جاهــل مــقصر
ليســـت لـــه معرفـــة	بمثمنـــات الـــدرر
يريـــــد أن ينالهــــا	جهــلا بـبـذل الــكسر
والـــدر لا يطمـــع في	حصـــوله لمــتعسر
فمـــن بـــدا إفلاســـه	فلـيس ممـــن يشـــتري
ومـــن غـــدا ذا ثـــروة	حصــــله بالبـــدر
ونـــال منـــه مـــا اشـــتهى	كــذاك علـم الأشـعري
مـــن رام أن ينالـــه	وهـو مـن الفضـل عـري
مـــا اكتحلـــت أجفانـــه	في درســـه بالســـهر
ولا لقـــي مـــبرزا	في حضر أو ســـفر
ولا ســـعى في جمعـــه	في أصـــل أو بكـــر
ولا اغتـــدى مسترشـــدا	فيـــه فحــول النظـــر
ينظـــر فـــيما ذكـــروا	بالســـبر والتفكـــر
كمـــن تمنـــى ســـفها	نيـل السـهى والمشـتري
أو فـــاتح قـــد فاتـــه	مفتـــاح قفـــل عسر
فـــلا تطـــع في ذمـــه	كـــل عـــدو أبـــتر
واعلـــم يقينـــا أنـــه	ممـــا يقولـــون بـــري
فهـــو إمـــام عـــالم	مـــا فضـــله بمنكـــر
شرف في علومـــــه	بفضــل طيــب العنصر
ذو همـــة بكريـــة	عزمــا وعــدل عمــري

ورأفـــة نوريـــة　　حلـما وعلـما حيـدري
مــا زاغ في اعتقــاده　　عــن آيــة أو خــبر
أو حجــة عقليـــة　　تصــح في المعتــبر
موحــد في عقــده　　ومثبــت للقــدر
والكسـب لا ينكـره　　مثـل جحـود المجـبر
منــزه لربــه　　عـن محـدثات الصـور
وعــن أفــول ذاتــه　　كالشـمس أو كـالقمر
وهــل يكــون صــورة　　للخـالق المصـور
لأنــه لــيس بــذي　　جسـم ولا بجـوهر
ولا يــرى صــفاته　　مثـل صـفات البـشر
لأنــه جــل عــن　　الحـدوث والتغـير
ولـيس ينفـي صـفة　　لــه كنفــي المنكــر
بــل يثبـت الحيـاة والـ　　ـقدرة للمقتـدر
والعلـم لكـن لا يـرى الـ　　ـعلم كعلـم نظـري
وأنــه أراد مــا　　كــان مــن المقـدر
ويثبـت السـمع كـما　　يثبـت وصـف البـصر
ويثبــت القــول ولا　　يجحــده كالقــدري
ولا يـرى المسـطور في الـ　　ـألواح نقـش الأسـطر
ويثبــت اســتواءه　　كـما أتـى في السـور
ويثبــت النــزول لا　　كهــابط منحــدر
مـن غـير تشـبيه كـما　　يثبـت أهـل الأثـر
ولا يعــادي أحــدا　　مـن صـحب خير منـذر
بــل يتــولى صـحبه　　والآل خـير العـتر
ويعـرف الفضـل لهـم　　كـما أتـى في السـير

ولا يـــرى المســـلم في　　بدعتـــــه بمكفـــر
فهـــل تـــرى في عقـــده　　مـــن بدعـــة أو مفـــتري
فكـــن بـــه مستمســـكا　　فإنـــه العقـــد السري
وحزبـــه زيـــن الـــورى　　أكـــرم بهـــم مـــن معشر
كـــم بحـــر علـــم زاخـــر　　وبـــدر تـــم مقمـــر
مـــنهم ومـــن مقـــدم　　قـــد حـــاز كـــل مفخـــر
ونـــال حســـن منظـــر　　حقـــا وطيـــب مخـــبر
لا يمـــتري في فضـــلهم　　إلا حســـود ممـــتري
هـــمُ دراري أنجـــم　　وهـــم لآلي أبحـــر
بحـــبهم ينجـــو الـــذي　　يحـــبهم في المـــحشر
فرحمـــة الله عـــلى　　أمـــواتهم في الحفـــر
وأيـــد البـــاقين في ألـــ　　ـــورد وحـــين الصـــدر

وقال العلامة تاج الدين عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي من ضمن منظومة له عن عقيدة الأشعري والأشاعرة :

(كذب ابن فاعلة يقول بجهله　　الله جسم ليس كالجسمانِ
لو كان جسما كان كالأجسام يا　　مجنون فاصغِ وعد عن بهتان
واتبع صراط المصطفى في كل ما　　يأتي وخل وساوس الشيطان
واعلم بأن الحق ما كانت عليـ　　ـه صحابة المبعوث من عدنان
من أكمل الدين القويم وبين الـ　　ـحجج التي يهدي بها الثقلان
قد نزهوا الرحمن عن شبه وقد　　دانوا بما قد جاء في القرآن
ومضوا على خير وما عقدوا مجا　　لس في صفات الخالق الديان
كلا ولا ابتدعوا ولا قالوا البنا　　مشابه في شكله للبنان

وأتـوا عـلى أعقـابهم علماءنـا غرسـوا ثـمارا يجتنيهـا الجـان
كالشـافعي ومالـك وكأحمـد وأبي حنيفـة والـرضى سـفيان
وكمثـل إسـحاق وداود ومـن ومن يقفوا طرائقهم من الأعيان
وأتى أبو الحسن الإمام الأشعري مبينـا للحـق أي بيـان
ومناضـلا عـما عليـه أولئـك الـ ـأسلاف بـالتحرير والإتقـان
مـا أن يخـالف مالكـا والشـافعي وأحمـد بـن حنبـل الشـيباني
لكـن يوافـق قـولهم ويزيـده حسـنا بتحقيـق وفضـل بيـان
يقفـو طـرائقهم ويتبـع جازمـا أعنـي محاسـب نفسـه بـوزان
فلقد تلقى حسن منهجه عن الـ ـأشياخ أهـل الـدين والعرفـان
فلـذاك تلقـاه لأهـل الله ينصر قـو لهـم بمهنـد وسـنان
مثل ابن ادهم والفضيل وهكـذا معـروف المعـروف في الإخـوان
ذو النون أيضـا والسري وبشر بن الحـارث الحـافي بالفقـدان
وكـذلك الطـائي ثـم شقيق الـ ـبلخي وطيفـور كـذا الـداراني
والتسـتري وحـاتم وأبـو تـرا ب عسـكر فاعـدد بغير تـوان
وكـذاك منصـور ابـن عـمار كـذا يحـي سـليل معـاذ الزّمـاني
فلهـم بـه حسّن اعتقـاد مثـل مـا لهـم بـه التأييـد يـوم رهـان
إذ يجمـع الخصـمان يـوم جـدالهم ولمـا تحقـق يسـمع الخصـمان
لم لا يتـابع هـؤلاء وشـيخه الـ ـشيخ الجنيـد السـيد الصـمدان
عنه التصوف قد تلقى فاغتدى ولـه بـه وبعلمـه نـوران
ورأى أبـا عـثمان الحـيري والـ ـنوري يـالهما همـا الـرجلان
والمغـربي كـذا ابـن مسروق كـذا البشري قـوم أفـرس الفرسـان
وأظنـه لم يلتـقِ الخـراز بـل قيـل : التقـى سـمنون في سـمنان
وكـذلك الجـيلي لم ينظـر ولا ابـن عطـاء ولا الخـواص والبنّـان
وكـذاك ممشـاد مـع الـدقي مـع خـير وهـذا غـالـب الحسـبان

وكذاك أصحاب الطريقة بعده ... ضبطوا عقائده بكل عنان
وتتلمذ الشبلي بين يديه وابـ ... ـن خفيف والثقفي والكتان
وخلائق كثروا فلا أحصيهم ... وربوا على الياقوت والمرجان
الكل معتقدون أن إلهنا ... متوحد فرد قديم دان
حي عليم قادر متكلم ... عال ولا نعني علو مكان
باقٍ له سمع وإبصار يريـ ... ـد جميع ما يجري من الإنسان
والشر من تقديره لكنه ... عنه نهاك بواضح البرهان
قد أنزل القرآن وهو كلامه ... لفظت به للقارّي الشفتان
وإلهنا لا شيء يشبهه وليـ ... ـس بمشبه شيئا من الحدثان
قد كان ما معه قديما قط من ... شيء ولم يبرح بلا أعوان
خلق الجهات مع الزمان مع المكا ... ن الكل مخلوق على الإمكان
ما أن تحل به الحوادث لا ولا ... كلا وليس يحل في الجثمان
كذب المجسم والحلولي الكفو ... ر فذان في البطلان مقترنان
والاتحادي الجهول ومن يقل ... بالاتحاد فإنه نصراني
ونبينا خير الخلائق أحمد ... ذو الجاه عند الله ذي السلطان
وله الشفاعة والوسيلة والفضيـ ... ـلة واللواء وكوثر الضمآن
فاسألْ إلهك بالنبيْ محمد ... متوسلا تظفر بكل أمان
لا خلق أفضل منه لا بشر ولا ... مَلَكٌ ولا كون من الأكوان
ما العرش ما الكرسي ما هذي ... عند النبي المصطفى العدنان ؟
السماء والرسل بعد محمد درجاتهم ... ثم الملائك عابدوا الرحمن
ثم الصحابة مثل ما قد رتبوا ... والأفضل الصديق ذو الفرقان
ثم العزيز السيد الفاروق ثم ... اذكر محاسن ذي التقى عثمان
وعلي ابن العم والباقون أهل ... الفضل والمعروف والإحسان
والأولياء لهم كرامات فلا ... تنكر تقع في مهمه الخذلان

والمؤمنــون يــرون ربهــم كــرؤ يــتهم لبــدرٍ لاح نحــو عيــان
هــذا اعتقــاد مشــائخ الإســلام و هــو الــدين فلتسمع لــه الأذنــان
الأشــعري عليــه يــنصره ولا يــألوا جــزاه الله بالإحســان
وكــذاك حالتــه مــع الــنعمان لم يــنقض عليــه عقائــد الإيــمان
ياصــاحِ إن عقيــدة الــنعمانِ والأشــعري حقيقــة الإتقــان
وكلاهمــا والله صــاحب سـنة بهــدي نبــي الله مقتــديان
لا ذا يبــدِّع ذا ولا هـــذا وإن تحسب سـواه وهمـتَ في الحسبان
مـن قـال : إن أبـا حنيفـة مبتـدع رأيــا فــذلك قائــل الهــذيان
أو ظــن أن الأشــعري مبــدِّع فلقــد أســاء وبــاء بــالخسران
كــل إمــام مقتــدى ذو ســنة كالسيف مسلول على الشيطان
والخلــف بيــنهما قليــل أمــره ســهل بــلا بــدع ولا كفــران
فــيما يَقِــل مــن المســائل عــدة ويهــون عنــد تنــاظر الأقــران
ولقــد يــؤول خلافهــم إمــا إلى لفــظ كالاســتثناء في الإيــمان

التوحيد والتنزيه في كلام العارفين بالله

قال العلامة أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري في «الرسالة» وهو من أعيان الطبقة الرابعة من الأشاعرة :

اعلموا (رحمكم الله): إن شيوخ التصوف بنوا قواعدهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم.

ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله : (التوحيد إفراد القدم من الحدوث).

وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، كما:

قال أحمد بن محمد الجريري رحمه الله: (من لم يقفُ على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف) يريد بذلك : أن من لجأ إلى التقليد، ولم يتأمل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة، ووقع في أسر الهلاك.

ومن تأمل ألفاظهم وتصفح كلامهم وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يوثق بتأمله بأن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأوٍ ، ولم يعرجوا في الطلب على تقصير.

*** معرفة الله تعالى:**

قال أبو بكر الشبلي: (الله هو الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف، سبحانه لا حد لذاته، ولا حروف لكلامه) .

وقد سئل رويم بن أحمد عن أول فرض فرضه الله عز وجل على خلقه، فقال: المعرفة لقوله جل ذكره : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الآية (سورة الذاريات/ ٥٦) .

قال ابن عباس[١]: إلا ليعرفون.

وقال الجنيد : إن أول ما يحتاج إليه العبد من الحكمة، معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث، ويذل لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته، فإن من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه.

وقال أبو الطيب المراغي : للعقل دلالة، وللحكمة إشارة، وللمعرفة شهادة، فالعقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة تشهد : بأن صفاء العبادات لا تنال إلا بصفاء التوحيد.

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب (٣ق هـ- ٦٨هـ/ ٦١٩-٦٨٧م) الصحابي الجليل ، ولد بمكة، ولازم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وشهد مع الإمام علي عليه السلام، الجمل وصفين، وكف بصره وسكن الطائف. له ١٦٦٠ حديثا.

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال : إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته : إنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف، ولا تصوير ولا تمثيل ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ .

وسئل أبو بكر الزاهر أبادي عن المعرفة ، فقال: المعرفة اسم ، ومعناه: وجود تعظيم في القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه.

*** صفاته:**

قال أبو الحسن البوشنجي رحمه الله: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ، ولا منفي للصفات.

وقال الحسين بن منصور: إن القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسه، والذي يظفر به الخيال فالتصور يرتقي إليه، ومن آواه محل أدركه (أين) ، سبحانه لا يظله (فوق) ، ولا يقله (تحت) ، ولا يقابله (حد) ، ولا يزاحمه (عند) ، ولا يأخذه (خلف) ، ولا يحده (أمام) ، ولم يظهره (قبل) ، ولم ينفه (بعد) ، ولم يجمعه (كل) ، ولم يوجده (كان) ، ولم يفقده (ليس) ، وصفه لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم .

إن قلت: مضى فقد سبق الوقت كونه .

وإن قلت: (هو) فالهاء والواو خلقه .

وإن قلت: أين؟ فقد تقدم المكان وجوده. الحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الخيال فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأه؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه؟.

لا تقابله الظنون ، قربه كرامته، وبعده إهانته. عفوه من غير توقل[١] ، ومجيئه من غير تنقل، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والقريب والبعيد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ .

قال يوسف بن الحسين : قام رجل بين يدي ذي النون المصري فقال: أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السماوات العلى ولا في الأرضين السفلى، مدبر غير الله، وكل ما تصور في خيالك فالله بخلافٍ ذلك.

وقال الجنيد : التوحيد علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني معه، ولا شي يفعل فعله.

* الإيمان:

قال أبو عبد الله بن خفيف: الإيمان تصديق القلوب بما وضّحه الحق من الغيوب.

وقال أبو العباس السياري: عطاء الله على نوعين: كرامة واستدراج، فما أبقاه عليك فهو كرامة، وما أزاله عنك فهو استدراج ، فقل : أنا مؤمن إن شاء الله.

وقد قال سهل بن عبد الله التستري : ينظر المؤمنون إليه تعالى بالأبصار (أي يوم القيامة) من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وقال أبو الحسين النوري: القلوب شواهد الحق، فلم نر قلبا أشوق إليه من قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فأكرمه الله تعالى بالمعراج تعجيلا للرؤية والمكالمة.

وقال أبو عثمان المغربي: كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة، فلما جئت بغداد[٢] زال ذلك عن قلبي، فكتبت إلى أصحابنا بمكة : إني أسلمت الآن إسلاماً جديدا.

---

(١) التوقل : الصعود .

(٢) بغداد : عاصمة العراق.

وسئل أبو عثمان المغربي عن الخلق ؟ فقال: قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة الإلهية.

وقال الواسطي: لما قامت الأرواح والأجساد بالله، وظهرتا به لا بذواتها، كذلك قامت الخطرات، والحركات بالله لا بذواتها، إذ أن الحركات والخطرات فروع للأجساد والأرواح.

* الأرزاق:

إن أرزاق العباد مخلوقة لله تعالى، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله تعالى، فكذلك لا خالق للأعراض إلا الله تعالى.

قال أبو سعيد الخراز: من ظن أنه إذا بذل الجهد يصل إلى مطلوبه فهو متعن، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فهو متمن.

وقال الواسطي: المقامات (المطلوبة): أقسام قسمت، ونعوت أجريت، كيف تستجلب بحركات أو تنال بسعايات؟

* الكفر:

سئل الواسطي عن الكفر بالله أو لله، فقال: الكفر والإيمان، والدنيا والآخرة، من الله وإلى الله وبالله ولله: من الله ابتداء وإنشاء، وإلى الله مرجعاً وانتهاء، وبالله بقاء وفناء، ولله ملكاً وخلقا.

وقال الجنيد: سئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، فقال السائل: بين لي ما هو.

فقال: هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل وحده، لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وَحَّدْتَه .

وجاء شخص إلى ذي النون المصري وقال له: ادعُ لي، فقال: إن كنت قد أُيِّدت في علم الغيب بصدق التوحيد فالدعوة مجابة، وإلا فالنداء لا ينقذ الغرقى.

وقال أبو الحسين النوري : التوحيد هو كل خاطر يشير إلى الله تعالى بعدم مزاحمته من خواطر التشبيه.

وسئل أبو علي الروذباري عن التوحيد فقال : التوحيد استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل، وإنكار التشبيه، والتوحيد يتبلور في كلمة واحدة، وهي: كل ما صوره الخيال والأفكار فالله سبحانه بخلافه، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ (الشورى/ ١١)

وقال أبو القاسم النصر آباذي: الجنة باقية بإبقائه، وذكره لك ورحمته ومحبته لك باقٍ ببقائه، فشتان بين ما هو باقٍ ببقائه، وبين ما هو باقٍ بإبقائه.

وقال أهل الحق : إن صفات ذات القديم سبحانه باقيات ببقائه تعالى بخلاف ما قاله مخالفو الحق.

وقال النصر آباذي: أنت متردد بين صفات الفعل وصفات الذات، وكلاهما صفته تعالى على الحقيقة، فإذا هيمك في مقام التفرقة قرنك [1] بصفات فعله، وإذا بلغك إلى مقام الجمع قرنك بصفات ذاته[2] .

وقال الأستاذ الإمام أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله: لما قدمت من بغداد كنت أدرّس في مسجد نيسابور مسألة الروح ، وأشرح القول في أنها مخلوقة، وكان أبو القاسم النصر آباذي قاعدا متباعدا عنا يصغي إلى كلامي فاجتاز بنا بعد ذلك بأيام قلائل، وقال لمحمد الفراء: أشهد أني أسلمت مجدداً على يد هذا الرجل، وأشار إليَّ .

وقيل ليحيى بن معاذ أخبرني عن الله عز وجل ؟ فقال: إله واحد.

فقيل له كيف هو؟ فقال: ملك قادر.

فقيل: أين هو؟ فقال: هو بالمرصاد.

فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا...!

---

(١) قرنك : جمع قلبك عليها .

(٢) صفات الفعل : كالتخليق والترزيق ، وصفات الذات كالعلم والقدرة.

وسأل ابن شاهين الإمام الجنيد عن معنى: (مع) فقال: (مع) على معنيين : مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة[1]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ (طه/ ٤٦)، ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة/ ٧) فقال ابن شاهين : مثلك يصلح أن يكون دالا للأمة على الله تعالى.

* العرش:

سئل ذو النون المصري عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه/ ٥) فقال: أثبت ذاته ونفى مكانه، فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه كما شاء سبحانه.

وسئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ ، فقال: الرحمن لم يزل، والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى.

وسئل جعفر بن نصر عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فقال: استوى علمه بكل شيء، فليس شيء أقرب إليه من شيء.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان في شيء لكان محصورا، ولو كان من شيء لكان محدثا، ولو كان على شيء لكان محمولا.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام أيضا، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ (النجم/ ٨).

من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، وإنما التداني أنه كلما قرب منه بعده عن أنواع المعارف إذ لا دنو ولا بُعد .

يقول الخرّاز: حقيقة القرب فَقْدُ حِسِّ الأشياء من القلب، واستكانة الضمير إلى الله تعالى.

---

(١) الكلاءة : الحراسة والحفظ.

ويقول إبراهيم الخواص: انتهيت إلى رجل صرعه الشيطان، فجعلت أؤذن في أذنه فناداني الشيطان من جوفه: دعني أقتله فإنه يقول: القرآن مخلوق.

وقال ابن عطاء: إن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سراً له، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر[1]، ولم يبث ذلك السر في أحد من ملائكته، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام بفنون الجريان وفنون اللغات، فجعلها الله صورا لها.

وصرّح ابن عطاء[2] القول: بأن الحروف مخلوقة.

وقال سهل بن عبد الله: إن الحروف لسان فعل لا لسان ذات، لأنها فعل في مفعول.

وقال الجنيد في «أجوبة مسائل الشاميين»: التوكل عمل القلب، والتوحيد قول القلب.

وقال الحسين بن منصور: من عرف الحقيقة في التوحيد سقط عنه (لِمَ وكيف).

وقال الواسطي: ما خلق الله شيئاً أكرم من الروح.

* الحق سبحانه وتعالى:

قال شيوخ هذه الطريقة في التوحيد: إن الحق سبحانه وتعالى موجود، قديم، واحد، حكيم، قادر، عليم، قاهر، رحيم، مريد، سميع، مجيد، رفيع، متكلم، بصير، متكبر، قدير، حي، أحد، باقٍ، صمد.

وأنه: عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، حي بحياة، باقٍ ببقاء.

وهي يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء، سبحانه على التخصيص، وله الوجه الجميل.

وصفات ذاته مختصة بذاته، لا يقال: هي هو، ولا هي أغيار له، بل هي صفاته الأزلية ونعوته السرمدية.

---

(١) قال تعالى: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (سورة البقرة- ٣١).

(٢) أي: واصل بن عطاء المعتزلي.

وأنه أحديُّ الذات، ليس يشبه شيئاً من المصنوعات، ولا يشبهه شيء من المخلوقات.

ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا صفاته أعراض، ولا يُتَصوَّر في الخيال، ولا يُقدَّر في العقول، لا جهة له ولا مكان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان.

ولا تخصّه هيئة وقدّ، ولا تقطعه نهاية وحدّ، ولا يحلّه حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون.

ولا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفكّ عن حكمه مفطور، ولا يعزب عن علمه معلوم، ولا هو عن فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم، لا يقال له: أين هو ولا كيف هو؟ ولا يستفتح له وجود، فيقال: متى كان؟، ولا ينتهي له بقاء، فيقال: استوفى الأجل والزمان، ولا يقال: لِمَ فعلَ ما فعل؟ إذ لا علة لأفعاله.

ولا يقال: ما هو؟ إذ لا جنس له فيتميز بأمارة[1] عن أشكاله، يرى لا عن مقابلة، ويرى غيره لا عن مماثلة، ويصنع لا عن مباشرة ومزاولة.

له الأسماء الحسنى والصفات العلى، يفعل ما يريد، ويذل لحكمه العبيد.

لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق به القضاء.

ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد أن لا يكون.

خالق أرزاق العباد، خيرها وشرها، ومبدع ما في العالم من الأعيان والآثار.

ومرسل الرسل إلى الأمم من غير وجوب عليه، ومتعبّد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه، ومؤيد نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين، وعرَّف المنكر، وحافظ على بيضة الإسلام، بعد وفاته صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بخلفائه الراشدين، ثم حرس الحق وناصره بما يوضّحه من

---

(١) الأمارة: العلامة.

حجج الدين على لسان أوليائه ، عصم الأمة الحنيفية من الاجتماع على الضلالة، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة، وأنجز ما وعد من نصرة الدين بقوله تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الصف/ ٩).

من «الرسالة القشيرية» بشرح الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله باختصار وتصرف.

فهرسة كتاب
«عقيدة أبي الحسن الأشعري
مذهب السواد الأعظم من المسلمين»

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٦
الحالة العامة عند البعثة المحمدية	١٠
أسباب نشوء المذاهب والنحل	١٥
التحول الأساسي في البحث والجدل	١٦
فتش عن التطرف	١٨
المشترك الأعظم بين الجحود والجمود	٢١
أهمية العناية بأصول العقيدة	٢٥
التفويض والتأويل	٣٤
الإمام الأشعري : نسبه وترجمته	٤٠
تلامذته	٤٦
الطبقة الأولى	٤٦
الطبقة الثانية	٤٩
الطبقة الثالثة	٤٩
الطبقة الرابعة	٥٠
الطبقة الخامسة	٥٠
مؤلفاته	٥١
حال المسلمين قبل ظهور الإمام أبي الحسن الأشعري ..	٥٣
أمثلة من طريقته الوسطى المعتدلة...............	٥٦
في قضية خلق القرآن	٥٦

الموضوع | الصفحة

في مسألة الرؤية في الآخرة ٥٧
في مسألة الجمع بين العقل والنقل................ ٥٧
الإمام الذي جمع الله به كلمة المسلمين فكان مجدد
المائة الثالثة ٥٨
ثناء العلامة الكوثري على الأشعري ٥٩
ثناء الإمام أبي القاسم القشيري ودفاعه عنه ٦٠
ثناء الإمام الغزالي على الأشعري ٦٤
ثناء الحافظ ابن عساكر ومقارناته ٦٥
نظرة في كتب الأشعري المتداولة في الوقت الحاضر ٦٧
«الإبانة» ٦٨
«رسالة الثغر» ٧٢
«اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» ٧٥
الأصول عند الأشاعرة................................ ٧٦
التوحيد.. ٧٦
الصفات ٩٢
الإيمان.. ١١٨
الرؤية... ١٢٨
القدر.. ١٣٢
العدل.. ١٤٠
الوعد والوعيد ١٤٧
الحشر والمعاد....................................... ١٥٥
النبوة ١٥٩

الموضوع	الصفحة
الشفاعة	١٦٩
القرآن	١٧٧
فاعل الكبيرة	١٩٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..................	١٩٦
الإمامة	٢٠٢
منظومة في الثناء على الأشعري والدفاع عنه	٢٠٦
منظومة تاج الدين السبكي في شرح عقيدة الأشعري ..	٢٠٨